حكاياتي مع العبقري

نجيب محفوظ

ندوات قصر النيل وهيلتون رمسيس
وسوفوتيل المعادى وشبرد

مهندس محمد الكفراوي

دار العالم العربي

حكاياتى مع العبقرى

نجيب محفوظ

ندوات قصر النيل وهيلتون رمسيس

وسوفوتيل المعادى وشبرد

الفهرس :

١- مقدمة.....ص ٤

٢- النهاية.....ص٦

٣- الإنسان..... ص٧

٤- مطبات فى طريق الصداقة..... ص٨

٥- شخصيات حوله.....ص١٨

٦- لمحات من شخصيته وأراؤه.....ص٦٥

٧- حوارات معه حول مؤلفاته وغيرها..... ص١١٦

٨- هجوم مضاد للدفاع عن أولاد حارتنا.....ص١٩٦

٩- المقال الذى أغضب العبقرى..... ص ٢٠١

مقدمة

كتب الأستاذ إبراهيم عبد العزيز مدير التحرير السابق لمجلة الإذاعة والتلفزيون مقدمة لكتابه الممتع " ليالى نجيب محفوظ فى شبرد "الذى صدر عن دار بتانة عام ٢٠١٧، والذى سرد فيه مجمل الحوارات التى دارت فى ندوة الأستاذ نجيب محفوظ بشبرد إبتداء من يناير ٢٠٠٣ وحتى يوليو ٢٠٠٦ .وهى الفترة التى حضرها الأستاذ إبراهيم بنفسه . كتب إبراهيم فى نهاية المقدمة يقول :"..ولنترك الصالون(الندوة) يتحدث بنفسه عن نفسه ،وإن كان من المهم التنويه أن بطليه هما المهندس "محمد الكفراوى" و"د. محمود الشناوى ". أما الأول فهو عضو اللجنة العليا بحزب الوفد(يقصد عضو بالهيئة الوفدية) وإهتماماته سياسية فى المقام الأول ،وهو من النوع الذى يعتز بأرائه إلى درجة الحدة أحيانا إن خالفه أحد رأيه ،متهما إياه بأنه لا يفهم فى السياسة ،مع أنه يعتبر نفسه ليبراليا وصاحب أفكار ليبرالية ، وهو إذا حضر فله ناصية الكلام ،وإذا سأل سائل فهو الذى يصل بالسؤال إلى أذن الأستاذ ،فهو يأتى فى السابعة والنصف ،ويعتبر أنه ترك لك ساعة كاملة لتتحدث إلى الأستاذ كما تريد ، حيث كان الصالون يبدأ فى السادسة والنصف- فليس لك عذر لكى تجور على وقته ، ومحفوظ يستمع إليه مهما كانت أسئلته لا ترضيه ،فهو وحده القادر على أن يسأله بما لا يستطيع أحد أن يسأله عنه ، ويلح فى السؤال حتى ينتزع منه الإجابة ، ويتهمنا بأننا لا نهتم إلا بما يرضى الأستاذ ،أما هو فمصدر الحقيقة مهما كانت صادمة ، سواء أعجبت الأستاذ أم لم تعجبه سواء فيما يتعلق بالحاضر أو بالتاريخ وسعد زغلول الذى يعشقه الأستاذ ولا يقبل فيه طعنا لأنه رمز جيلهم الذى لا يمس ،ولا يغيب الكفراوى عن الأستاذ إلا نادرا لظروف قهرية ،وإذا تأخر لسبب من الاسباب سأل عليه الأستاذ : اين الكفراوى ؟ فهو محور الصالون فى فندق شبرد ..".

والحقيقة أن مقدمة الأستاذ إبراهيم عبد العزيز صادقة فى توضيح العلاقة القوية بينى وبين العبقرى نجيب محفوظ ،كما أن كتابه الممتع

بجزئيه يؤكد على هذه الحقيقة ، ولكن، ربما لأن الأستاذ إبراهيم قد حضر الندوة فى سنواتها الأخيرة ،لم يدرك سرهذه العلاقة القوية بينى وبين الأستاذ وبالتالى لم يوضح للقارىء لماذا شرفنى وأختصنى الأستاذ نجيب بهذه المشاعر ، لماذا كان يتحمل منى أسئلة وحوارات لم يكن يجرؤ أحد على أن يطرحها عليه أو يناقشها معه ،ولو أنه احيانا –كما سيتضح للقارىء- كان يعاقبنى عليها بشدة ! !. فكانت فكرة هذا الكتاب الذى أوضح فيه كيف بدأت معرفتى بنجيب محفوظ وكيف تطورت هذه الصداقة ولماذا صمدت حوالى خمسة وعشرون عاما حتى رحيله عن دنيانا.ومن خلال هذا التوضيح سوف تظهر شخصية نجيب محفوظ للقارىء كما لم تظهر من قبل ،وسوف يتعرف على مشاعره الحقيقية تجاه الأحداث والشخصيات والمواقف التى قابلها وعاشها .وهو فى ذات الوقت كتاب يعطى للقارىء صورة عامة موجزة لندوات محفوظ فى كازينو قصر النيل وسوفتيل المعادى وشبرد وأيضا لجلستنا الخاصة التى شرفنى بها فى هليتون رمسيس . ويشمل الكتاب أيضا فى جزء لا بأس به الحوارات والتحليلات التى أجريتها مع محفوظ ، الخاصة بكتبه ورواياته وقصصه القصيرة ،والتى أجزم ،بكل تواضع ، أن القارىء عموما والقارىء الشاب خصوصا سوف يستفيد منها فى كيفية قراءة فن هذا المصرى العبقرى الذى قلما يجود الزمان بمثله .

مهندس محمد الكفراوى

النهاية

فى يوم كالح من أيام عام ٢٠٠٦، سقط نجيب محفوظ من فوق سريره بمنزله، هكذا قيل لى ، وذهبت لأراه فى غرفته بالمستشفى .كان فى حالة جيدة جدا، وكانت روحه المعنوية عالية،وضحكته تضىء وجهه كالمعتاد وهو يقول لى: إزيك ياكفراوى ؟.وخرجت من غرفته وأنا متفائل، ولكن بعدها بأيام وفى الزيارة الثانية، دخلت غرفته وإذا بالمكشوف من جسده ممتلىء ببقع داكنة ، وقيل لى أنه قد سقط فى الليلة السابقة من سريره العالى فى المستشفى،حيث نسى المسؤلون رفع المساند المتدلية على جانبى السرير!. وجدته يترنح يمينا ويسارا ،فقد نزع عنه الأطباء نظارته، ونزعوا عنه سماعته، بدعوى أنهم يحمونه من إيذاء نفسه لو سقط مرة اخرى !. كان رأسه وجذعه يترنحان يمينا وبسارا بلا توقف،وكأنه فى حفلة زار، ذاهلا عما حوله، وعندما قال له أحد الموجودين أن الكفراوى بيسلم عليك ،لم يبد أى ادراك ولم ينطق بكلمة واحدة، بل إستمر فى الإهتزاز يمينا ويسارا .كان هذا المنظر فوق إحتمالى ،فخرجت مسرعا وأنا ادرك تماما أنها النهاية ،وأننى لن أر أحب وأعز إنسان لدى فى الحياة مرة اخرى،وقد كان .

الإنسان

كان إحساسى دائما وأنا ذاهب لرؤية الأستاذ فى ندوته، هو أجمل وأقوى إحساس شعرت به فى حياتى وحتى اللحظة . إحساس غامر بالسعادة والحب والجمال وكل المشاعر الخيرة التى من الممكن أن يختبرها الإنسان . هذا الإحساس يصل إلى أقصاه عندما يقابلك بإبتسامته الجميلة قائلا أهلا يافلان. وأنا واثق تمام الثقة أن هذا هو شعور كل الذين كانوا يحرصون على حضور ندواته.

كان الأستاذ نجيب محفوظ رمزا للحياة الإنسانية فى أجمل وأشرق وأنبل أحوالها. كان الإنسان فى معيته يشعر بهذا ،ويتمنى لو أن الحياة تعامله مثلما يعامله نجيب محفوظ ، تحترمه مثلما يحترمه نجيب محفوظ ، تحنو عليه مثلما يحنو عليه نجيب محفوظ ، تحاول أن تفهمه مثلما يحاول نجيب محفوظ ، تستقبله وتودعه بإبتسامة وضحكة مشرقة كما نجيب محفوظ.

ونعرف من خبرات الحياة والتاريخ أنه لايوجد إنسان كامل .فقد يكون الإنسان عبقريا فى مهنته أو عمله، ولكنك قد تجده مغرورا بنفسه وبعبقريته، أو تجده عابسا أو كئيبا لا يعرف المرح فى حياته العملية والإجتماعية. أو قد يكون منعزلا ضيق الصدر، أو قد تجده سليط اللسان أو فى أفضل الأحوال إنسانا عاديا لا يثير الإهتمام .أما أن يكون الإنسان عبقريا فى عمله كأعظم ما تكون العبقرية ،ومتواضعا فى سلوكه مع الأخرين كأصدق ما يكون التواضع ، وإجتماعى ومرح وإبن نكته ،وإذا كان عمله يعمق فى مشاعرك حب الوطن وعشق الحياة ،هنا تكون قد صادفت إنسانا يمكن أن تصفه بإنه إنسان شبه كامل! .وهكذا كان نجيب محفوظ ،لمن أسعده الحظ وأصبح من أصدقائه، إنسان أقرب ما يكون إلى الكمال .

مطبات فى طريق الصداقة !

مفاجأة سارة

بعد عودتى من العمل فى السعودية كمهندس مدنى عام ١٩٨٢ تقريبا،كنت جالسا فى كازينو كليوباترا أمام النيل بحى العجوزة مع ضيف لى أثناء فترة العصر،وفجأة شاهدته، الروائى العبقرى نجيب محفوظ بشحمه ولحمه جالسا على المائدة التى أمامى وحده، سارحا ببصره إلى الأفق. كنت قد قرأت كتبه وبهرت بعبقريته وعمق رواياته، وأصبحت أمنيتى أن أعرفه عن قرب وأتمتع بصحبته ،لذا وجدتها فرصه لا تعوض .ناديت على الجرسون وأخبرته أن يذهب للكاتب العبقرى ليستأذنه فى جلوسى معه دقائق معدوده ،وعندما وافق نجيب إستأذنت ضيفى لبضع دقائق وذهبت اليه وجلست معه وأخبرته بمدى إعجابى وتأثرى بروعة رواياته وأستأذنته فى أن يحدد لى موعدا أستطيع فيه أن أتمتع بصحبته بصفة دائمه.فأخبرنى أنه يعقد ندوته الإسبوعية يوم الجمعة فى كازينو قصر النيل،وأنه يرحب بى فى أى وقت.عدت إلى ضيفى وأنا أطير من الفرحة .وبدأت من هنا صداقة طويلة ممتده معه وحتى وفاته رحمه الله عام ٢٠٠٦.

نتصبب عرقا أمام النيل !

كانت الندوة فى كازينو قصر النيل تضم فى المتوسط ثمانية أو عشرة أفراد ،يزيدون أحيانا وينقصون أحيانا .أذكر منهم مصطفى أبو النصر،موظف كبير سابق فى الرقابة على المصنفات الفنية،وهو مثقف وأديب،وهارفى أسعد محام ماركسى ،وعلى سالم الكاتب المسرحى الشهير،وفتحى هاشم طبيب بيطرى،وسامى البحيرى مهندس مدنى،ومهندس زراعى لا أتذكر إسمه الأن ، ومحمد الشربينى فنان تشكيلى ،وعزيزة الياسرجى مهندسة ، ومديحة أبو زيد صحفية فى مجلة صباخ الخير وعادل عزت محاسب وشاعر، ود. محمود الشنوانى، وأحمد فهمى ناقد سينمائى ومحمد البدرى مهندس وأحمد سعيد مدرس وناقد أدبى ثم إنضم الى الندوة نعيم صبرى مهندس وشاعر ومعه شلة من أصدقائه أبرزهم إلهامى بولس محاسب وصاحب دار نشر ووالده أستاذ علم النبات. وكان يأتى إلى الندوة أحيانا المخرج السينمائى الكبير توفيق صالح الصديق القديم للأستاذ ، وهاشم النحاس الناقد السينمائى المعروف وبعض شباب الصحفيين. طبعا تغير الحال تماما بعد حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل،حيث توافدت أعداد من الشخصيات الادبية وعدد كبيرمن الشباب، لتشاهد وتسمع أول أديب مصرى وعربى يحصل على جائزة نوبل.

كان نجيب محفوظ يجلس أثناء ندوته فى القاعة المغطاة بكازينو قصر النيل أمام مائدة داخلية ملاصقة لجدار القاعة صيفا وشتاء ،وكنا نتصبب عرقا فى ذروة شهور الصيف .وقد حاولت عزيزة الياسرجى أن تقنعه بأن ينتقل إلى مائدة مجاورة لنافذة من النوافذ المطلة على النيل حتى نتخفف من الحر ونستمتع بنسمة هواء أثناء الندوة . طاوعها الأستاذ نجيب مرة أو مرتين ثم عاد إلى قواعده سالما ،إلى المائدة الداخلية ملاصقا للجدار دون أى تفسير، ولم يناقشه أحد أو يطلب منه تفسيرا !.

أما ندوة نجيب محفوظ فى الإسكندرية فقد كانت تجتمع عصرا فى حديقة فندق سان إستفانو القديم ،وكنت أحضرها كلما جئت إلى الإسكندرية ، وهى مرات تعد على أصابع اليد ،وكان من أبرز روادها الذين أتذكرهم الشاعر نعيم تكلا والشاعر عبد الله الوكيل،والأستاذ محمد الجمل، والكاتب يوسف عز الدين،الذى ترك القاهرة بزحامها ودوشتها ،ليقيم إقامة دائمة فى الأسكندرية حيث الهواء العليل والبحر الجميل ،ليكتشف بعدها أن كل مشكلة أو مصلحة له لا يمكن حلها إلا بالذهاب للقاهرة !. كما أسعدنى الحظ بالجلوس مع نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم فى بعض جلساتهم بالإسكندرية صباحا فى كازينو على الجانب المقابل للكورنيش لا أتذكر إسمه، وكانت تضم أحيانا القطب الوفدى المعروف إبراهيم باشا فرج والكاتب ثروت أباظه.

أما بعد نوبل نجيب محفوظ فقد توثقت علاقتى بالأستاذ إلى الدرجة التى تحدث عنها ابراهيم عبد العزيز فى كتابه " ليالى نجيب محفوظ فى شبرد". وسوف يدرك القارىء أثناء تصفحه لهذا الكتاب، كيف ولماذا أصبح الأستاذ نجيب يتحمل منى كلمات وتعليقات لا يجرؤا أى إنسان أخرعلى قولها له. ولوأنه كان فى بعض الاحيان يلومنى عليها بقسوة كما سيأتى فيما بعد.

سيب عادل فى حاله

كانت بداية علاقتى بنجيب محفوظ بداية عاصفة. كانت مشاعره تجاهى على وشك أن تتحول إلى غضب مكتوم ،يمكن أن ينفجر أو يخرج إلى العلن إذا لم أعالج الموقف بسرعه،وقد فعلت وأنقذت نفسى من مصير أسود .إذ لم أكن أتخيل للحظة أن العبقرى الذى تغلغلت رواياته إلى أعماقى، وغير من شخصيتى ونظرتى للحياة وللناس وللوطن ،يمكن أن يكرهنى أو يبعدنى عنه، إنه مصير اسود بكل تأكيد.عندما ذهبت إلى ندوة الأستاذ نجيب فى قصر النيل كانت الندوة تشغى بالناصريين والشيوعيين ،فوجدت نفسى الليبرالى الوحيد تقريبا فى الندوة .ولك أن تتخيل أنه حتى الكاتب الساخر على سالم ،الذى أصبح فى السنوات الأخيرة من عمره من أشد المؤمنين بالليبرالية،وأشد المؤمنين بالسادات ،كان فى بداية إنضمامى للندوة، من أشد الناصريين تعصبا !.كان هذا هو حال الفنان الساخر الجميل على سالم ،فما بالك ببقية الناصريين والشيوعيين الذين كانوا يتوافدون على الندوة دون أن يتمتعوا بظرف وتهذيب على سالم ؟!. لذلك كان لابد أن أكون شديد التركيز وشديد الإستفزاز فى الدفاع عن مبادىء الليبرالية وعن أنور السادات الذى كنت من أشد المؤيدين له. وبالرغم من أن الأستاذ نجيب كان شعوره محايدا تجاه السادات ،إلا أنه كان اشتراكيا اصيلا،وكان كل أصدقائه والمحيطين به عن قرب هم من الناصريين والماركسيين .وكانت شهرته الأدبية والفنية تدين- بجانب موهبته الفذة– لهؤلاء الناصريين والماركسيين الذين ألفوا الكتب النقدية الرائعة عن رواياته مثل الأستاذ محمود أمين العالم والأستاذ غالى شكرى والأستاذ رجاء النقاش وغيرهم من كتاب المقالات ومؤلفى الكتب فى الصحف والمجلات . لكل هذا أعتقد أنه لم يرتح فى البداية إلى هذا الوافد الجديد الذى يدافع عن الليبرالية والرأسمالية بإسلوب إستفزازى بعيد كل البعد عن الأسلوب الهادىء لنجيب محفوظ. وزاد الطين بلة واقعة طريفة وعجيبة ،لم أقلها للأستاذ نجيب حتى رحيله حرصا على مشاعره. وقد كادت هذه الواقعة ،كما ذكرت فى البداية ،أن تحول مشاعر الأستاذ تجاهى وأن

تبعدنى نهائيا عن الندوة بالرغم إننى كنت أدافع فيها عن فنه وعبقريته !. وجاء الوقت لأحكيها،ولكن لابد من مقدمة لها.

كانت الشخصية المصرية ومازالت ،لأسباب تاريخية مفهومة، ترهب وتحترم القوة. وكانت شخصية الأستاذ نجيب الظاهرة للناس هادئة وديعة ، لذلك لم تبهر شخصيته المتواضعه الهادئة، المواطن المصرى، الذى يرهب ويحترم القوة الظاهرة التى لا تختفى وراء ستار .وكان الأديب الموهوب الطبيب يوسف إدريس هو العكس تماما لنجيب محفوظ .كانت شخصية الدكتور يوسف إدريس قوية ظاهرة فى مقالاته بالأهرام وفى أحاديثه العامة والخاصة، وكان معتدا بنفسه وفنه إلى الدرجة التى جعلته يصفع الناقد فاروق عبد القادر على وجهه، عندما لم يعجبه كلامه فى قهوة ريش !!.وهى حادثة معروفة رواها لى المرحوم مصطفى ابو النصر. لذلك وبمرور الزمن بدأت أحاديث ومقالات يوسف إدريس تظهر وتطغى على أخبار وروايات نجيب محفوظ إلى الدرجة التى جعلت جريدة الاهرام، وفى صورة كاريكاتورية تجمع أدباء وكتاب مصر،تظهر وجه يوسف إدريس فى صدر الصورة،ومعه مجموعة من الكتاب والأدباء، وخلفهم بعدة صفوف صورة نجيب محفوظ باهته وكأنه أصبح من الماضى !.

ووصلت شخصية يوسف إدريس إلى القمة فى نظر جموع المصريين بما فيهم رواد ندوة نجيب محفوظ نفسه، عندما حصل على جائزة صدام حسين فى الأدب العربى،مناصفة مع أديب أردنى،على ما أتذكر.وعندما وصلت إلى ندوة الاستاذ نجيب فى كازينو قصر النيل يوم الجمعه كالمعتاد، وجدت الجميع فى حالة من الهياج والحماس والذهول والإعجاب. ووجدت الأستاذ مصطفى أبو النصر يحكى للأستاذ نجيب ،مدى روعة وقوة يوسف إدريس الذى بعث لصدام حسين محتجا ورافضا أن يشاركه أحد فى الجائزة المالية الهائلة ،فكانت النتيجة أن صدام حسين أمر بأن يحصل يوسف إدريس على الجائزة كاملة .

وكانت جلستى بعيدا عن الأستاذ وبجوار الشاعر الرقيق المهذب عادل عزت،وهو شخصية حبوبة تدخل قلب أى انسان يعرفه .وجدت عادل عزت وهو فى حالة إنبهار بتصرف يوسف إدريس القوى. نظر عادل إلى عينى مباشرة قائلا ما معناه أن الأستاذ نجيب قد يكون موهوبا ولكن الدكتور يوسف إدريس موهبته أعلى بكثير.وكان بجانبه المهندس والشاعر نعيم صبرى الذى أمن على كلامه . وعلى ما أذكر إننى قلت لهما ما معناه أنكما لا تفقهان شيئا ،وعلى ما أذكر أن نعيم صبرى رد قائلا بتهذيب أن كلامى هذا يعد ضربا تحت الحزام ،وأكفهر وجه عادل عزت .

وصل إلى سمع نجيب محفوظ ، دون أن يعرف فحوى الموضوع، أن الكفراوى يهاجم عادل عزت ،وأنتهز الأستاذ فرصة إقترابى منه ووجه تحذيرا لى –وكان يحب عادل عزت إلى اقصى درجة- قائلا :إنت مش ناوى تسيب عادل عزت فى حاله ؟!".أدركت ساعتها أنه يجب أن افعل شيئا لإصلاح الموقف دون ان أحكى للأستاذ نجيب ما حدث من حوار،حتى لا أتسبب فى جرح مشاعره ،وحتى لا أعكر صفو مشاعره تجاه عادل عزت .فأتصلت هاتفيا بمنزله بعد إنتهاء الندوة وأعتذرت له بأن الحوار سخن بينى وبين عادل،فرد الأستاذ قائلا بإقتضاب :المهم ألا يكون الحوار فيه أى تجريح، فوعدته بأن أكون أكثر تهذيبا وأننى أحب عادل عزت ،وهو كما ذكرت شخصية جميلة فعلا. وحتى وفاة الأستاذ لم أحكى لنجيب محفوظ أبدا فحوى الحوار الذى دار بينى وبين عادل عزت. المهم أنه بعد هذه الواقعة بشهور أو بأسابيع ، نال نجيب محفوظ جائزة نوبل العالمية ،وعادت سمعته وصورته وعبقريته إلى مكانها الطبيعى داخل مصر وفى أذهان الشعوب العربية،ووجدت نفسى وأنا أستقبله بالأحضان فى أول ندوة بعد نوبل أقول له " خلاص يانجيب بك ،لا أحتاج الأن إلى ضرب أى إنسان تحت الحزام من أجلك ،فضحك ضحكته الكبيرة الرائعه وكأنه قد فهم ،وضحك نعيم صبرى أيضا .

عثمان أحمد عثمان وفرويد ومحفوظ !

بعد فوزه بجائزة نوبل مباشرة ،إرتفعت معنوياتى إلى السماء،وأصبح واضحا لنجيب محفوظ مدى سعادتى وحبى وإقتناعى العقلى والقلبى بعبقريته وفنه ، فقد إنطلقت بإخلاص وحماس أتكلم عن مواطن القوة والجمال فى فنه، وأعقب على كل موقف فى الحياة والسياسة والتاريخ بجمل وعبارات وكلمات من رواياته ،حتى أن الشاعر نعيم صبرى إتهمنى بأننى أحفظ عباراته حفظ تلميذ يذاكر،ويالها من تهمة جميلة !. ولم أنسى أبدا الصورة الكاريكاتورية التعسة التى نشرتها جريدة الأهرام والتى وضعت فيها صورته فى الصف الاخير .فقلت له : كنت تغرق وسطنا يانجيب بك إلى أن أتت طائرة نوبل وأنقضت لإنقاذك وإنقاذ المؤمنين بعبقريتك من الغرق فى بحور الجهل ،ورفعتك ورفعتهم إلى عنان السماء.وزدت من توضيحى لهذه النقطة ،فقلت له إن حصولك على جائزة نوبل زاد من ثقتنا بأذواقنا نحن المؤمنين بعبقريتك ،فلا شك أننا، بالرغم من ثقتنا فى أنفسنا وفى أذواقنا ،كنا نشعر بالحيرة وإهتزاز هذه الثقة، ولو قليلا، من أن دول الحضارة الحديثة لم تكن تعترف بفنك.

بدأت اشعر بأن الأستاذ نجيب قد بدأ يرتاح إلى مواقفى وأرائى ،فبدأت على إستحياء أطلب منه تليفونيا أن يولينى شرف الجلوس معه خلال الإسبوع بجانب ندوة الجمعة ، وكانت وقتها ندوة الجمعة هى ندوته الوحيدة .كان محفوظ يرد بأن انتظر قليلا . وجاءت ندوة الجمعة التى تلت أنباء غضب الدكتور يوسف إدريس العنيف لأن جائزة نوبل كانت من نصيب نجيب محفوظ ،بعد أن كان قد أعتقد هو أنه سيحصل عليها !. والحقيقة أنه لم يكن ذلك ذنب يوسف إدريس بقدر ما هو ذنب –كما شرحت من قبل-النقاد والأدباء والصحفيين المصريين الذين صورا له أن قوة الشخصية والنجومية التى يتمتع بها فى مصر، سوف يكون لها نفس التأثير على اللجنة المانحة للجائزة.

حضرت الندوة ، وبدأ الأستاذ مصطفى أبو النصر يشرح ما علم به الجميع من غضب وثورة يوسف إدريس ،وتكلم الأستاذ نجيب عاتبا على الدكتور يوسف إدريس غضبه قائلا بتواضع مذهل أنه، أى نجيب، أكبر سنا من يوسف إدريس . يريد أن يقول أن يوسف إدريس كان يجب أن يقتنع بقرار لجنة نوبل لأن نجيب أكبر سنا !!. وهنا لم أستطع الصبر على هذا التواضع الظالم لصاحبه.ووقفت قائلا التالى وبأعلى صوت وأمام العشرات من الحضور :" أنا مش فاهم أى مبرر لغضب الدكتور يوسف ادريس. ثم وجهت كلامى لنجيب محفوظ قائلا "يانجيب بك، معنا ضيف جديد فى الندوة صديق لى وهوالمهندس محمود عبد السميع ،وهو من أنجح المقاولين فى شلة أصدقائى وفى دفعته كلها،هل ممكن يغضب لأن إتحاد المقاولين العالمى قد أختار عثمان أحمد عثمان منشىء شركة "المقاولون العرب" كأعظم مقاول فى الشرق الاوسط ؟!! ما شأن محمود عبد السميع بعثمان أحمد عثمان ؟!!.ده مستوى وده مستوى تانى خالص!! وأردفت قائلا :"ومعنا فى الندوة طبيب مصرى فى زيارة لمصر إسمه سامح يعمل بنجاح كطبيب لعلم النفس فى مستشفى بالولايات المتحدة الأمريكية ،هو طبيب ناجح لا شك، ولكن هل ممكن يغضب لأن العالم كله بيحتفل بمرور خمسين عاما على وفاة عبقرى ورائد علم النفس سيجموند فرويد ؟!!. أين سامح من فرويد ؟!.هو حاجه وفرويد حاجه تانيه خالص !،الدكتور يوسف ادريس لاشك أنه أستاذ للقصة القصيرة فى مصر، ولكن أين هو من العبقرى نجيب محفوظ عملاق الرواية فى العالم كله ،وأحد أكبر عباقرة هذا الفن على مر العصور ؟!! .ده مستوى والثانى مستوى تانى خالص!". إنتهى كلامى وجلست، ونظرت إلى العبقرى فوجدت عينيه تلمعان خلف نضارته السوداء، وإبتسامته تتلألأ، فقد قلت كل مامنعه تواضعه أن يقوله وأمام الجميع،الذين أحبوه والذين ظلموه !. وعندما إنتهت الندوة ووقف نجيب محفوظ يسلم على الجميع فردا فردا كعادته،وإذا به ينظر إلى وأنا بعيد عنه ويسألنى بصوت عال ليسمعه الجميع :" كفراوى..هو أنا سلمت عليك ؟" ورددت على الفور " أيوه يانجيب بك ". كان مدركا تماما أنه قد سلم على من قبل،ولكنه أراد أن يوضح لى

وللجميع إمتنانه لموقفى فى الدفاع عنه. والحقيقة أننى لم اقل إلا ما كنت أومن به تماما. وبعدها بإسبوع ،وبطريقة فى غاية الشياكة وأعتبرها أنا طريقة محفوظية مائة فى المائة ،وافق الأستاذ على أن أمر عليه أمام منزله يوم الاربعاء من كل اسبوع لأقله بسيارتى لنجلس معا فى فندق هيلتون رمسيس .وكان شرف مابعده شرف . والحقيقة أن نجيب محفوظ عندما يوافق أو يعترض على شىء،وعندما يجامل أو ينقد إنسان ،لا يفعلها أبدا بطريقة مباشرة ولكنه يفعلها بطريقته هو، وبإسلوب ،غاية فى الجمال عندما يشكر أو يجامل ،وغاية فى القسوة أحيانا عندما ينقد أو يعترض أو يكره !.وأنا أسميها الطريقة المحفوظية!. وقد جربت شخصيا الإثنتين !. فعندما وافق الأستاذ نجيب على أن أرافقه فى ندوة خاصة،لم يقلها لى مباشرة ،ولكن فى نهاية الندوة يوم الجمعه ، ،وقفنا جميعا،وأستأذن الطبيب سامح المهاجر والموجود فى مصر حاليا فى أجازة قصيرة ،إستأذن من الأستاذ أن يراه مرة أخيرة وسط الاسبوع قبل أن يعود إلى الولايات المتحدة ،فقال له الأستاذ وهو يشير إلى حيث أقف: فوت على الكفراوى يوم الأربعاء وتعالوا معا لمقابلتى !.وكانت مفاجأة رائعة لى،وأستمرت بعدها جلسة يوم الأربعاء بينى وبينه فقط إلى أن تعرض لمحاولة الأغتيال الخسيسة التى أنجاه الله منها .

شخصيات حوله

نجيب محفوظ مجنونا !

فى الجلسة الصباحية بالأسكندرية كان الأستاذ توفيق الحكيم متصدرا الندوة بجانب الشباك المطل على الكورنيش، وكان نجيب محفوظ يجلس أمام المائدة منضبطا كما يجلس رجل أمام والده أوأستاذه ، مما جعلنى أتيقن من صدق تعليق الأستاذ نجيب وتواضعه عندما صرح لجريدة مصرية بأنه لا يتخيل مدى الإحراج الذى كان سيشعربه لو كان قد حصل على جائزة نوبل فى حياة توفيق الحكيم !.

وقد ذكرت للأستاذ توفيق الحكيم أننى وأصدقائى كنا من أشد المعجبين بإبنه إسماعيل الحكيم رحمه الله الذى توفى فى حياة والده،حيث كنا مبهورين بفرقته الموسيقية التى كانت تعزف أعذب وأشهر الألحان والأغنيات الغربية فى الستينات من القرن الماضى. ظهر الأسى على وجه توفيق الحكيم. وقد أهدانى فى نهاية الندوة أحدث كتبه وقتها وهو" الأحاديث الأربعة والقضايا الدينية التى أثارتها " وعليها إهداؤه بخط يده.

أتذكر أن الأستاذ توفيق الحكيم كان غاضبا من هجوم الشيخ الشعراوى عليه وعلى الأهرام ،وذكر،ووجهه قد إحمر من الغضب، أن الشيخ الشعراوى ماهو إلا مدرس لغة عربية !. وبمناسبة خلاف الشيخ متولى الشعراوى مع الأستاذ توفيق الحكيم، فللأستاذ نجيب محفوظ حكاية طريفة خاصة بهذا الخلاف حكاها لنا فى ندوة قصر النيل بالقاهرة . وأصل الحكاية أن الشيخ متولى الشعراوى كان قد ذكر الحديث النبوى الشريف عن الذبابة عندما تقع فى طعام أو شراب إنسان فيجوز أن يأكله أو يشربه الأنسان بعدها لأن فى جناح الذبابة فوائد ، فإعترض على ذلك الأستاذ توفيق الحكيم والدكتور يوسف إدريس والدكتور زكى نجيب محمود ،وتطايرت الكلمات وأحتدت المناقشات وتشعبت حتى شملت كل القضايا الخلافية بين العلمانيين والتيار الدينى ،وإذا بالشيخ الشعراوى يستخدم السلاح النووى ،فعندما سئل عن رأيه فى ردود وإنتقادات الكتاب الكبار

الثلاثة ،وجميعهم من كتاب الأهرام ،رد الشيخ الشعراوى بأن جريدة الأهرام أصبحت " وكرا للكفرة "!. أسقط فى يد مجلس إدارة الأهرام، وإجتمع على الفور، فقد كان الشيخ الشعراوى فى أوج تأثيره الكاسح على الملايين من أبناء الشعب المصرى والعربى، بتفسيره المتفرد للقرأن الكريم والكاريزما الهائلة لشخصيته أمام الشاشة. فإذا دخل فى روع هذه الملايين أن جريدة الأهرام تروج للكفر،فالنتائج ستكون مروعة لا شك.. للجريدة طبعا !. عرضت المشكلة ،مشكلة إتهام الشيخ الشعراوى لجريدة الاهرام بالكفر،أمام أفراد المجلس، وكان نجيب محفوظ حاضرا . تطوع الأستاذ نجيب ببدء الحديث، فإقترح ببساطة أن يرفع الأهرام قضية سب وقذف ضد الشيخ الشعراوى. ويحكى الأستاذ بخفة دمه المعهودة ،أن جميع أعضاء مجلس الادارة نظروا إليه،وكأنه معتوه ،ولم يكلفوا أنفسهم حتى بالرد على إقتراحه ! . ثم بدأوا يقترحون كيف يخطبون ود الشيخ الشعراوى،وأخيرا إستقروا على أن يذهب الأستاذ صلاح منتصر إلى فضيلة الشيخ ليأخذ منه حديثا صحفيا وقد كان . كان عنوان الحديث على ما أتذكر "زدنى علما يافضيلة الشيخ " على صفحة كاملة من الجريدة، وعلى ما أتذكرايضا إستمر عدة ايام متتالية.وهدأ الشيخ الشعراوى،وغفر لجريدة الاهرام.

محفوظ يتسبب فى رفت صديقه !

كان الكرسى المقابل للأستاذ نجيب ،فى ندوة قصر النيل، محجوزا للأستاذ مصطفى أبو النصر،وكان الأستاذ مصطفى فى مرحلة عمرية تتوسط بين عمر الأستاذ وبين عمر أكثريتنا . كان والده ضابطا كبيرا فى الحرس الملكى قبل ثورة يوليو، وبالتالى لم يكن ينتمى للأكثرية الكاسحة من الكتاب والأدباء الذين اختلط بهم ،والذين أتوا من الطبقات الكادحه وعبدوا عبد الناصر. كان غريبا وسطهم . أحب الاستاذ مصطفى،مثلنا جميعا، نجيب محفوظ جدا، ولكنه تعرض لكارثة وظيفية بسببه !!. فقد كتب الاستاذ نجيب قصة أخرجها للسينما المخرج الكبير سعيد مرزوق وعرضت فى دور العرض المصرية والعربية تحت إسم "المذنبون". وكانت قصة القيلم تدور حول مقتل فنانة مشهورة إعتادت أن تقيم سهرات ليلية فى شقتها الفاخرة ،يجتمع فيها رجال من مختلف المهن، تاجر وموظف كبير وناظر مدرسة وغيرهم من أطياف المجتمع المصرى.وبطبيعة الحال أصبح الكل مشتبها بإرتكابه جريمة قتلها حتى يثبت براءته . وعندما تطلب النيابة من المترددين على القتيلة إثبات تواجدهم فى غير مكان وتوقيت الجريمة ،يتضح أن كلا منهم كان وقتها يمارس عملا غير مشروع ،من نصب أوسرقة أوخيانة أو رشوة !. كان الفيلم مليئا بنجوم السينما المصرية وقتها ،وعلى رأسهم الممثلة سهير رمزى التى قامت بدور الفنانة القتيلة.كان الاستاذ مصطفى أبو النصر وقتها موظفا كبيرا فى الرقابة على المصنفات الفنية ، ولسبب ما وقعت مسؤلية رقابة الفيلم عليه .تردد الاستاذ مصطفى فى الموافقة على عرض الفيلم الجرىء الذى يظهر كل مظاهر الفساد فى مصر وقتها. كان على وشك الرفض والإعتراض وأبلغ منتجى الفيلم بذلك. فوجىء بعدها بمكالمة تليفونية مباشرة من وزير الثقافة حينذاك،يأمره بالموافقة على عرضه للجمهور!. إمتثل الاستاذ مصطفى للأمر، وأعطى موافقته بالعرض.وعرض الفيلم فعلا. وإذا بالمصريين فى العراق وغيرها من الدول العربية يمطرون المسؤلين فى مصر وعلى رأسهم رياسة

الجمهورية ببرقيات الغضب، بدعوى أن الفيلم يسيء اليهم فى وسط الشعوب العربية التى يعملون بها !.وتمت إحالة الاستاذ مصطفى للتحقيق ثم تمت إحالته للمعاش!. رفع الاستاذ مصطفى قضية ضد الظلم الذى تعرض له،ولما سأله القاضى لماذا وافقت على عرض الفيلم رغم إدعاءك بأنك كنت مترددا فى الموافقة، رد مصطفى بأن الوزير أمره تليفونيا بالموافقة على العرض ،وعندها سأله القاضى "ولماذا لم تطلب من الوزير أن يعطيك موافقة خطية ؟"، رد الأستاذ مصطفى صارخا :هل معقول ياسيادة القاضى أن أطلب من الوزير موافقة خطية ،بعد ان أمرنى تليفونيا ؟! وطبعا إستحالة لموظف مصرى وقتها أن يطلب من الوزير المسؤل موافقة خطية لأمر ما بعد صدوره شفويا ،وإلا كان مصيره العقاب لاشك . ولكن القاضى لم يقتنع بدفاع الأستاذ مصطفى بل وهدده بالسجن إذا استمر يصرخ فى وجهه ،وتم عقاب الاستاذ مصطفى وإحالته إلى المعاش !!. وظل الأستاذ مصطفى ابو النصر طوال حياته يشعر بالمرارة كلما تذكر ما حدث له من ظلم على يد قصة المذنبون.

وفى حادثة ثانية، كتب الأستاذ مصطفى ابو النصر قصة قصيرة جيدة وبعث بها إلى مجلة إبداع ، وكان القائمون على إدارة المجلة من الناصريين واليساريين كالعادة، وإذا بالمجلة تنشرها تحت إسم مصطفى نصر وليس مصطفى ابو النصر!. والأستاذ مصطفى نصرهو أحد الكتاب الذين ينتمون إلى المجموعة الناصرية واليسارية الكاسحة التى كانت مسيطرة على أمور النشر فى مصر. وأخذ الأستاذ مصطفى أبو النصر يحكى لنا ولنجيب بك ماحدث له وهو يضرب كفا بكف.

وقد حدثت لى واقعة مشابهه لما حدث للأستاذ مصطفى على يد الناصريين ، فقبل صدور هذا الكتاب، وقبل يوم ٢٠١٩/١٢/١١ الموافق للذكرى السنوية لميلاد نجيب محفوظ ،!تصل بى هاتفيا صحفى من جريدة الدستور وطلب منى كلمات أوجهها لروح العبقرى لكى تنشر فى ذكرى ميلا ده . بعثت للصحفى عن طريق " الواتس أب " صفحة من الكتاب بعنوان " الانسان " مع تصرف بسيط لكى تخاطب العبقرى مباشرة .

طلب منى الصحفى صورة لى فبعثت له بثلاث صور كى تختار الجريدة منها واحدة لنشرها مع كلمتى . وإذا بالجريدة تنشر كلماتى وبجانبها صورة لزميل لهم إسمه مطابق لإسمى !!!. .واذا بالصحفى يقول لى ببساطة " معلهش ..حقك عليا " !!.

وأذكر أن الأستاذ مصطفى كانت له نظرة ثاقبة فى الفيلم الإستعراضى الجميل " خللى بالك من زوزو" الذى عرض عام ١٩٧٢. فقد تكلم عن أن الفيلم بجانب أنه ترفيهى فى المقام الأول ،إلا أنه ينبه إلى خطورة إنتشار الأفكار المتطرفة فى الجامعات المصرية وأن على الأحزاب المصرية أن تحذو حذوه ، وللأسف أننى ساعتها سخرت من الفكرة برمتها وتساءلت هل تريد من فؤاد سراج الدين(رئيس حزب الوفد وقتها) وخالد محى الدين (رئيس حزب التجمع وقتها) أن يذهبا معا إلى السينما ليشاهدا الفيلم ؟.وضحك الجميع ومعهم محفوظ ،وغضب منى ساعتها الأستاذ مصطفى . ولكن بعد أن إنتشرت الأفكار المتطرفة فى ربوع مصر،وليست فى الجامعات فقط ، أدركت كم كان الأستاذ مصطفى أبو النصر على حق .

من الأحق باللوم ؟!

وكان للأستاذ مصطفى أبو النصر نظرة ثاقبة فى الشلل الناصرية واليسارية المسيطرة على الحياة الأدبية فى مصر.وكان يؤمن بأنهم يتبادلون المجاملات على حساب جودة الفن الذى يقدمونه !. كان ينتقد على سبيل المثال الأستاذ الناقد فاروق عبد القادر،لأنه لا يهتم إلا بقصص الكاتبات الخليجيات. ولا ينتقده أحد فى ذلك،لأنه من أعضاء الشلة الناصرية المهيمنة على الأقسام الأدبية فى الصحف والمجلات المصرية !.وكان يتعجب من إهتمام الأستاذ فاروق بالكاتب المسرحى بيتر بروك ،حيث أنه فى رأى الأستاذ مصطفى ليست له أهمية تذكر. وأتذكر جلسة من جلسات قهوة الحوامدية بميدان باب اللوق،والتى كان يصحبنى إليها الأستاذ مصطفى أحيانا بعد إنتهاء ندوة الاستاذ نجيب بقصر النيل،وكان ممن يجتمع على قهوة الحوامدية الأستاذ فاروق عبد القادر والناقد المسرحى الكبير فؤاد دواره والأديب الصحفى عبد الوهاب الأسوانى وغيرهم. ، وتصادف بعد إنتهاء هذه الجلسة أن سرت قليلا مع الأستاذ فاروق. وجدته ثائرا على الشيخ متولى الشعراوى لأنه قد ذكر فى حديث تلفزيونى أو إذاعى ،أنه قد سجد لله شكرا على هزيمة يونيو ٦٧ لأنها كسرت العهد الشيوعى أوالطغيان الناصرى فى مصر،شىء من هذا القبيل. وأخذ الأستاذ فاروق يهاجم الشيخ الشعراوى بمرارة لشماتته هذه .فقلت للأستاذ فاروق أنه على حق فى نقده للشيخ الشعراوى ، ولكن، إذا كنا ستلوم من يشمت فى الهزيمة ،فالمنطق يحتم لوم أشد بكثير للمتسبب أصلا فى هذه الهزيمة المخزية !!.ونظر لى الاستاذ فاروق بإمعان من تحت نظارته ،وقد بوغت بهذا الرد قائلا "لا.. ". ثم تركنى ومضى إلى سبيله. وقد حكيت هذا الحوار الذى دار بينى وبين الأستاذ فاروق لنجيب محفوظ فابتسم قائلا" معك حق ".

لذلك كان الاستاذ نجيب محفوظ ، بموضوعيته الهائلة وإنسانيته وهدوئه وأدبه الجم ،هو الملاذ الأمن الذى يحتاجه أى مظلوم مثل الاستاذ

مصطفى وأى ليبرالى مثل كاتب هذه السطور، وسط جحافل الناصريين واليساريين والشيوعيين الذين كانت تغص بهم الندوة بل ومصر كلها أثناء فترة ستينات وسبعينات وثمانينات القرن الماضى. والحقيقة إننى اكتشفت بعد طول السنين أن الشعب المصرى فى أغلبيته ينقسم مابين إتجاهين لا ثالث لهما إما ناصرى أو إخوانى !!.أما الليبراليين ودعاة الحرية وحقوق الانسان كما تعرفها دول الحضارة الحديثة فهم قلة قليلة لا وزن لها !!.
وعندما توفى الاستاذ مصطفى ذهب نجيب محفوظ لتقديم واجب العزاء لإسرته فى السرادق المقام بجامع عمر مكرم .

على سالم ، مفترى أم مفترى عليه ؟

شهدت ندوة الأستاذ بقصر النيل التحول التدريجى لعلى سالم الكاتب المسرحى الموهوب من ناصرى إلى ليبرالى حقيقى ،وهو ماجعله أكثر قربا من نجيب محفوظ ،وأعتقد أن هذا التغير البطىء والتدريجى فى عقله وعاطفته كان سببا فى أن لاتحوز المسرحيات الأخيرة له نفس النجاح الذى حققته مسرحياته الاولى، تلك التى كتبها وهو واثق من عقيدته الناصرية اليسارية !.وأتذكر أن الاستاذ على سالم كان فى شدة العصبية خلال الندوة،عندما لم تلاق مسرحيته"الكلاب وصلت المطار" النجاح الذى تحقق لمسرحياته الأولى. وعندما تعمق إيمان على سالم بالليبرالية والرأسمالية أللتان أسهمتا فى سقوط الإتحاد السوفيتى والشيوعية ،بدأت مرحلة جديدة من فنه ،حيث أبدع فى فن كتابة المقالات التى تدعو للحرية وحقوق الانسان والقطاع الخاص.ثم فاجأنا بقرار زيارته لإسرائيل.حذرته من تبعات هذه الزيارة ولكنه كان قد حزم أمره. بعد عودته، قاطعه جميع الأدباء والكتاب المصريين،الذين كما نعرف، أغلبيتهم الكاسحة من الناصريين والماركسيين واليساريين . وعانى الأستاذ على سالم الأمرين ،ولكنه واجه موجة العداء والكراهية والحرب النفسية والمادية عليه، برجولة منقطعة النظير،وظل يدعو للسلام مع إسرائيل دون خوف أو تراجع مثلما تراجع بعض الكتاب قبله ،وهوما جعل الأحرار يتعاطفون معه وعلى رأسهم الأستاذ نجيب،الذى كان يستقبله أحسن إستقبال. والحقيقة أن على سالم كان فنانا بمعنى الكلمة وكان يضفى على الندوة من ظرفه وخفة دمه الكثير.وكان عندما يؤمن بشىء يندفع بشدة إلى الكلام عنه ،فعشق كتاب "الأمير" لمكيافيلى ،وكان يستشهد بفقرات من الكتاب فى معظم مناقشاته السياسية معى ومع غيرى . وكان يعشق تحليلات مؤسس علم النفس سيجموند فرويد وكتبه المتعدده مثل "قلق فى الحضارة" و"مستقبل وهم" وغيرها ويستعين بها فى حكمه على الشخصيات والمواقف وفى مقالاته الجميلة الساخرة. وظل على سالم حريصا على حضور ندوات العبقرى حتى النهاية .

كذبة بيضاء

كان نجيب محفوظ يتذكر مبتسما كيف كانت مقابلته مع الرئيس عبد الناصر،عندما دعاه الأستاذ حسنين هيكل لإفتتاح مبنى الأهرام الجديد،فعندما صافح الرئيس جمال، الاستاذ نجيب ، سأله مجاملا عن أحدث رواياته التى سينشرها الاهرام ،فتدخل هيكل مبتسما قائلا إنها رواية من النوع "اللى يودى كاتبها فى داهية "، فرد عبد الناصر،على الفور،على هيكل ضاحكا "يوديك إنت فى داهية "،وضحك الجميع ،وهو رد يلخص بذكاء كيف كان حال الكتابة فى الحقبة الناصرية، فرئيس التحرير هو أول من سيعاقب إذا كتب أى إنسان فى الجريدة كلمات لا يرضى عنها النظام !.

ويتذكر الأستاذ نجيب، ضاحكا ضحكته الصاخبه التى تنير وجهه، تعليق الرئيس السادات عندما تزعم الأستاذ توفيق الحكيم جموع الأدباء فى كتابة بيان يؤيدون فيه المظاهرات التى خرجت تحتج على وضع اللاحرب واللا سلم قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣. ولم يكن يعرف أحد بالطبع أن السادات الداهية يخطط هو والقوات المسلحة المصرية لمفاجأة الجميع،الشعب المصرى والإسرائيليين على السواء بعبور أكتوبر المجيد. وعندما قرأ السادات البيان الذى وقعه الأدباء وعلى رأسهم توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ،إشتاط غضبا وصرح قائلا : حتى الحشاش ده كمان وقع على البيان ؟! يقصد الأستاذ نجيب محفوظ، وكما ذكرت ،كان الأستاذ يضحك بسعادة وهو يذكر هذا التعليق للسادات ،وهو يدل على أن الاستاذ نجيب كان قد غفر للسادات تعليقه هذا بعد أن تحقق العبور والنصر على يديه.

أما عن زوجات الرؤساء فيتذكرالأستاذ نجيب أنه ذات يوم مساء تلقى إتصالا هاتفيا ،وإذا بالسيدة تحية زوجة الرئيس عبد الناصرعلى الخط تسأل الأستاذ عن بكرة (شريط)فيلم عربى أو أجنبى، لا أتذكر،تريد أن

تشاهده فى منزلها مع بعض ضيوفها، ورد نجيب بلباقة ،وكان يشغل وقتها مدير عام الرقابة على المصنفات الفنية،أنه لا يحتفظ بالأشرطة فى منزله !. وأيضا فى اتصال تليفونى، كانت السيدة جيهان أرملة الزعيم أنور السادات على الخط ، وقد عرفت أن نجيب محفوظ يكتب رواية عنوانها "يوم قتل الزعيم "،فإستفسرت من الاستاذ نجيب إذا كانت الرواية عن زوجها أنور السادات ،فأكد لها نجيب أن الرواية لاصلة لها بحياة الرئيس السادات، ولا توجد بها أى إساءة له .

شتيمة قذرة !

وجاء إلى ندوة قصر النيل عدة مرات المرحوم الدكتور فرج فودة وكان فى عز شهرته وتصديه للجماعات الإسلامية التى كانت فى أوج قوتها ونفوذها . جاء ومعه شلة من مريديه وأحبابه. وأتذكر أنه فى نهاية ندوة ،وأنا أسير بجانبه ،قلت له يادكتور أنت أثناء هجومك على التصرفات البشعة والمرفوضة التى تقترفها هذه الجماعات ،أحيانا تنجرف إلى مهاجمة الدين نفسه ! فرد قائلا :" لو سمعت الشتائم القذرة والتهديدات المتواصلة التى يتفوهون بها لعائلتى وأولادى فى التليفون لكنت عذرتنى فى فقدانى لأعصابى والتجاوز أحيانا فى محاولتى الرد على هذه الإساءات والبذاءات ". وفعلا أشفقت عليه،لأن التعرض للأولاد وللزوجة فى أى خلاف فكرى هو إنحطاط ما بعده إنحطاط . .وكان الاستاذ نجيب محايدا فى مشاعره تجاه فرج فوده ،فلم أشعر أبدا بأنه يحبه أو يكرهه ،وأعتقد أنه كان يتوتر عندما يجىء للندوة خوفا من أن تتحول إلى مجرد ندوة للهجوم على التطرف والمتطرفين.

اليسارى كامل "من مجاميعه" !

وجاءت للندوة مرة واحدة فى قصر النيل ،الاستاذة درية شرف الدين لتهنئة العبقرى بحصوله على جائزة نوبل،وكانت حينذاك مذيعة تلفزيونية شهيرة ، وبرنامجها نادى السينما كان من أنجح البرامج التلفزيونية ، والحقيقة أن العبقرى مهذب مع جميع ضيوفه ،ولكن الذين عاشروه مدة كافية يستطيعون أن يدركوا متى يكون سعيدا فعلا بضيفه.وكما ذكرت كان يظهر على ملامح وجهه وبريق عينيه من أسفل نضارته إذا كان راضيا بما يقال أو بالضيف الذى أمامه أم لا. وأتذكر أن نجيب محفوظ كان سعيدا فعلا بوجودها . وهى مذيعة محترمة بالفعل بالرغم من معاملتها السيئة والغير منصفة للأستاذ الصحفى المحترم محمود عوض عندما إستضافته فى برنامجها ليحلل فيلم عن قبائل الزولو . كما أنها كانت لا تحاول مناقشة النقاد اليساريين فى أرائهم المتحامله على أى فيلم لا يتوافق مع عقيدتهم وتعصبهم .وقد حكيت للاستاذ نجيب كيف أن ضيف البرنامج فى احدى حلقاته كان الناقد اليسارى أحمد رأفت بهجت الذى انهال على فيلم امريكى جميل ، بالنقد والتجريح، فقط لأن الفيلم كانت به لمسات إنسانية رقيقة ! حيث تتأرجح مشاعر البطل بين الخير والشر إلى أن انتصر الخير فى داخله . وطبعا هذا لم يتوافق مع تطرف الناقد اليسارى، إذ كيف يظهر الفيلم أن هناك جانب خير فى شخصية الرجل الأمريكى أو فى الحياة الأمريكية عموما ؟! لابد، وفقا لتصور اليسارى، أن يظهر الفيلم أن الحياة بشعة فى امريكا وأن كل رجالها أشرار ! ولتذهب أصول الدراما الى الجحيم . والغريب أن درية شرف الدين لم تحاول أن تعترض على هذه الترهات التى يتفوه بها الناقد ضد كل اصول الدراما والواقع . وقد إبتسم الاستاذ نجيب وأنا احكى له هذه الواقعة وأكد لى أنه عانى نفس الانتقاد من كتاب يساريين متطرفين كانوا يريدونه أن يمجد أى شخصية يسارية تظهر فى رواياته على طول الخط !.فلم يعجبهم مثلا تصويره لشكل وشخصية المدرس الماركسى فى رواية "خان الخليلى"، فقد كان متجهما بإستمرار وذو عين زجاجية، مما نفر منه تلميذته "نوال ".وبالرغم من أن نجيب

محفوظ قد أظهر مدى ثقافة وعلم هذا المدرس الماركسى ،إلا أن النقاد اليساريين كانوا يريدونه إنسانا كاملا من "مجاميعه" !.

وحضرت الدكتورة نوال السعداوى الندوة للتهنئة ولم تتحمل أكثر من عشرة دقائق وأنصرفت، فالندوة شمسها هو نجيب محفوظ ، ولمن يقرأ مقالات د.نوال السعداوى يفهم تماما لماذا أنصرفت بعد عشر دقائق .فهى لم تتحمل بأن تكون ،كغيرها من الأدباء والمشاهير،مجرد كوكب صغير بجانب شمس نجيب محفوظ .

وجاءت الفنانة الكبيرة فاتن حمامة والفنان الكبيرعادل إمام لتهنئة الاستاذ ،ولكن للأسف الشديد لم أكن متواجدا يومها .

وجاء للتهنئة أيضا من الأدباء والنقاد سمير فريد وعبد الرحمن أبوعوف وفيصل ندا وسليمان فياض وفؤاد دوارة وعبد الوهاب الأسوانى ومفيد فوزى وصبرى حافظ وغيرهم .وجئت للندوة يوما فوجدت فيها رجلا ودودا لم أعره إهتماما وقتها . ولم أعرف حتى وفاته أنه كان عبد الله رزة أحد أبرز قيادات مظاهرات الطلبة أيام ما قبل حرب أكتوبر٧٣ !. ولم أعرف حجم شعبيته وجماهيريته إلا عندما رثته أقلام كثيرة ومحترمة .

كانت الندوة فى قصر النيل قد إستقرت على أفراد ثابتين تقريبا بعد أن إنتهت كما يقولون هوجة وفرحة نوبل ،وهم مصطفى ابو النصر ،(وقد توفى،رحمه الله، فى فترة ندوات قصر النيل) ، وعلى سالم ،وزكى سالم الذى حصل على درجة الدكتوراة فيما بعد ، ود.فتحى هاشم،وأحمد سعيد، ومحمد البدرى،وأحمد فهمى ،ونعيم صبرى ، وإلهامى وعماد ومحمد الشربينى ،وعزيزة الياسرجى وريموند ستوك(أديب أمريكى ترجم للاستاذ عدة قصص قصيرة)، ود. هاشم أستاذ لعلم الجمال بجامعة حلوان ومجموعة من سيدات محترمات يعملن فى كل المجالات من صحافة وصيدلة وبنوك وشركات مقاولات، للأسف لا أتذكر من أسمائهن الأن

سوى هناء ونبيلة ودينا جلال التى كتبت دراسة قيمة عن المعونة الأمريكية لمصر وقتها ،وطبعا كان يأتى أخرون أحيانا ولكن دون إنتظام.

لا أفهمه!.

كان نجيب محفوظ صريحا فيما يحب ولا يحب من إنتاج الأدباء والشعراء والسياسيين. وعندما أتى إلى الندوة الشاعر الشهير "أدونيس" لتهنئة العبقرى بالجائزة ،أتذكر أنى ألقيت أمامه للترحيب به بيتا من شعره أحببته وما زلت ،وهو :" إنها الأمة ترتاح إلى أشلائها، وعلى الجدران تاريخ ينام ، ليس هذا وطنا ،هذا ركام "، وهى من أشعاره القديمة قبل أن يوغل فى الغموض .وقد سألت الشاعر الكبير إذا ما زال على رأيه هذا فى أحوال الأمة العربية ؟ فرد بالإيجاب. وبعد أن إستأذن أدونيس فى الإنصراف ،سألت الاستاذ نجيب عن رأيه فى أشعار أدونيس ؟ فرد ببساطة: " لا أفهمها !" .

وعندما إحتفى بعض النقاد بروائى مصرى وهو الأديب (إ. أل.) أحضر الاستاذ مصطفى أبو النصر كتابين من تأليف هذا الكاتب لنجيب محفوظ ، أخذهما الأستاذ ليقرأهما فى منزله ،وفى الندوة التالية فوجئنا بنجيب محفوظ، فور جلوسه ،يلقى بالكتابين على الترابيزة أمام الأستاذ مصطفى قائلا " بلا قرف "!!. ولم اكن قد قرأت شيئا لهذا الكاتب ولكن الأستاذ مصطفى ابو النصر قال لى بعدها تعليقا على كلمات نجيب محفوظ ، إن كتابات هذا الأديب كانت ،فى رأيه ،أقرب الى الهلوسة.

المتنبى ونيتشة

فى معرض إنبهارى بأشعار الشاعر العربى الكبير " المتنبى " ، ذكرت أمام الأستاذ نجيب فى ندوة قصر النيل ،إنه "اى المتنبى " هو نيتشه العرب، أقصد الفيلسوف الالمانى الأشهر"فردريك نيتشه " الذى يعد أبرز الفلاسفة العالميين الذين مجدوا القوة والكرامة والعزة فى الإنسان إلى درجة مرعبة !.وطبعا المتنبى هو القائل " عش عزيزا أو مت وأنت كريم " وهو القائل " فأطلب العز فى لظى ودع الذل ولو كان فى جنان الخلود " وهو القائل " من يهن يسهل الهوان عليه ،ما لجرح بميت إيلام " وهو القائل "ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله ،وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم ". وقد وافقنى العبقرى على الفور. وكنت بين الحين والحين أردد أمام نجيب محفوظ والحضور كلمات نيتشه فى كتابه " هكذا تكلم زرادشت " : كم يضحكنى أولئك الضعفاء ،يظنون أنفسهم رحماء ،وهم قد شلت أيديهم ولا حول لهم ولا قوة !". فالضعيف ليس رحيما أو طيبا كما يتراءى لنا ،وإنما هو فى أغلب الأحيان مغلوب على أمره ، فإذا ما تمكن أو أعطيت له سلطة على العباد قد يفجر ويتنمر ويظهر شره. وهذا ينطبق على الشعوب بمثل ما ينطبق على الأفراد. وكنت دائما أقول أن الغرب تتنازعه صفتان لشخصيتين رئيسيتين يتردد بينهما كبندول الساعة ،وهما نيتشه والمسيح .أى القوة والرحمة ،فأحيانا الغرب يظهر تصرفات هى قمة فى الإنسانية والحب والتسامح والرحمة ، وأحيانا اخرى يظهر قوة وقسوة وحشية هائلة ومدمرة !.

والحقيقة ان الحضارة العربية الاسلامية قد إمتلكت عقول وقلوب المصريين لأجيال وأجيال لدرجة أن معظمنا من الجيل الحالى لا يتذكر من الجمل والعبارات المصرية الشهيرة سوى كلمات الزعيم مصطفى كامل " لو لم أكن مصريا ،لوددت أن أكون مصريا "، أوكلمات الزعيم سعد زغلول " الحق فوق القوة والأمة فوق الحكومة " ، أما الغالبية العظمى من الأقوال والعبارات المأثورة التى يستعين بها المصرى ، مثقفا

أو غير مثقفا ، فى مناقشاته وفى وصف كل شؤون حياته ،فكلها أقوال وعبارات من القرأن الكريم وأقوال الرسول عليه الصلاة والسلام ،ثم يأتى بعدها أقوال الصحابة رضى الله عنهم كقول عمر بن الخطاب مثلا فى تصوره لمسؤليات الحاكم تجاه رعيته " والله لو أن دابة تعثرت فى العراق لسؤل عنها عمر " أو قوله " أخطأ عمر وأصابت إمرأة " ، وأقوال على بن أبى طالب مثل " لا تعرف الحق بالرجال،وإنما إعرف الرجال بالحق ،إعرف الحق تعرف أهله " وغيرها ، ثم أقوال الولاة العرب الأقدمين مثل معاوية فى قوله " بينى وبين الناس شعرة ماانقطعت،لو شدوها أرخيها ، ولو أرخوها شددتها " وغيره كثير من قادة العرب المسلمين فى عز قوة الحضارة العربية الإسلامية . ويأتى بعدها أقوال الشعراء والأدباء العرب ، وما أكثرهم ، المتنبى كما ذكرت وغيره كثير..امرؤ القيس والفرذدق وجرير والبحترى وابن الرومى وأبو تمام وابى فراس الحمدانى وأبو نواس وأبو العلاء المعرى وغيرهم .وأقوال الفقهاء أبو حنيفة ومالك إبن أنس والشافعى وبن حنبل. كل هؤلاء يستعين المصرى بأقوالهم المأثورة فى المناقشات والمناسبات المختلفة فى الأطوار المتعددة من حياته .

تولستوى وبروست وكامو وفوكنر!

ومن الجدير بالذكر أنه قبل إسبوعين تقريبا من تاريخ حصوله على جائزة نوبل ،كان الحديث فى الندوة عن الأدباء الذين حصلوا على هذه الجائزة ،وعن الذين لم يحصلوا عليها ،وجاء ذكر الروائى الأشهر والأعظم الروسى ليو تولستوى باعتباره أبرز الذين تخطتهم جائزة نوبل بدعوى أنه مجد الحرب والقتال فى روايته العظيمة" الحرب والسلام" وهذا إعتبرته لجنة نوبل مناف لغرض مؤسس الجائزة بأنها جائزة لنشر مبادىء السلام فى العالم ومناهضة الحروب. ووقف كل أدباء الدول الإسكندنافية وقتها وقفة إحتجاج أمام مقر اللجنة المانحة لأنها حرمت أعظم روائى عرفه العالم بلا منازع من الجائزة التى يستحقها. وعلق نجيب محفوظ ،بأن الرجل –يقصد تولستوى- معذور،فبلاده روسيا كانت تخوض حربا،ويريدونه أن يكتب ممجدا للسلام ؟!. ،وعندما ذكرت الأديب صاحب الرواية العبقرية الواحده الفرنسى "مارسيل بروست" وهى "البحث فى الزمن الضائع" إعترض الاستاذ نجيب،فإحتجيت وقلت له كيف يانجيب بك ؟! وحاولت أن أكمل ،فقاطعنى قائلا " أنا عارف إنه كان بيكتب عن كل فتفوته حصلت له " ومن الغريب إنى لا أتذكر أبدا ماهى حجة نجيب محفوظ للإعتراض على عبقرية مارسل بروست لأننا لم نستأنف حوارنا عنه بعدها !. وشرح لنا الأستاذ نجيب رأيه فى أن لجنة نوبل أعطت الجائزة للكاتب الفرنسى البير كامو عن روايته "الغريب " قبل زميله الأشهر منه " جان بول سارتر " ،مما جعل جان بول سارتر يرفضها عندما أعطيت له بعده . فقال الأستاذ نجيب مبررا، أن رواية الغريب عند صدورها لمست على الفور مشاعر الضياع والغربة التى أحس بها الأوربيون أثناء وبعد الحرب العالمية الثانية التى أودت بحياة الملايين وخربت حياة الباقى منهم، فبهرت الرواية الجميع وطبعا أعضاء لجنة نوبل .

وقد وافقنى الأستاذ نجيب على رأيى عندما ذكرت أن الفصل الذى كتبه الكاتب الأمريكى ويليام فوكنر فى رواية الصخب والعنف على لسان الأخ المتخلف عقليا "بنجى"،كيف يفكر وكيف يحس بالأشخاص وبالطبيعة من حوله، يعتبر من أعظم ما كتب فى تاريخ الرواية العالمية. وقد حصل ويليام فوكنر على جائزة نوبل بهذه الرواية .

وغنى عن الذكر أن ندوة قصر النيل كانت تمتلىء بالحوارات والتعليقات حول مؤلفات كبار الكتاب العالميين ،على سبيل المثال لا الحصر،: "الإخوة كرامازوف" لديستوفسكى و"أقاصيص سيباستيبول" لتولستوى و" العجوز والبحر" لهيمنجواى و" موبى ديك" لهيرمين ميلفيل و" البيت والعالم " لطاغور و" الألهة عطاش " لأناتول فرانس و "أنطوانيت" لرومان رولان و" دكتور زيفاجو " لباسترناك و"زوربا اليونانى" لكانتزاكيس و"عالم تسكنه الحيوانات" لجورج أورويل و"مائة عام من العزلة " لماركيز والقصص القصيرة لموباسان وأنطون تشيكوف وديوان " أزهار الشر" لبودلير و" الأرض الخراب " لإليوت، ومسرحيات " بيت الدمية " لأبسن و" جان دارك " لبريخت " و"مشرب شاى فى ضوء القمر" لجون باتريك و" الولد الذهبى " لكليفورد أوديتس وغيرها وغيرها مما لا تسعه الذاكرة التى تخبو بتقدم العمر.

إنت كده بتعتبرنا بهائم !

وبعد ان تحدثنا عن بعض الأدباء الذين حصلوا على الجائزة مثل الامريكى ويليم فوكنر والفرنسى ألبير كامو والإنجليزى برنارد شو والأمريكى هيمنجواى والهندى طاغور وغيرهم، قلت يانجيب بك أنت لا تقل قيمة عن أى أديب من هؤلاء الكبار الذين حصلوا عليها،ولو أنصفت اللجنه لأعطتك الجائزة مثلهم .ورد الأستاذ قائلا بصوت خفيض:لا ،أنا لا أستحقها !.فرددت بحدة :إنت كده بتعتبرنا بهائم يانجيب بك، أنا وغيرى فى الندوة نقول لك لقد قرأنا كتب كل هؤلاء العظماء،وقرأنا كتبك واؤكد لك أنت لا تقل عنهم عبقرية. فسكت ولم يرد . وبعدها بإسبوع أو إثنين منحته لجنة نوبل جائزتها العالمية فى الثالث عشر من أكتوبر عام ١٩٨٨!. وذهبت مساء اليوم التالى أو يومها لا أتذكر، إلى منزله لأهنئه، وتقابلت مع الروائى والصحفى يوسف القعيد على سلم منزل نجيب محفوظ ،وكان يوسف القعيد حاضرا قبلها فى الندوة إياها،فبادرنى قائلا " إنت فاكر لما قلت لنجيب محفوظ منذ اسبوع إنه يستحقها ؟" فرديت عليه ونحن ندخل شقة الأستاذ نجيب لأول مرة "طبعا فاكر.. مبروك لنا جميعا". المهم أن باب شقة الاستاذ نجيب كان مفتوحا على مصراعيه ،وأعداد غفيرة من الصحفيين من كل الجنسيات تملأ الشقة،لاول وأخر مرة فى حياته !.ونجيب داخل غرفة من الغرف بابها مغلق عليه ومعه الصحفى الذى كان أسبق الى الحضور،وأمام الغرفة إحدى بناته ترحب بالموجودين وتمنعهم فى ذات الوقت من اقتحام الغرفة !.ولم أعرف من هو أو ماهى الجريدة التى يمثلها، ربما كانت جريدة الأهرام. وخرجت بهدوء دون أن أقابله، فعلى كل حال كنت سأراه الجمعة التالية .

كانت ندوة الجمعة فى كازينو قصر النيل بعد حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل تضم أعدادا كبيرة من الحضور وكثيرا من الشباب، لدرجة أنها كانت تضم عدة صفوف من الكراسى وراء بعضها البعض حول المائدة التى نجلس حولها.

الأدباء والسياسة والزلزال

حضر ندوة قصر النيل وفد من الأدباء من دولة ألمانيا الغربية ، وكانت ألمانيا، بعد هزيمتها فى الحرب العالمية الثانية ،قد تم تقسيمها إلى جزئين، أحدهما يخضع للإحتلال الغربى تحت إسم المانيا الغربية ،والجزء الثانى دولة شيوعية تخضع لهيمنة الإتحاد السوفيتى الذى لم يكن قد تفكك بعد، وسألتهم أمام نجيب محفوظ هل تتوقعون أن تتوحد بلادكم يوما ما فى المستقبل ؟.وأجمع كل الأدباء الألمان على أنه لا أمل لديهم على الاطلاق فى توحد المانيا مرة أخرى!.وماهى إلا سنوات قليلة،حتى إنهار الإتحاد السوفيتى وسرعان ما أسقط الألمان الشرقيون السور الذى كان يفصلهم عن المانيا الغربية وتوحدت المانيا مرة أخرى. وكنت أذكر الاستاذ نجيب بهذه الواقعة كلما أردت أن أداعبه بأن الادباء لا يتقنون السياسة وتوقعاتها.

وفى هيلتون رمسيس،فى ندوتنا الخاصة، جاءت الأستاذة الصحفية ماجدة الجندى، وهى شخصية محترمة وزوجة الأديب جمال الغيطانى، لتأخذ حوارا لمجلة صباح الخيرمع الأستاذ نجيب،عن موضوع طريف وجديد،وهو عن أثر الزلزال فى حياتنا، وصلته بالحياة السياسية فى مصر،وكان قد حدث زلزال قوى فى مصر وقتها نوفمبر عام ١٩٩٢. وقد سعدت عندما أرسل لى جمال الغيطانى بعدها صورة أخذت أثناء هذا الحوار وعلى ظهرها إهداء منه يقول:" الصديق الأستاذ محمد الكفراوى مع تحيات وإحترام جمال الغيطانى" .

كما حضر مرة الشاعر فؤاد بدوى ليأخذ حديثا مع محفوظ فى نفس الموضوع ،وأخبرنى العبقرى، بعد إنصرافه ،إنه يعانى من تسمم الكبد، وقد كان مقاتلا محبا للحياة رغم مرضه.

وتصادف أن قابلنا الدكتور حازم الببلاوى، وتصافح هو ونجيب محفوظ بحرارة بالغة،والظاهر أنهما كانا على صلة جيدة من قبل ،وكان

الدكتور حازم الببلاوى وقتها على ما اذكر رئيسا لأحد البنوك ،وكان يكتب مقالات إقتصادية قيمة بالأهرام ،وشكرته على كتبه الإقتصادية التعليمية التى إستفدت منها شخصيا ومن أهمها "دليل الرجل العادى للتعبير الاقتصادى.".

كما حضر إلى جلستنا الخاصة بهيلتون رمسيس قادما من لندن فى أجازة قصيرة الدكتور صبرى حافظ الناقد الأدبى المعروف ،الذى يقيم إقامة دائمة فى بريطانيا ،وكان قد هاجم الاستاذ نجيب لموافقته على السلام مع اسرائيل ثم تصالح معه .ومن الطريف إنه عندما قلت إننى أحسد الدكتور صبرى على أنه يعيش فى دولة ديمقراطية ،وإذا بالدكتور صبرى يفاجئنا ،أنا والأستاذ نجيب ، قائلا بصوت خافت، وعلى وجهه إبتسامة عذبة وخجوله " وهل فى بريطانيا ديمقراطية "؟!. وأبتسمت أنا والعبقرى فى نفس الوقت، ونظرنا إلى بعضنا بنظرة ذات دلاله . ،فقد كان الدكتور صبرى، كمعظم اليساريين المصريين، لا يعترف بديمقراطية الغرب ،ولكنه يستمتع حتى النخاع بالعيش فى جحيمها ! .

عادات مصرية

من الأحداث الجديرة بالذكر،والتى حكيتها للعبقرى ،أن الاستاذ على سلامة السكرتير المساعد للحزب كان دائما ما يردد أمامى، فى مكتبه بمقر حزب الوفد بيت شعر، يقوله وهو يتنهد : إيه ياسى كفراوى ،" رب يوم بكيت منه ،فلما عشت فى غيره ،بكيت عليه ". ويستطرد شارحا : كنا أيام الملك فاروق ،نخرج ضده فى مظاهرات صاخبة دون أن يعترضنا أحد ، فعندما طلق الملكة فريدة خرجنا نهتف :" خرجت الطهارة من بيت الدعارة ". وعندما إستعد الملك لزيارة تركيا ، خرجنا نهتف :" إلى أنقرة ياإبن المره ". كنا غير راضين عن الأوضاع حينذاك ،يستطرد على سلامة قائلا لى ،: وإذا بالأقدار، تجعلنا نترحم على هذه الأوقات ! فقد إنزاح الملك ،واذا بالعهد الذى أتى بعده يزج بنا فى السجون لمجرد تشييعنا لجنازة النحاس !.ولولا هزيمة يونيو ٦٧ لكنا قد دفنا فى السجون !.

وكما ذكرت من قبل إننى اكتشفت بعد طول السنين أن أحمد مثل الاستاذ أحمد مثل الحاج أحمد !.وإن الليبراليين ودعاة الحرية وحقوق الانسان فى مصر قلة قليلة لا وزن لها. وقد ذكرت للأستاذ واقعة ذات دلالة حضرتها وأنا فى ذروة نشاطى كليبرالى داخل حزب الوفد . فذات يوم دخلت مقر الحزب وفى غرفة السكرتارية المساعدين ،والتى كانت تضم القوة الضاربة للحزب ،الأساتذة على سلامة وكرم زيدان وعبد المنعم حسين والدكتور إبراهيم أباظة رحمهم الله جميعا .وجدت الجميع فى حالة نشوة وسعادة ،وسألنى الدكتور إبراهيم أباظة على الفور: هل قرأت مقالة الدكتور عبد العظيم رمضان اليوم ؟ ثم اندفع قائلا دون أن ينتظر إجابتى: لقد كتب يؤكد بالوثائق والحقائق، أن كل إنجازات عبد الناصر مقتبسة من أفكار الوفد التى كان ينوى تطبيقها فيما لو إستقر فى الحكم ، وأن عبد الناصر،نسب هذه الأفكار والسياسات لنفسه بعد أن نفذها على أرض الواقع !!. وذهلت وسألت الدكتور إبراهيم : هل هذا حقيقى ؟! وهل

هذه حقيقة تسعد الوفديين الليبراليين ؟!.المفروض أنها تتعسهم لأسباب واضحة !. ولم يرد الدكتور إبراهيم .

وذكرت للأستاذ نجيب أيضا ما فاجأنى وأدهشنى فى مذكرات السير مايلز لامبسون ،السفير البريطانى فى مصر، فى الأربعينات من القرن الماضى ، فقد ذكر أن مديرى المصانع فى مصر، وكان معظمهم من الإنجليز والأجانب ،قد إجتمعوا به ،أى بالسفير، ليشتكوا مر الشكوى من أن أعضاء حزب الوفد يدورون على المصانع ليحثوا العمال المصريين على عدم العمل وعلى المطالبة بحقوق تفوق كثيرا ما يقومون به من واجبات !. وسألت الاستاذ نجيب أليست هذه نفس العقلية التى دمرت روح العمل والإنتاج فى العهد الناصرى ؟!.

كل واحد رشح نفسه !

من الأحداث السياسية الطريفة،التى حكيتها للأستاذ نجيب والتى توضح أشياء كثيرة حدثت وتحدث فى حياة المصريين ،واقعتين حدثتا وأنا عضو نشط فى حزب الوفد فى عهدى فؤاد سراج الدين ونعمان جمعه. فعندما دخل حزب الوفد الإنتخابات البرلمانية فى عهد حسنى مبارك ،ونجح أعضاء كثيرون فى الحصول على العضوية ،فكر فؤاد سراج الدين فى تعيين أخيه ياسين سراج الدين رئيسا للهيئة البرلمانية لحزب الوفد ،وأخبر بقية الأعضاء الناجحين بذلك .ثار الأعضاء القدامى الذين نجحوا فى الإنتخابات على هذا التفكير ومنهم الأساتذة على سلامة وكرم زيدان وغيرهم من قيادات الحزب والذين عاصروا النحاس باشا ،وسجنوا فى عهد عبد الناصر. وقال على سلامة لفؤاد باشا :لولاك ماكان .يقصد أن ياسين سراج الدين لم يكن لينجح لولا نفوذ أخيه.وافق فؤاد باشا ظاهريا على إعتراضهم ،وقابل كل واحد من المعترضين على حده وسأله من ترشح لرئاسة الهيئة البرلمانية لحزب الوفد ؟ فكانت النتيجة أن كل واحد منهم رشح نفسه للرئاسة !.فقال لهم فؤاد باشا أن يجتمعوا معا ويتفقوا على واحد منهم فقط لكى يكون رئيسا ،فإجتمعوا وفشلوا جميعا فى الإتفاق على واحد منهم ،فقد أصر كل منهم على أنه الأحق بالرئاسة !.فكانت النتيجة أن عين فؤاد باشا أخيه ياسين رئيسا للهيئة البرلمانية للحزب ولم يستطع واحد منهم ،بعدها،أن يفتح فمه ليعترض !.وقد ضحك الاستاذ نجيب من أعماقه وهو يستمع إلى هذه الواقعة التى حكاها لى وقتها د.ابراهيم اباظة عضو الهيئة العليا والسكرتير المساعد للحزب رحمه الله، وكانت واقعة معروفة تماما داخل أروقة الحزب.

طيب قول وزير !

والواقعة الطريفة الأخرى التى حكيتها للعبقرى ،حكاها لى حسن حافظ رحمه الله .كان الأستاذ حسن حافظ عضوا شهيرا فى الحزب الوطنى الذى يرأسه حسنى مبارك وكان رئيسا للجنة من اللجان الهامة فى الحزب الوطنى .وقد أختلف حسن حافظ ،لسبب لا أتذكره ،مع أعضاء الحزب الوطنى وإنضم إلى حزب الوفد. تكررت جلساتى مع حسن حافظ وأصبحت مقربا منه. وقتها بدأ الحزب الوطنى فى تلميع جمال مبارك تمهيدا لمخطط التوريث فى المستقبل.وعندما تعجبت أمام المرحوم حسن حافظ كيف يقبل أعضاء الحزب الوطنى هذا المخطط من حسنى مبارك فاجأنى بالحكاية التالية . وهى أنه على مدار إجتماعات الرئيس بأعضاء ورؤساء لجان الحزب الوطنى والتى كان يحضرها حسن حافظ بإنتظام ،كان يدخل عليهم عضو تلو الأخر قائلين للرئيس أنه لابد له أن يعين جمال إبنه نائبا للرئيس.، وكيف أن إبنه جمال عبقرى وأنه موهوب فى السياسة الخ ،وكان مبارك فى كل مرة يستمع صامتا إلى هذا النفاق ،إلى أن سمعه حسن حافظ يرد أخيرا ،على أحد المطالبين بتعيين إبنه نائبا للرئيس، قائلا " طيب قول وزير ؟!". حكيت هذه الواقعه لنجيب بك كمثال حقيقى وفى الصميم لمدى النفاق الذى يتعرض له الحاكم، اى حاكم لمصر،ممن يحيطون به ويدفعونه دفعا للإنحراف والتأليه ،وأن الانسان ،أى انسان ، لابد وأن يكون ملاكا لكى لا يستسلم لهذا النفاق المتواصل !.وعندما ختمت حكايتى لهذه الواقعة للاستاذ بقولى " يافرعون مين فرعنك،.."وإذا بالاستاذ يكمل المقولة مؤمنا على كلامى قائلا "..مالقتش اللى يردنى ". فالعيب ،فى معظم الأحوال ،يكون فى الحاكم والمحكوم معا .وكنت دائما أردد امام العبقرى كلمات "مونتسكيو" المفكر الفرنسى الشهير : كل شعب يستحق الحكومة التى تحكمه. وقول على بن أبى طالب: كما تكونوا يولى عليكم . وكنت دائما أذكر الشعب الالمانى وزعيمه هتلر، كمثال ، فى ثلاثينات القرن الماضى .وكيف أن هتلر، بغروره وديكتاتوريته ،ما هو إلا نتاج للشعب الالمانى بتاريخه الملىء

بالغرور والإستعلاء على جيرانه . وفلاسفته الكبار هيجل ونيتشه وكانت وغيرهم، كانوا يمجدون القوة والحرب وإطاعة القادة طاعة عمياء، وأداء الواجب مهما كانت النتائج،ودون إنتظار لأى مكافأة دينية او دنيوية .

والحقيقة التى ذكرتها مرارا للعبقرى ،هو أننى فى كل مقالاتى التى كانت تنشرها جريدة الوفد ،وعلى مدى سنوات ،والتى كنت أهاجم فيها الرئيس حسنى مبارك وعهده بضراوة ،لم يحدث أبدا أن تعرضت لتهديد صريح أو مستتر من النظام ،ولم يتدخل أحد لمنع مقالاتى ،مما جعلنى أنتبه فى النهاية الى أن عهده ،عهد مبارك،كانت حرية الرأى فيه مكفولة ،وبالتالى بدأت نظرتى لعهده تأخذ مسارا أكثر واقعية وإعتدالا .ثم بدأت أنتبه الى أن كل من قابلته من أعضاء حزب الوفد الذين كانوا من رجال القوات المسلحه يوما ما ،كلهم بدون إستثناء كانوا يمتازون بالأدب الجم والتواضع والإخلاص فى ما يفعلون ويقولون ،وبالتالى أدركت قيمة الإنضباط وإحترام النظام الذى يتعلمونه فى شبابهم فى الكليات العسكرية .وكنت أردد امام العبقرى عبارة صمويل هنتجتن المفكر الامريكى الشهير وصاحب كتاب صدام الحضارات ،وهى : " النظام والقانون هما المتطلب الأول للحضارة "!. فالنظام الأسبرطى الذى يطبق بصرامة على طلبة الكليات العسكرية هو فى حد ذاته مطلب من متطلبات الحضارة . وكان العبقرى ينصت دون تعليق.

أخطاء قاتلة

عندما بدأت عملية السلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين ، أغتيل إسحاق رابين رئيس وزراء اسرائيل فى نوفمبرعام ١٩٩٥ على يد متطرف دينى إسرائيلى . بعدها تولى شيمون بيريز رئاسة الوزراء خلفا له وتعهد بالإستمرار فى عملية السلام . بعدها مباشرة قام إنتحاريون فلسطينيون بتفجير حافلتين إسرائيليتين مملوءتين بالركاب. وفى ندوة شبرد ، ناقشنا جميعا هاذين التفجيرين مع الأستاذ، والأثار التى ستنتج عنهما ،وكيف أن الأخوة الفلسطينيين لا يتركون أبدا الفرصة للعالم كله كى يلتقط أنفاسه ويتمعن فى وحشية وحمق التصرفات الإسرائيلية،وإنما يسارعون دائما إلى القيام بتصرفات تجعل العالم يصرف النظر عن معنى إغتيال رابين بيد متطرف اسرائيلى،ويعود ليستمع إلى الدعاية الإسرائيلية للعالم بأنهم، أى الإسرائيلين ،يعيشون وسط متوحشين يفجرون الحافلات وغيرها !.ولا أدرى لماذا قلت وقتها للحضور أن القدس قد ضاعت نهائيا من أيدينا ،وكأنها كانت نبوءة مشؤمة لما سيحدث فى المستقبل البعيد .

قلت للأستاذ ذات مرة أن الغرب ،كثيرا ما يستغل سذاجتنا فى الكلام والتهديد والوعيد الفارغ من أجل قلب الامور ضدنا ،حتى ولو كان الحق معنا !.وقد حكيت له ،أنه فى سبيل تشويه شخصية صدام حسين ،قبل الإطاحة به ،وكنت وقتها فى الولايات المتحدة ،قامت محطة تلفزيونية أمريكية شهيرة بإذاعة حديث له مع مراسلتها . سألته المذيعة عن علاقته بإسرائيل وهل هو يستعد للحرب معها ؟. رد صدام باللغة العربية قائلا : نحن لسنا دعاة حرب ، ولكن لو هجم علينا الإسرائيليون سوف أحرق نصف اسرائيل !.وكنت أتابع الترجمة الأمريكية الفورية التى تقوم بها المحطة الأمريكية ،ولذهولى فوجئت بأن المحطة أسقطت تماما عبارة " لو هجمت علينا إسرائيل " من الترجمة الإنجليزية !!.فأصبحت كلمات صدام بالإنجليزية وأمام ملايين الأمريكيين والعالم كله كالتالى " نحن لسنا دعاة حرب ،ولكن سوف أحرق نصف اسرائيل "!!. طبعا غش واضح

وحقيرمن المحطة ،ولكن أيضا فإن جزءا كبيرا من العيب يقع علينا ،فلو إستخدم صدام الطريقة الذكية التى دائما ما يتبعها الغربيون فى كلامهم عن الحرب ، مثلا لو رد قائلا : "نحن لسنا دعاة حرب ،ولكن لو هجم علينا الإسرائيليون فسوف ندافع عن انفسنا "، لما إستطاعت المحطة أن تغير معنى الكلمات حتى لو اقتطعت منها اى جزء. وقد وافقنى العبقرى ،بعد ان أنصت بإهتمام لهذه الواقعة .

اللّه يرحمك يارضا

كان رضا هلال رحمه الله الصحفى فى جريدة الاهرام قد بدأ نجمه يلمع فى سماء الليبرالية ،وكنت بدأت اقرأ عموده بإنتظام ،فقررت أن أتصل به هاتفيا وأدعوه لندوة الأحد بشبرد ،وقد حدث. وبدأ رضا هلال يحضر بانتظام وأندمج بسهولة فى أجواء ندوة الاحد، لكثرة العناصر الليبرالية فيها (أخيرا !!).وكانت شخصيته ليبرالية أصيلة مثل كتاباته . وقد روى لنا رضا هلال حادثة لها دلالة عميقة عما كان يحدث من تغيرات هائلة فى المجتمع المصرى ،فقد كان يوم جمعه وكان رضا هلال هو الصحفى المناوب أو النبتشى(بلغة الجيش) فى جريدة الأهرام،أى الصحفى الموجود لأى طارىء قد يحدث يوم الأجازة ،عنما إتصلت سيدة من القراء تليفونيا .حولوا مكالمتها إلى الأستاذ رضا .بدأت السيدة شديدة التهذيب وهى تتحدث وتعتب على الجريدة أنها نشرت إعلانا فى الصفحة الاخيرة من عدد الجمعه عن البيرة وغيرها من منتجات كحولية لشركة من الشركات . رد الاستاذ رضا عليها بأن هذا الاعلان مدفوع الأجر.فرجته السيدة أن تتوقف الجريدة عن نشر الإعلان لأنها خمور محرمة دينيا،وعندما وجدت أن الاستاذ رضا لا يستطيع أن يلبى طلبها ،فجأة وبدون سابق إنذار،إذا بصوتها الهادىء يتحول إلى صياح، وتهذيبها يتحول إلى سباب من أقذع ما سمع رضا من شتائم بالأب والأم وغيرها .أغلق رضا هلال التليفون ،وأتصل بالأستاذ إبراهيم نافع شاكيا ماتعرض له من سباب،وإذا بالأستاذ نافع وكان رئيسا للتحرير، يوبخه على أسلوب رده على هذه السيدة ،ويصدر قرارا فوريا بعدم نشر هذا الإعلان مرة اخرى !. كانت هذه الواقعة لها دلالة لا تخفى على أحد ،أن التيار الدينى قد أصبحت له السيطرة على الحياة الإجتماعية فى مصر.

وقد ذكرت للأستاذ كيف أنه فى رائعته "بين القصرين" صور بعفوية أول ملامح وبدايات العنف الدينى فى مصر الحديثة فى الموقف الذى تعرض له السيد أحمد عبد الجواد عند خروجه من المسجد ومعه أابناؤه

كمال وفهمى وياسين .فقد فاجأهم شاب أزهرى معمم ،وهو يصرخ متهما ياسين بأنه جاسوس فقد شاهده يتكلم ويضحك مع الجنود الانجليز!،وكيف بدأ الموقف يتصاعد وينذر بالخطر،وكادت الجموع تفتك بياسين لولا بالصدفة أن تعرف شاب ، يرأس لجنة من اللجان التى تكونت لمقاومة الاحتلال، بفهمى أخو ياسين والذى كان مع هذا الشاب فى لجنة واحدة، فتدخل فى الوقت المناسب وأنقذ ياسين من اتهام المعمم المتطرف دينيا. ولم أنتبه ،أنا وغيرى من القراء ،إلى هذه الحادثة التى كتبها نجيب محفوظ بإقتدار وتلقائية بالغة فى رواية "بين القصرين" إلا بعد مرور عشرات السنين على قراءتنا للرواية ،حيث كما ذكرت، أثبتت الاحداث صدقها.

عالم تانى

حدثت ،قبل إحدى ندوات شبرد بأيام ،حادثة غريبة وذات دلالة على مدى إختلاف الحياة فى بلادنا عن بلاد الغرب.وقد حكيتها للعبقرى ولرواد الندوة . والواقعة كما نشرتها الصحف ،أن رجلا مصريا وزوجته المصرية هاجرا إلى الولايات المتحدة الأمريكية ،ونجحا فى الإقامة هناك ،وأشتريا منزلا كعادة الأمريكان ، وعمل الإثنان كل فى وظيفته بنجاح .وإذا بفكرة تخطر على ذهنهما ،أن يحضرا فتاة من الريف المصرى لكى تخدمهم فى أمريكا أثناء وجودهم فى العمل ،أى تطبخ وتكنس وغيره ،وذلك بدلا من الإستعانة ب housekeeper أى شغالة أمريكية تأخذ أجرها بالساعة أو باليوم . وطبعا هذا التقليد كان منتشرا بكثرة فى الأسر والعائلات المصرية فى القاهرة ،حيث إعتادت كل أسرة أن تحضر فتاة من الأرياف لتخدمهم فى مقابل أجر يستلمه والدها عند حضوره كل شهرمن قريته .ولكن أن يفكرهذان الزوجان فى تطبيق هذه الفكرة فى أمريكا ،فهذا مالا يخطر على ذهن إنسان !.وأحضرا الشغالة المصرية الصغيرة بالفعل إلى أمريكا .ومرت الأيام والأسابيع والشهور،إلى أن جاء يوم فوجىء فيه الزوجان بالبوليس الأمريكى يقتحم منزلهما ويقبض عليهما ،ويودع الفتاة فى دار رعاية للأطفال. فقد أبلغ الجيران الشرطة ،بأنهم قد شاهدوا فتاة صغيرة موجودة فى منزل الزوجين بإستمرار،ولاحظوا أنها لا تذهب لمدرسة ،ولا يسمح لها باللعب مع أصدقاء من سنها ،ولا تلعب حتى لوحدها فى حديقة المنزل !!. وعرض الزوجين على المحكمة التى حكمت عليهما بالسجن ثلاث سنوات ، يتم بعدها ترحيلهما إلى مصر ، ومصادرة ممتلكاتهما التى حازوها لصالح تعليم الفتاة الريفية الصغيرة !.وفعلا إلتحقت الفتاة بالمدرسة وباتت تلعب كرة القدم مع زميلاتها فى دار الرعاية !!. وقد أكد رضا هلال على أنه أثناء دورته التدريبية فى الولايات المتحدة ،كان بوليس رعاية الطفل له الحق فى إنتزاع أى طفل من والديه ،اذا ما كان هناك أى شك فى سوء

معاملة الوالدين له ،إلى أن تبت المحكمة فى الأمر.علق العبقرى قائلا :عالم تانى!.

بداية الوباء

ولا أنسى يوم حكيت للأستاذ مشكلة غريبة قرأتها فى صفحة بريد الجمعة بجريدة الأهرام التى كان يشرف عليها الأستاذ عبد الوهاب مطاوع حينذاك. فقد بعثت طبيبة تحاليل -على ما أتذكر- لبريد الأهرام تسأل الأستاذ عبد الوهاب عن حل لمشكلة مفاجئة تواجهها هى وزوجها . فلهذه الطبيبة إبن فى مرحلة الشباب ، فى السابعة عشر من عمره ،على ما أذكر، شديد التهذيب معها ومع والده ومع بقية العائلة ،ومتفوق فى دراسته . جاء لزيارة هذا الإبن زملاء له ،ودخلوا غرفته وأغلقوا عليهم الباب . كانت الأصوات داخل الغرفة خافتة هامسه مما إسترعى إنتباه الأم ، فإقتربت من الباب لتتنصت على ما يقولون . فوجئت الأم بأن إبنها يتباحث مع زملائه –الذين يشجعون فريق كرة القدم لنادى ما- كيف يهاجمون مشجعى الفريق المنافس بطرق وأساليب، وصفتها الأم بأنها طرق وأساليب تصل لحد الإجرام ويعاقب عليها القانون !.واجهت الأم والاب الولد وأخبروه بأن ما ينوى فعله هو وزملاؤه إنما هو جريمة يعاقب عليها القانون . فوجئت الأم بأن إبنها المهذب ذو الصوت الهادىء يتحول تماما الى شخص أخر، فيخبرها هى والأب بصرامة بألايتدخلوا نهائيا فى نشاطه التشجيعى هذا حتى ولو وصل الى مرحلة الإجرام !.

ودهش العبقرى، ونحن رواد الندوة جميعا معه ، من هذه المشكلة التى كنا نتعرف عليها للمرة الأولى ، وتعجبنا من تصرف هذا الشاب الذى تحوله الرياضة التى يشجعها إلى شخصية أخرى تماما!. وغنى عن القول أن بعدها بسنوات وسنوات ظهرت الملامح الكاملة لهذا الوباء وهذا التغير فى جينات الشباب المصرى ،فحدثت مذبحة إستاد بورسعيد التى راح ضحيتها حوالى خمسة وسبعين شابا مصريا ،وبعدها مذبحة إستاد القاهرة وراح ضحيتها خمسة وثلاثين شابا أيضا نتيجة التشجيع الإجرامى المعتوه لكرة القدم !.

براءة مذهلة

عندما كانت الحوارات السياسية تسخن فى ندوة شبرد ،لاحظت أن رضا هلال كان يتكلم بجرأة وحرية دون أن يلتفت إلى أن وجوده فى مركز مهم فى جريدة الاهرام ،له محاذير. وأتذكر مرة عندما كنا نتحاور حول مبادىء الديمقراطية وتطبيقها فى مصر،وجئت على ذكر حسنى مبارك وموقفه ،حتى ثار رضا هلال ،وصاح ساخطا :ليه بتجيب سيرة حسنى مبارك دلوقتى؟!. إعتقد رضا الله يرحمه- خطأ- إننى أستخدم إسم الرئيس لكى أخيفه من ذكر رأيه بصراحة فى الأوضاع القائمة .كان رافضا لذكر إسم حسنى مبارك ،فى أى حديث سياسى!!.. لم أنتبه كثيرا، ساعتها، لغرابة الحوار،وبراءة رضا هلال التى وصلت لحد السذاجة،إلا بعد خطفه وإختفائه الله يرحمه . وذكرت الأستاذ نجيب بعدها بهذا الحوار العجيب الذى تكلم فيه رضا وكأنه يعيش فى كندا أو النمسا أو بريطانيا أو الولايات المتحده وليس فى دولة من دول العالم الثالث ،وبالذات فى مصر حيث نظام الحاكم الفرعون مستقر ومستتب منذ ألاف السنين !.وعرفت بعدها أن رضا هلال،كان يخرج من ندوة نجيب محفوظ، ليذهب لندوات أخرى يتكلم فيها بحرية مطلقة سياسيا وإجتماعيا وفنيا، وكأنه يعيش فى مجتمع متفتح وليبرالى لأقصى درجة ،وكان يصطدم بالأراء المحافظة والتقليدية والمتخلفة ،ويثير حفيظتها .وعندما كتب عن أرامل صدام حسين،وكتب يؤيد غزو العراق ،على صفحات جريدة الأهرام ، ثم سمعنا أنه يهاجم جمال مبارك فى جلساته الخاصة،فى قمة تجهيزه ليصبح وليا للعهد !.فإذا أضفت إلى هذا كله ،أن رضا رحمه الله ،لم يكن من عائلة كبيرة تحميه عند اللزوم ،ويعمل لها الأجهزة والحكام حساب، مثل عائلة الأباظية مثلا ،حيث كان عبد الناصر يترفق بالمعارضين منهم ، بل كان رضا ،على ما أذكر، يتيما وله أخ واحد لم يكمل تعليمه .عندما ندرك هذا، نعرف لماذا كان من السهل على أى جهاز أجنبى أو محلى تصفيته جسديا دون أن يخشى أى عواقب !.وقد حزن نجيب محفوظ على إختفائه،مثلنا جميعا ،فقد كان قد بدأ يحبه ويرتاح لوجوده بيننا .

د. عبد المنعم سعيد

أما الدكتور عبد المنعم سعيد،فقد بزغ نجمه فى نفس فترة بزوغ نجم الأستاذ رضا هلال ،. وقد أعجبت أيضا بمقالات الدكتور عبد المنعم فى الاهرام ،فإتصلت به هاتفيا ،وعرفته بنفسى ،ودعوته إلى حضور ندوة الأستاذ نجيب يوم الاحد ،فحضر.ولكن الدكتور عبد المنعم لم يستطع تحمل جو الندوة أكثر من مرة واحدة !.فشخصية عبد المنعم سعيد،تختلف جذريا عن شخصية رضا هلال .فالدكتور عبد المنعم يشعرك على الفور أنك أمام أكاديمى هادىء يريد أن يلق أو يستمع لمحاضرة هادئة،أو منظمة فى مدرج جامعى ، عن موضوع محدد ،ولم يكن مستعدا لتحمل مناقشات صاخبة مليئة بالحياة والحيوية والقفشات فى مختلف المواضيع والقضايا،، سياسية كانت أم أدبية أم اجتماعية الخ .عكس زميله فى الجريدة الأستاذ رضا هلال رحمه الله،الذى، كما ذكرت، إندمج بشكل طبيعى مع جو الندوة .

سر المخرج توفيق صالح

فى ندوة شبرد ،كان حاضرا المخرج الكبير توفيق صالح وصديق الأستاذ منذ بداية ما يعرف بالحرافيش. قلت لنجيب ممحفوظ إننى بالرغم من سعادتى أن المخرج المصرى يوسف شاهين حصل على جائزة من مهرجان كان السينمائى إلا أننى إستغربت أن يعطى المهرجان الدولى ،جائزة لمجمل أعماله .وقلت للعبقرى، إننى قرأت أن نقادا فرنسيين ،علقوا على فيلم "المصير"،بأنه يشبه الأفلام الهندية،حيث الرقص والغناء بمناسبة وبدون مناسبة !.كما أن فيلم "نابليون " كان سيئا، وفشل تماما عندما عرض فى فرنسا .فعقب الأستاذ توفيق صالح ضاحكا ،أن المخرج يوسف شاهين ،لم يخلف موعدا لمهرجان "كان" منذ نشأته ،وكان يحمل بكرة فيلمه فى بداياته ليذهب للمهرجان ،على حد تعبير الاستاذ توفيق،لذلك كان لابد ،ذوقيا وسياسيا ،أن يعطونه جائزة عن مجمل اعماله، خصوصا وأن عمره بات كبيرا .والحقيقة التى ذكرتها مرارا أمام نجيب محفوظ ،ولم يعترض عليها ابدا، أنه فى بداية الستينات ظهرت موضة فى بعض الأفلام الفرنسية بأن ينطق الممثلون والممثلات بصوت سريع ومنخفض،بحيث لا يسمعه المتفرج إلا بصعوبة بالغة !.وهى طريقة يريد بها مخرج الفيلم الأدعاء بأن فيلمه معقد وعميق .ولكن هذه الموضة فشلت تماما وماتت بسرعة ،لعدم معقوليتها وعدم قابليتها للحياة ، ،ففن السينما يختلف تماما عن فن الكتابة. فالكتاب ممكن أن تقرأه بين يديك مرة واثنين وثلاث إذا لم تستوعبه من أول مرة ،أما الفيلم السينمائى ،فالمشاهد لن يذهب إلى دار العرض مرتين أوثلاث إلا إذا أعجب بالفيلم فعلا من أول مرة ،أما إذا لم يفهمه فسوف يكره تماما الذهاب لرؤيته مرة اخرى . لذلك فشلت تماما، كما ذكرت، هذه الموضة التعسة .ولكن لسبب ما أعجب الستاذ يوسف شاهين بهذه الموضة وتمسك بها حتى النهاية !.وزاد الطين بلة أن يوسف شاهين بدأ يعتقد بمرور الوقت أنه مفكر كبير .وبالتالى كانت كل أفلامه الأخيرة غير مسموعة أولا ،وفكرها متوسط القيمة ثانيا .كل ذلك قلته، ولم يعترض العبقرى على أى كلمة ،بل كان يستمع باهتمام

. ولو كان له رأى غير هذا لكان قد اعطى أى إشارة أو أى تعليق يعرف الجميع مته أنه يعترض أو غير موافق على ما يسمع ،كما اعتدنا منه دائما. وقد إعترف بهذا حديثا وقبل وفاته بمدة قصيره،الفنان الكبير جميل راتب فى حديث صحفى بإحدى الصحف ،قائلا بأنه لم يعجب بأفلام الاستاذ يوسف شاهين الأخيرة التى أخرجها بعد إعتقاده أنه أصبح مفكرا كبيرا . ونظرا لأن شعوب العالم الثالث مليئة بمدعى الثقافة وحب الإستعلاء ،إلتف حول يوسف شاهين كثير من أدعياء النقد الذين خدعوه وخدعوا أنفسهم، ولكنهم لم يستطيعوا خداع أغلبية الشعب المصرى. ومازالت أفلام صلاح ابو سيف وهنرى بركات وعاطف سالم وكمال الشيخ وعز الدين ذو الفقار وتوفيق صالح وسعد عرفة وحسن الامام، وداوود عبد السيد ومحمد خان ،تقف شامخة بجانب أفلام يوسف شاهين الأولى الجيدة مثل باب الحديد والناصر صلاح الدين والأرض..وقلت لنجيب محفوظ أن أى محاولة لخلق أسطورة المخرج الأوحد ،مثلها مثل محاولات خلق أسطورة الزعيم الأوحد ،سوف ينتهى مألها إلى الفشل، صح ! هكذا علق العبقرى أخيرا.

شخصيات جميلة ومتنوعة

حضر ندوة الأحد فى شبرد عدة مرات الأديب والمفكر الليبى الدكتور أحمد ابراهيم الفقيه ،وهو شخصية محترمة إلى أقصى درجة ،ووجه مشرف للثقافة الليبية.وكان تحفظه على حكم القذافى لبلده واضحا ولكنه كان يتحاشى ذكره ،طبعا،خوفا من بطشه !.وكنت أداعبه أمام الاستاذ بأن أذكر مدى ذكاء القذافى فى الجلوس على سدة الحكم فى بلده كل هذه المدة ، فكان يتميز غيظا ولكن لا يستطيع أن يتمادى فى إظهار هذا الغيظ !.ولكنه كان يكتب فى جريدة الأهرام مربعا غاية فى الحكمة والقوة والشجاعة عن مدى أهمية الديمقراطية لبلداننا العربية .

وإنضم إلى ندوة شبرد فى سنواتها الأخيرة الكاتب الصحفى إبراهيم عبد العزيز،مدير تحرير مجلة الإذاعة والتلفزيون وقتها،وهو كاتب جاد وشخصية هادئة جميلة ومحترمة ،يذكرك بالصحفيين القدماء الأصلاء فى العهد الليبرالى ،بالرغم من سنه الصغير نسبيا !.وقد إكتسب بصفاته هذه ثقة كبار الكتاب والمفكرين المصريين، أمثال الاستاذ توفيق الحكيم والاستاذ انيس منصور،وعائلة طه حسين ، فأعطوه أوراقهم الشخصية وعصارة ذكرياتهم ليحتويها فى كتب قيمة ،بالإضافة طبعا للعبقرى نجيب محفوظ الذى خصه بأحاديث وذكريات وضعها الاستاذ ابراهيم فى أكثر من كتاب ،وكان العبقرى يحبه ويثق به .

كما كان يحضر أحيانا الشاعر وأستاذ الفلسفة بجامعة اسيوط الدكتور نصار عبد الله فى سوفوتيل المعادى أو شبرد كلما جاء إلى القاهرة ، فقد كانت إقامته الدائمة ،على ما أذكر، فى أسيوط .وكنت تشعر بتقدير وحب نجيب محفوظ له، لشخصيته المعتدلة الصريحة والواضحة ،فكان ينطلق فى شرح أفكاره وأرائه بطلاقة دون أى إفتعال أو إدعاء أو غرور .

وأذكر أن الفنان الكبير الرسام صلاح طاهر حضر إلى ندوة شبرد ،ومعه إبنه أيمن الذى كان سائرا على خطى والده فى الفن ،لكى يستأذنا

العبقرى فى كتابة مقدمة لكتاب مصور أصدراه .وكانت الضحكة الصافية والنفس الرائقة هى مالفت نظرى فى الأب وإبنه . ورحب العبقرى طبعا ،وكتب المقدمة .وقد أخبرنى أيمن أن والده صلاح طاهر كان "زميل تخته" للعبقرى فى المدرسة الثانوية بالعباسية ،وان أخو نجيب محفوظ كان مدرسا لهما فى نفس المدرسة .

كما حضر ندوة شبرد عدة مرات الموسيقار سليم سحاب قائد أوركسترا فرقة الموسيقى العربية فى عز تألقها .

كما حضر ندوة شبرد ،عدة مرات أيضا ،كاتبة وأديبة فلسطينية غاية فى الرقة والأدب ،للأسف لا أتذكر إسمها الأن !.

الماركسيون وأحوالهم

وهناك موقف طريف يدل على مدى تغير ألمزاج والأحوال السياسية فى مصر، بدءا من عهد عبد الناصر مرورا بعهد السادات إلى عهد حسنى مبارك، وندوة نجيب محفوظ كانت صورة مصغرة من الوطن على مر زمانها .فقد حضرالأستاذ الماركسى محمود أمين العالم وزوجته فى ندوة الأحد بشبرد ،أيام عهد حسنى مبارك .وجلس الأستاذ امين العالم بجانب نجيب محفوظ ،وبدأت أنا اتكلم عن مكانة الأستاذ محمود أمين العالم كأحد أبرز النقاد الذين وضحوا لأمثالى من الشباب أيام الستينات،مواطن الجمال فى روايات نجيب محفوظ ،مع رجاء النقاش وغالى شكرى وغيرهم . وكان الأستاذ أمين العالم يبتسم فى حياء وهدوء ،وأنا أتكلم عنه، ثم أردفت قائلا إن إختلاف التوجهات السياسية ،لا يفسد للود قضية ،فعقب الأستاذ العالم قائلا بابتسامة هادئة كصوته ،مفيش إختلاف ولا حاجة ،كلنا إخوة. كان الأستاذ أمين معتادا على الندوة أيام قهوة ريش فى عهد عبد الناصر،حيث كان كل الحضور إما ناصريين أو ماركسيين ،فأعتقد أن الندوة مازالت كذلك !.وبالتالى كان يعتقد أن الكل فيها أراؤه متشابهة أو متطابقة كالعادة،وأن الإختلاف سيكون شكليا أو بسيطا!. ولكن ما إن بدأ الحديث عن عبقرية السادات فى الحرب والسلام ،والحرية النسبية فى عهده ،والدكتاتورية وهزيمة يونيو فى عهد عبد الناصر،حتى فوجئنا بالأستاذ محمود امين ينتفض كمن لدغته عقربا ويتغير لون وجهه إلى الأحمر، ، وذهبت فجأة الوداعة والرقة والهدوء ، وأرتفع صوته غاضبا قائلا ،"الكلام ده خيانة "!،ثم هب واقفا مع زوجته وأنسحب فورا بعد أن ودع نجيب محفوظ بإقتضاب ملحوظ. ولم يهتم العبقرى إطلاقا بما حدث وتركه يذهب دون أية تحية من جانبه.وأدركت ساعتها أن الماركسى ،مهما بدا مهذبا وهادئا ، لا يمكن أن يغير جلده أو طبعه،لا يمكن أن يقبل الحوار الديمقراطى ،فالماركسيون ،مثلهم مثل المتطرفين الدينيين ، مستعدون ،من أجل دينهم،لقتل اى خصوم .والظاهر أن العبقرى أدرك هذا قبلنا بكثير.

وحضرت إلى ندوة شبرد ذات أحد ،فوجدت الأستاذة صافيناز كاظم الصحفية الشهيرة،التى كانت قد تحولت من كاتبة ماركسية متطرفة إلى كاتبة إسلامية متطرفة ،بعد سقوط الماركسية طبعا !.ومعها إبنتها . وعند إستئذان صافيناز كاظم ، من العبقرى للإنصراف، وقفت أمامه ثم أنحنت قليلا عليه حتى يمكنه سماعها قائلة : أنا ماشية ياأستاذ نجيب ،ثم تضيف لدهشتنا ودهشة الاستاذ،قائلة "أنا مش بأسلم بالأيدى ياأستاذ " تقصد أنها لن تسلم عليه باليد . نظر إليها نجيب الذى يبلغ من العمر فوق التسعين عاما ،دون أن ينطق بكلمة واحدة ، فأعادت عليه هذه الجملة العجيبة بإصرار "أنا مابسلمش على إيد حد ياأستاذ نجيب "!.كنا مندهشين ،وإذا بالأستاذ نجيب أيضا لا يرد .فتعيد عليه هذه الكلمات العجيبة مرة ثالثة " أنا مش بأسلم باليد يانجيب بك ". شىء مذهل، فرفع العبقرى رأسه ووجهه ممتقع من الغضب قائلا لها " أه " فقط .وأنصرفت بعدها صافيناز كاظم .وقلت لنجيب محفوظ بعد ذهابها وأنا مندهش " يانجيب بك ،الواحد شاف وسمع عن بنات كثير،بتكون فرحانه بدخولها فى موجة التطرف السائدة وبتستعرض فرحتها بأن تقول لاقرباءها من الشباب والرجال" انا مش هاسلم باليد " ،وهو تصرف مفهوم ،ويمكن تبريره، لأن الشاب أوالرجل قد يشتهى الفتاة ،وقد يحاول أن يغازلها مثلا. إما أن تأتى سيدة فى الستين عاما من عمرها،،لتقول لرجل فى التسعين من عمره ،أنا مش هاسلم عليك باليد ،فهذا مالم نشاهده أو نسمع عنه من قبل !.وعندما يكون الرجل هو الاستاذ نجيب محفوظ ،وهو جالس وسط تلاميذه ومحبيه ،وتكون هذه السيدة هى ناقدة أدبية كانت ماركسية حتى النخاع ،عندئذ يكون المشهد كله مشهدا عبثيا ! وهز نجيب محفوظ رأسه متعجبا ،ووجهه مازال مكفهرا.

كما ذكرت للعبقرى عدة مرات أن إقتناعى كامل بأن أغلبية المثقفين المصريين إما ناصريون مستبدون وإما تيار دينى مستبد أيضا،ومعظمهم لا يدرك ذلك ! وإنما تظهر هذه الصفات عندما تضعهم الظروف والأحداث تحت الإختبار. وتلوت على نجيب محفوظ مقالا كانت جريدة الوفد قد نشرته لإستاذ مشهور من أساتذة علم النفس فى مصر بخصوص

الوفاة الغامضة للفنانة سعاد حسنى فى يونيو ٢٠٠١،وإذا بهذا الأستاذ الشهير يكتب فى نهاية المقال أن سعاد حسنى كانت منحلة وعاهرة !!.ولم يكن معروفا عن هذا الأستاذ أنه اخوانيا أو متطرفا ،ولكن كما ذكرت ،فى اعماق معظمنا تكمن إما الدكتاتورية أو التطرف الدينى.وكان هذا الرجل من معارف العبقرى. وأستمع نجيب محفوظ إلى قراءتى للمقال دون تعليق طبعا .

فى إحدى ندوات شبرد ،ذكر العبقرى رأيا للأديب يوسف القعيد كان قد قاله فى الندوة التى تجمعهم مع الغيطانى والأبنودى ، خاص بقضايا الحرية وحقوق الإنسان.ووجدت هذا الرأى يتفق تماما مع رأى الاحرار أو الليبراليين ،فقلت للأستاذ نجيب،على سبيل الدعابه ،أن يعرض على يوسف، عندما يتقابل معه، أن يترك الناصرية وينضم للأحرار!. وفوجئت فى الندوة التالية بالأستاذ نجيب يخبرنى وهو يبتسم، فور جلوسى بجانبه، أنه نقل إقتراحى ليوسف القعيد ،وأنه ،أى يوسف ،إبتسم ولم يعلق . والحقيقة أن الاستاذ يوسف القعيد من الشخصيات التى تتمتع بالتهذيب والهدوء ،وكنت فعلا أتمنى لو كان من الليبراليين، لكنه ناصرى حتى النخاع !.

خيرا تعمل شرا تلقى !

وكأى ندوات يجتمع فيها رجال ونساء، لابد وأن تحدث مواقف وحكايات درامية مثيرة لايعرف عنها العبقرى شيئا إلا قليلا أو لا يعرفها بتاتا !.وقد كنت طرفا بعيدا فى إحدى هذه الحكايات التى حدثت ،والتى تحمل طابع اجتماعى وروائى،أى تصلح أن تكون رواية سينمائية !.وأصل الحكاية أنه بعد أن تعرض العبقرى لمحاولة الإغتيال ،وكما ذكرت أوصى الأمن المكلف بحراسته بألا تكون ندوته فى مكان مكشوف مثل كازينو قصر النيل، وبدأ نجيب محفوظ يغير من مكان ندوته الثابت وينتقل بنا من مكان إلى مكان مغلق يختلف بإختلاف الأيام . بدأت وجوه جديدة تأتى الى الندوة بدافع الفضول أحيانا والتسلية أحيانا أخرى وللتعرف على الرجل الذى حصل على جائزة نوبل وأصبحت شهرته تجوب الافاق خصوصا بعد محاولة الإغتيال.من ضمن هذه الوجوه سيدة محترمة على قدر كبير من الجمال ومن عائلة محترمة وتشغل منصب محترم ،وفى ذات الوقت حضر إلى الندوة رجل بسيط الحال من عائلة متواضعة وعلى قدر كبير من الدمامة ،وكان ماركسيا بالمناسبة .

وتمر الأيام والشهور، وفى ندوة من ندوات المعادى ،وعندما إستأذن الاستاذ نجيب فى الذهاب إلى دورة المياه مستندا على ذراع أحد الحضور كالمعتاد ،وجلسنا جميعا منتظرين عودته، وإذا بهذه السيده المحترمة توجه الحديث لنا جميعا وبصوت مرتفع قائلة أنه عيب جدا ومزعج جدا لها أن أحد الحاضرين من الرجال أرسل لها حوالى سبعة رسائل متتالية على عنوان مكتبها يبثها هيامه وإعجابه وحبه !. ونظر كل منا إلى الاخر ونحن نتعجب من هو هذا الرجل؟، وإذا به هو الرجل البسيط الماركسى،الذى إحمر وجهه وأخذ يتمتم بصوت خفيض أنا اسف..أنا اسف. تكهرب الجو وحاولنا تهدئتها وطيبنا خاطرها ووعدناها أن هذا الامر لن يتكرر،وصمت الرجل بعدها تماما ووجهه أحمر من شدة الإحراج . وجاء العبقرى ولم يقل له أحد شيئا !.

وبعد أن أنتهت الندوة فوجئت بأن هذا الرجل يطلب منى بتوسل لم أعهده فيه من قبل ،حيث أنه كماركسى كان يبغضنى أشد البغض ،فوجئت بأنه يطلب منى الجلوس معه فى أى مكان لأنه يريد أن يفضفض عن نفسه عناء الموقف !.وحتى هذه اللحظة لا أدرى لماذا إختارنى أنا بالذات لكى يفضفض لى عن مشاعره؟!!.ربما لأنى كنت مقربا جدا من نجيب محفوظ ،فأراد أن يحمى نفسه من غضبه فى حال إذا وصلت الحكاية إلى مسامعه أو إذا إشتكت له هذه السيدة .المهم أنه ظل بعد كل ندوة ولمدة ثلاث أو أربع مرات متتالية يجلس معى فى فندق وندسور لكى يفضض لى عن مشاعره وحبه لهذه السيدة الجميلة ،ويسألنى لماذا تعامله هكذا ،ولماذا لا تبادله المشاعر؟! وطبعا كنت أواسيه وأتعلل له بحجج واهية كى لا أصدم مشاعره أو أجرحه. فقد كان واضحا تماما أن ظروف هذا المسكين بالمقارنة لظروف هذه السيدة تجعلها من كوكب أخر بالنسبة له !. فقد كانت تملك المال والجمال والعائلة والمركز وكان هو بلا مال ولا وسامة ولا عائلة ولا مركز!. والظاهر أنه، وبعد مرور عدة أشهر على هذه الحادثه ،هاله أنه قد أفضى بمكنون نفسه وكشف مشاعره وضعفه إلى ليبرالى مثلى كان يبادله العداء فى الندوة، فأزداد بغضه لى إلى درجة أنه فجأة ،وبدون أى مقدمات، وجدت هذا التعس يتهجم على بكلمات مهينة أمام الجميع فى ندوة شبرد!!.وسألت نفسى هل أغفر له هذا التصرف وأعذره لظروفه التعسه ؟ وقررت فعلا أن أغفر له وأعذره فلم أرد على إهاناته وقتها. وفى الندوة التالية بشبرد فوجئت أنه قد فهم صمتى على تصرفه السابق على أنه ضعف منى، وحاول أن يكرر إهانتى ،ولكنى لم أكن لإسمح له بهذا التهريج مرة اخرى، فعنفته أمام الجميع ،وقلت له صراحة أننى سأضربه بالحذاء إذا كرر وقاحته مرة أخرى، فغادر الندوة فورا . وطبعا لم يكن أحد يدرى أن هذا التعس كان يجلس معى بعد الندوة لكى يفضفض عن مشاعره تجاه هذه السيدة ، بإستثناء الأستاذ أحمد فهمى الذى كان حاضرا فى إحدى جلسات الفضفضة !.وعندما نمى إلى سمع العبقرى، دون أن يدرى شيئا عن خلفيات الموضوع ،أن هذا الماركسى لم يعد يأتى الى الندوة بسبب ما حدث بينى وبينه من صدام ،طلب منى أن

أطلبه هاتفيا ، أخبرته بعدها أن تليفونه لا يرد، وأنتهى الموضوع بعدها تماما من ذهنى وذهن نجيب محفوظ.

وكان للعبقرى قفشاته الذكية اللاذعه عندما يشعر بالضجر أو الملل من ثرثرة محدثه .وشاهدنا واقعة طريفه له مع الرجل الماركسى الذى رويت حادثته مع السيدة الجميلة قبل قليل .فقد أعتاد هذا الرجل أن يشغل الأستاذ نجيب والندوة أحيانا بتفاصيل تافهة عن حياته اليومية البسيطة .وفى ندوة من ندوات المعادى جلس هذا الرجل بجوار نجيب محفوظ وأستغرق فى شرح تفاصيل مجادلته لسائق التاكسى الذى أقله للندوة بخصوص الأجرة !. فالسائق طلب مبلغا نظير التوصيله ولكن صاحبنا اصر على مبلغ اقل . وأستمر صاحبنا فى إضجار الأستاذ نجيب بثرثرته الفارغة عن حواره مع سائق التاكسى والأستاذ صامت حتى أنتهى صاحبنا من حديثه ،وقال للأستاذ "إسمح لى يانجيب بك أن أحكى لك نكته "،وإذا بالأستاذ بخفة دم وسرعة بديهة يرد عليه قائلا " أمال إللى إنت كنت بتحكيه ده إيه ؟! وأنفجر الجميع من الضحك .

لمحات من شخصيته وأرائه

إتق غضب الحليم

كان الاستاذ لا يتطفل على شؤون أحد ولايطيق أن يجرح أى إنسان مهما صغر شأنه ، وبالتالى لا يتصور ولا يطيق أن يتطفل عليه أحد أو يجرحه . أتى إلى ندوة قصر النيل كاتب يسارى وهو الأستاذ محمد عطيه ،وكان قد أصدر كتيبا هاجم فيه معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية،وأتهم المؤيدين لها بأنهم عملاء للإستعمار وغيرها من الإتهامات المعتادة التى يطلقها الشيوعيون والناصريون على كل من يخالفهم أرائهم،وكان الاستاذ من المؤيدين للسلام مع إسرائيل، وما إن فتح محمد عطيه فمه ليناقش الأستاذ نجيب ،وإذا بالاستاذ نجيب ينتفض من على مقعده ،وكان قد قرأ الكتيب ،وصرخ بصوت كالرعد فى وجه الاستاذ محمد عطية قائلا له وهو يمد ذراعه أمامه :" مش قبل أن تشتمنى تفهم أنا بأقول ايه !"، ووجم كل من فى الندوة ،وتمتم محمد عطية وهو مخضوض قائلا ألعفو.. العفو ياأستاذ. وكانت هذه أول مرة أكتشف فيها هذا الجانب العنيف فى شخصية نجيب محفوظ !.

والمرة الثانية كانت على لسان الشاعر عبد الله الوكيل ، فقد حكى لى ،أثناء زيارته للقاهرة ، وأثناء سيرنا بجوار مقر حزب الوفد بحى الدقى، أنه إعتقد لصداقته مع نجيب محفوظ ومرافقته له الدائمة بالأسكندرية، أنه يمكنه رفع الكلفة ومفاجأته بزيارة ودية فى القاهرة، فذهب اليه يوما ما فى الصباح الباكر إلى قهوة فى ميدان التحرير،كان الأستاذ، فى صحته، يذهب اليها يوميا ليقرأ جرائده ،وفوجىء عبد الله بأن الاستاذ يخبره بصوت صارم وعال أن هذا الوقت هو مخصص لنفسه وليس لأصدقائه، وأنه إذا أراد مقابلته فليأخذ موعد مسبقا، أما أن يطب عليه هكذا، فهذا مرفوض تماما ،وأنسحب عبد الله وهو فى "نص هدومه".

والمرة الثالثة كانت معى شخصيا،فقد تصادف أن الأستاذ نجيب قد صرح فى حديث له بمجلة أخر ساعة فى ٣٠ ديسمبر١٩٩٢ ،أنه لا يرى

اى تناقض أو إختلاف بين أهداف حزب الوفد وبين اهداف الحزب الوطنى الحاكم ، وأنه أحرى بحزب الوفد أن يتحالف مع الحزب الوطنى وان الوفد لم يعد لديه ما يطالب به اليوم سوى الديمقراطية !!!!..طبعا كلام فيه إستخفاف واضح بالديمقراطية أولا ثم بحزب الوفد ثانيا !.ومن من ؟! من عاشق الوفد القديم نجيب محفوظ !.وكنت وقتها فى قمة إيمانى وتعصبى للديمقراطية كما كنت،أيضا، أشاور عقلى فى الإنضمام لحزب الوفد ،فوجدتها فرصة أن أنشر أول مقال لى فى جريدة الوفد أنتقد فيه كلام الأستاذ.وبالفعل نشرت جريدة الوفد مقالى بعنوان "لا ياأستاذ نجيب ". وذهبت بعدها إلى الندوة ،ولحظى العاثر تغيب يومها الأستاذ مصطفى أبو النصر،ووجدت نفسى جالسا مكانه فى مواجهة الأستاذ مباشرة .ولحظى العاثر أيضا أن الدكتور فتحى هاشم كان قد أخبر الاستاذ نجيب بتفاصيل المقال أثناء قيامه بتوصيله للندوة بسيارته الخاصة ،ولم أكن اعرف هذا بالطبع. وعندما بدأت أذكر تفاصيل المقال للأستاذ ،فوجئت بوجهه يكفهر وبصوت كالرعد يصرخ قائلا "فين الاستاذ مصطفى؟! أين هو ؟!" وطبعا خرست بعدها ولم أنطق للحظات،ثم غيرت الموضوع .وكان درسا قاسيا لى فى الندوة. قد يقول قائل إن هذا التصرف من الأستاذ يدل على عدم تحمله للنقد، وهى وجهة نظر تحترم ،ولكن من حقه أيضا أن يرتاح نفسيا وذهنيا فى ندوته الخاصة دون أن يعكر صفوه أى نقد له . ومن الطريف أنه بمرور السنين،وبعد طول إندماجى بحزب الوفد،أدركت أن الأستاذ نجيب كان مصيبا فى رأيه بخصوص حزب الوفد الجديد (وليس بخصوص الديمقراطية طبعا)، فلم يكن هناك فارق يذكر بين رجال الوفد ورجال الحزب الوطنى ،فقد أتضح لى أنه فى مصرنا العزيزة ،أحمد مثل الأستاذ أحمد مثل الحاج أحمد،كما يقول المثل !. وأن الشعب المصرى لظروف تاريخية ساحقة،لا يعرف الحزبية بمعناها الغربى، وكنت عندما أحتج لفؤاد باشا سراج الدين-بعد إلتحاقى بالوفد- أن جريدة الوفد تنشر لفلان الشيوعى أو علان الإخوانى أو ترتان الناصرى،وهوما يتعارض مع مبادىء الوفد الليبرالية ،كان فؤاد باشا يرد على بأن حزب الوفد جبهة تضم جميع الاتجاهات !!.والحقيقة التاريخية أن

الوفد نشأ كجبهة ليواجه الإنجليز المحتلين،وليس ليمارس حياة حزبية بالمعنى الحقيقى للحزبية !.وكانت أى شخصية ، مهما علت ومهما كانت وطنيتها ، تنشق على قيادات الحزب وتريد أن تكون حزبا اخر،كان يتم إتهامها على الفور بأنها عميلة للقصر والإنجليز!!. وتدور السنوات فى معية نجيب محفوظ ،لتؤكد لى ،أنه فى أغلب الحوارات والمجادلات معى ومع غيرى كان رأى الأستاذ هو الأقرب للصواب والحكمة.

الحذر واجب

كان نجيب محفوظ يعشق زعامة سعد زغلول ومصطفى النحاس ،عشقه لثورة ١٩١٩.كان عندما يتذكر أو يتحدث عن ثورة ١٩ وعن زعيمها سعد كانت الحماسة والحيوية تدب فى أوصاله .وكنا تشعر دائما بأنه يعشق سعد والنحاس دون اية ضغوط أو مجاملات ،أما إذا جاء ذكر ثورة١٩٥٢ وجمال عبد الناصر ،فلا تشعر أبدا أنه يتحدث عنهما بنفس الحرارة والتلقائية ،فهو إبن ثورة ١٩١٩،بلا جدال .وكنا نتأكد من مشاعره هذه عندما كان يشرح لنا كيف أنه بهت وذهل عندما جاء فى إمتحان للطلبة فى إحدى مراحل التعليم الثانوى أو الإعدادى ، وبعد أن إستنتب الأمر لقادة ثورة ١٩٥٢، سؤال يقول"إشرح أسباب فشل ثورة ١٩١٩".. فشل ؟! ،يانهار أسود !،هكذا نطق نجيب محفوظ ،وهو يبتسم بسخرية . كان يعتبر سؤالا كهذا دلالة على جهل مطبق .فكل تطور وتقدم حدث فى حياة مصر الحديثة جاء نتيجة ثورة ١٩، هكذا يقول نجيب محفوظ دائما. وقد كان شيئا ملفتا تماما ،حرص نجيب محفوظ على أن يوضح لنا بالتفصيل أن جنازة سعد زغلول كانت عفوية وأكبر من جنازة عبد الناصر!،حيث لم توجد وقت وفاة سعد وسائل المعرفة والإتصال مثل التليفزيون .ولكن محفوظ كان يدرك تماما أنه محاط من كل جانب بالناصريين والماركسيين الذين لولا فنه العظيم وتواضعه وحنكته لمزقوه إربا ،وكان كل نقاد الادب وكل رؤساء صفحات الأدب والفن وكل رؤساء المجلات الأدبية والفنية إما ناصريين أو ماركسيين .فكان عليه أن يكون شديد الحذر،خصوصا أنه يستفيد منهم لأقصى درجة فى ترويج فنه العظيم ونشره، وهم أيضا يستفيدون من الكتابة عنه فى كتب ومجلات .بالإضافة الى ذلك،لم يكن هناك أى تيار ليبرالى حقيقى فى مصر يمكن أن يستند عليه الاستاذ أو يحتمى به،لو أراد أن يواجه هؤلاء أو يتحداهم . وأعتقد أن هذه النقطة بالذات من العوامل المهمة التى جعلت العبقرى يتمسك بصداقتى لأقصى حد ،فقد كنت الليبرالى الوحيد تقريبا الذى يستطيع العبقرى أن يرتكن إليه ،أمام هذه الجحافل الوحشية !.

وعندما قررت أن التحق بحزب الوفد عام ١٩٩٣ ،سألت نجيب محفوظ عن رأيه، فأجابنى متحمسا :" أن الحياة الحزبية هى حياة كاملة". وبعد أن إلتحقت بالحزب ،كان مهتما بعدها بأن يعرف تفاصيل الحياة الحزبية كما شاهدتها ،وكنت أحكى له ،فى جلستنا الخاصة، ما أجده يستحق ذكره من أحداث داخل الحزب. كان رأيه ، وهذا طبيعى لانه يعشق سعد والنحاس، أن الموجودين فى الحزب هم أقل قيمة بكثير من الزعماء التاريخيين له . وبعد أن توثقت علاقتى بإبراهيم باشا فرج القطب الوفدى المعروف،بعد إنضمامى للحزب .أبلغنى سؤالا محددا لأسأله للاستاذ نجيب فى الندوة وهو: لماذا ينتهى مصير الغالبية العظمى من النساء فى رواياته إلى نهاية سيئة ؟!.ورد نجيب محفوظ على السؤال متعجبا: ألا يدرك إبراهيم باشا مدى الظلم والواقع المريرالذى تعيشه المرأة فى بلادنا ؟!.والجدير بالذكر أننى كنت أحكى للعبقرى كل حادثة بشعة تنشرها جرائدنا وتروح ضحيتها إمرأة أو فتاة مصرية على يد زوج أو أخ أو أب بسبب ما يطلق عليها جرائم الشرف.

فى معرض المناقشات عن القيود والقوانين واللوائح التى كانت تكبل إدارة الشركات والمصانع سواء التى يديرها القطاع العام أوالتى يمتلكها القطاع الخاص فى مصر،أقترحت أنا ،فى ندوة قصر النيل ،أن تلغى هذه القيود ،وأن تعطى لإدارات هذه الشركات حرية مجازاة المهمل والمتكاسل ،ومكافأة المجتهد ،كما يحدث فى دول الحضارة الحديثة (وهو تعبير نجيب محفوظ عن الدول المتقدمة) وأن على افراد الشعب العامل (كما كان يطلق عليهم فى الأنظمة الشيوعية والاشتراكية ومن بينها مصر) أن يتعلموا أن أكل العيش هو أهم شىء فى حياتهم حتى لو تعارض مع كرامتهم التى أحيانا يخلطون بينها وبين التعالى عن العمل وعدم إتباع أوامر الرؤساء ،ولكن الاستاذ نجيب رفض تماما أن يتخلى أى موظف أو عامل عن كرامته فى معرض الحديث عن العمل ،وقال أن كرامة الانسان فوق أى اعتبار اخر، وكان إعتراض العبقرى أو موافقته على أى رأى يقال أمامه

،كان يظهر فورا على ملامحه ،بالرغم من النضارة السميكة التى تغطى وجهه،وقبل أن يفتح فمه بكلمة واحدة !.

الممثل نجيب محفوظ !

وأتذكر عندما كان التلفزيون يعرض حلقات تسجيلية وثائقية رائعة عن الحرب العالمية الثانية بعنوان " العالم فى حرب "،وقلت للأستاذ وللحاضرين،فى ندوة قصر النيل، أن ادولف هتلر ديكتاتور المانيا النازية ،وهو يزأر بصوت كالرعد أمام الميكروفون فى الجماهير الألمانية المتحمسة والتى كانت تعبده ، قام بحركة عجيبة فى تأثيرها ،ووقفت لكى أشرح للجميع الحركة،وإذا بالأستاذ نجيب يذهلنى بأن حرك يديه ولفهما حول بعضهما البعض دون أن يضمهما، ورفعهما أمام وجهه ،ثم رفع وجهه للسماء ،بالضبط كما فعلها هتلر!!.كل هذا فى ثوانى معدودة .وقال لى مبتسما " الحركة دى ؟" فقلت له وأنا منبهر" بالضبط يانجيب بك ". وأدركت أنه كان يتابع هذه الحلقات ،وأن هذه الحركة التمثيلية، لفتت نظره كما لفتت نظرى . والظاهر أن بصره كان مازال بخيرنسبيا ،بحيث كان يتابع ما يهمه على الشاشة. وعندما قلت لنجيب محفوظ وللحاضرين إننى بالرغم من عدم معرفتى بأى كلمة المانية،إلا أننى شعرت بقشعريرة فى جسمى وأنا استمع الى صوت هتلر،فما بالك بالشعب الالمانى ؟لابد وأن تأثيره كان كالسحرعلى شعبه . علق الأستاذ نجيب قائلا أن الأستاذ عباس العقاد كان قد ذكر نفس الرأى،مؤكدا أن صوت هتلر،عندما إستمع اليه فى جهاز الراديو، أحس بأن تأثيره غير عادى .

والمطرب نجيب محفوظ !

قلما كان نجيب محفوظ يذكر أهل المغنى فى ندوته سواء بالسلب أو الايجاب إلا عندما يسأله احد. ولكنه مرة واحدة وفى لحظة تجلى ،فى ندوة قصر النيل ،وعندما ذكرت أن الأغانى الغربية التى أسمعها هذه الأيام أصبحت تحتوى على ألفاظ خارجة عن الأداب العامة ،وأنه لو غناها هنا فى مصر أحد المطربين أو المطربات لقبض عليه أو عليها فورا، فوجئنا جميعا بأن الأستاذ نجيب بدأ يذكر لنا كلمات أغانى قديمة كانت تغنى أيام شبابه فى الحفلات على يد مطربين ومطربات مصريات وتحتوى على ألفاظ خارجة لأقصى درجة !.والمذهل أنه اخذ يغنى بعض المقاطع البذيئة بنفسه وهو يهز رأسه مبتهجا ! وكان يوجد فى الندوة سيدات !.والحقيقة أن صوته كان نشازا فى الغناء، وكانت أول وأخر مرة أستمع فيها إلى العبقرى وهو يغنى .

دفاع عن الطبقية من الإشتراكى محفوظ !

وقد فاجأنى يوما الاستاذ نجيب ،فى تدوة قصر النيل، بموقفه ،وهو الإشتراكى الأصيل ،من الطبقية الواضحة التى كانت فى فترة من الفترات تفصل بين أفراد الشعب البريطانى .والحكاية أن التلفزيون المصرى كان يعرض على شاشته مسلسلا بريطانيا شهيرا، إسمه " إللى فوق وإللى تحت" Upstairs Downstairs ’ ،ويحكى المسلسل الممتع حكايات أفراد عائلة من الطبقة الأرستقراطية فى بريطانيا، فى فترة بدايات وحتى ثلاثينات القرن الماضى، تسكن فى قصر،طبعا فى الدور العلوى ،وتتقاطع معها حكايات أفراد من الطبقة العاملة من الخدم والحشم التى تخدم الطبقة الأرستقراطية وتعيش فى الطابق السفلى (البدروم) من القصر. وعندما إستغربت أمام العبقرى كيف أن الطبقة العاملة من الخدم والحشم فى هذه الفترة من التاريخ كانت مستسلمة تماما لمصيرها المحتوم وهو أن تكون فى عالم اخر،لا تجرؤ أن تخترقه لتتعامل مع الطبقة الأرستقراطية معاملة الند للند ، وأن الولايات المنحدة كانت قد تخطت هذه المرحلة من الرأسمالية، حيث لا يوجد فيها هذه الطبقية العنيفة ،فلا يوجد بها لورد أو دوق أو غيرها من الألقاب التى تفرق بين أفراد الشعب . فاجأنى الاستاذ نجيب محفوظ بالإعتراض على كلامى، وبالدفاع المستميت عن الشعب البريطانى ،وأنه لا يمارس هذه الطبقية بغرض الإستعلاء أو تحقير الطبقة العاملة ،وإنما هى عادات وتقاليد إعتاد عليها الشعب !. وعندما حاولت مناقشته، أعاد كلامه بإصرار وإحتداد ، فسكت !. والحقيقة التى كنت أؤمن بها وأذكرها دائما أمام نجيب محفوظ فى أوقات أخرى،هو أن الأحزاب الشيوعية فى فترة الخمسينات والستينات من القرن الماضى كانت شديدة القوة والتأثير فى دول أوروبا الغربية وعلى رأسها فرنسا وايطاليا ،بالإضافة إلى أن حزب العمال البريطانى كان إشتراكيا حتى النخاع . وأنه لولا الرأسمالية الجديدة فى أمريكا والتى لاتعترف، كما ذكرت ،بالألقاب الأوربية من ملك ودوق وكونت وماركيز ولورد وغيرها، والتى قضت إلى حد كبير على صراع الطبقات ،فمكنت العامل

الامريكى أن يتحول إلى مليونير وأن يصل إلى أعلى درجات المجتمع دون عوائق،والعكس صحيح .وأنه فى كل الأحوال يحصل على الإحترام الكامل وعلى الحرية السياسية الكاملة ، وبالتالى أعطت قبلة الحياة للرأسمالية ،وأظهرتها فى صورة جديدة مبهرة وحديثة أمام شعوب العالم. لولا هذا لكانت الشيوعية قد انتصرت إنتصارا نهائيا فى دول أوروبا الغربية كلها !!.

قسوة ومرض

عندما حدثت واقعة سقوط فنانة مغربية من شرفة شقة الملحن بليغ حمدى عام ١٩٨٤،وكانت برفقة أمير عربى. إستيقظ بليغ حمدى ليكتشف أن الأمير العربى قد غادر مصر وتركه فى هذه المصيبة وحده. إستعان بليغ ،الذى فوجىء بالحادث، بمشورة جاره المستشار بالقضاء،وسافر بليغ حمدى إلى باريس خوفا من المساءلة الجنائية عن الحادث .كتب الاستاذ نجيب حينذاك فى مقاله بالأهرام يندد فيها بالحادث ويهاجم جميع من كانوا بالشقة ويصور الحادث بطريقته الروائية مصورا إياه رمزا للفساد ومؤامرة للتغطية على جريمة قتل.وعندما ناقشته فى الندوة عن أن بليغ حمدى لا ناقة له ولاجمل فيما حدث. وأن الفنانين فى كل انحاء العالم يقيمون الحفلات فى مقراتهم،شعرت ساعتها بالجانب القاسى فى شخصية نجيب محفوظ ،وأصطف جميع حضور الندوة وأخذوا جانب الأستاذ نجيب فى إدانة بليغ ،ولكنى فى الحقيقة لم أهتم مطلقا، ووقفت أدافع بكل قوة عن بليغ حمدى وعبقريته التى لايمكن لحادث مثل هذا أن يطمرها أو يمحيها، فبليغ حمدى، وقتها، كان يلحن أعذب الألحان للغالبية العظمى من مطربى ومطربات مصر!.وأستمع الأستاذ للرأى الاخر بكل اريحية وديمقراطية كعادته .

فى ندوة من ندوات قصر النيل،وجدنا نجيب محفوظ صامتا تماما على غير العادة. عرفنا جميعا بعدها أنه كان متوجعا إلى درجة كبيرة ،وإحتاج الامر لإجراء عملية جراحية ،فأرسلته جريدة الأهرام لإجرائها فى لندن،عاد بعدها معافيا إلى مصر. وعندما سألته ماالذى أعجبه فى لندن ضحك قائلا "من المطار للمستشفى ومن المستشفى للمطار"، أى لم يكن هناك وقت ليتمتع بأى زيارات سياحية، والظاهر أن العملية كانت ناجحة لأقصى درجة لأنه قال لنا بطريقته الجميلة الساخرة ،أنه صحا يوما وسألهم متى العملية فقالوا له إتعملت خلاص !!.وقد سمح له الاطباء بتدخين ثلاث سجائريوميا،رفعها هو من نفسه إلى سته !.

ماقل ودل

كره نجيب محفوظ من أعماق قلبه وعقله حالة اللاحرب واللاسلم ،لذلك كان من المؤيدين لإتفاقية السلام المصرية الإسرائيليه، وكلما جاء زائر للندوة سواء صحفى أو اكاديمى أو غيره وسأله عن سبب تأييده للسلام مع إسرائيل ،كان أول رد ينطق به العبقرى،وفورا وبدون تردد،هو أن الشعوب إما أن تحارب أو تسالم ،وأن أسوأ ما يمكن أن يحدث لأمة أو لشعب هى حالة اللاحرب واللاسلم ،فهى تعيق التنمية والتقدم بل والحياة ذاتها لهذا الشعب ولهذه الأمة .وما دمنا قد حاربنا وعدة مرات فلا مفر من السلم .هكذا كان منطقه الذى دائما يردده وبحسم .

فى ندوة قصر النيل، وبعد إغتيال أنور السادات فى أكتوبر ١٩٨١،بدأت كالعادة الأقلام الصحفية المصرية مرحلة "مات الملك عاش الملك" وتبدأ هذه الاقلام فى نقد الملك أقصد الرئيس الراحل وتمجيد الرئيس المتولى ! وهى عادة مصرية بإمتياز منذ عهود الفراعنه حيث يبدأو فى مسح أى إنجازات للرئيس الراحل والعكس للرئيس الذى تولى . وبدأ رئيس مجلس ادارة الأخبار أو اخبار اليوم الأستاذ إبراهيم سعده ،وكان الصحفى المفضل لدى الرئيس السادات والناطق بلسانه مع الأستاذ موسى صبرى ،بدأ إبراهيم سعده فى نقد الرئيس الراحل أنور السادات بشدة بعد إغتياله بقليل !. قرأ الأستاذ مصطفى على نجيب محفوظ بعض ما يكتبه ابراهيم سعده حاليا عن المرحوم السادات، وسأله عن رأيه، وإذا بنجيب محفوظ يرد ردا عبقريا لا يمكن أن يصدر إلا منه. أجاب العبقرى ،وعلى الفور بالعبارة التاليه: " كل إللى بتقوله ياأستاذ ابراهيم كويس ،بس مش إنت إللى تقوله !" . رد مهذب إلى أقصى درجة ولكنه موجع أيضا لأقصى درجة وفيه كل ما يقال فى مثل هذا الموقف دون التلفظ بأى كلمة نابيه أو سوقيه ، عبارة واحده عبقرية فيها كل شىء .وأتذكر جيدا كيف لمع وجه الاستاذ مصطفى وأتسعت حدقتا عينيه وإبتسامته ونحن معه منبهرون برد العبقرى .

عندما إمتعض العبقرى أثناء مدحه !

أثناء إحتفالنا جميعا فى الندوة بحصول الأستاذ على جائزة نوبل عام ١٩٨٨،كنت قد بدأت أذكره وأناديه وألقبه ب "العبقرى" أحيانا بدلا من كلمتى "نجيب بك " فى التخاطب معه أو مع الحاضرين فى الندوة ، وكنت أتكلم بالتفصيل فى الندوات التى تلت نوبل،عن أجمل ما كتبه النقاد المصريين والأجانب على السواء فى جدارة الأستاذ بللجائزة،.بدأت أتكلم عما كتبه الشاعر عبد المعطى حجازى عن العبقرى ،كان من أجمل وأصدق ما كتبه حجازى هو أن مصر فى عيون القارىء بعد قراءته لروايات نجيب محفوظ ،تختلف تماما عن نظرته لها قبل قراءته لرواياته. وأنا اجزم بأن هذا حقيقى لأقصى درجة .وكنت دائما أداعب الأستاذ بأن ألومه أن رواياته هى السبب الرئيسى الذى جعلنى لا أتحمل الهجرة إلى أمريكا ،فلو لم أكن قد قرأت رواياته لما أحببت مصر لهذه الدرجة،ولأستطعت التغلب على أل "هوم سيك"!. المهم إننى وأنا أستكمل شرح ما كتبه الشاعر عبد المعطى حجازى عن الأستاذ نجيب والجائزة ،وعندما وصلت إلى ذكر أن حجازى يقول أن نجيب محفوظ هو أجدر أديب عربى حى بجائزة نوبل، وجدت وجه العبقرى وقد أكفهر فجأة وغابت الإبتسامة وأشاح بوجهه ،وأدركت ساعتها أن العبقرى يتشاءم ويتفاءل كمعظم المصريين،فقد كره كلمة" حى " التى ذكرها الأستاذ حجازى وتشاءم منها !.

وقد أسعد الأستاذ نجيب ما ذكرته له من أن مجلة النيوزويك الأمريكية أختتمت مقالها عنه بجملة رائعة يفهمها الامريكيون جيدا وهى " أن ما يكتبه نجيب محفوظ يمتلك القوة " what he writes has power! " فالأمريكان يعشقون القوة فى كل شىء، وأن تكون كلماتك تمتلك القوة،فلا يوجد أعظم من هذا فى نظرهم !. وفى إحدى سفرياتى إلى الولايات المتحدة الأمريكية ،وبعد حصوله على جائزة نوبل ، ظهرت السعادة على وجه الأستاذ نجيب فى إبتسامته التى تكسو وجهه ،عندما أخبرته أننى فى

كل مكتبة امريكية محترمة زرتها، كان يوجد ركن مخصص لكتبه بإعتباره من العظماء الذين حصلوا على الجائزة .

ومن الكلمات الشديدة الإيجاز والعمق والجمال ،التعليق الذى قاله الشاعر الفلسطينى محمود درويش ،عندما سئل عن رأيه فى فوز محفوظ بالجائزة العالمية فقال : نجيب محفوظ نقطة إجماع عربية !.

شجاعة أمام رئيس وصحيفة

تصدى العبقرى ،فى رواياته ،لكل أنواع القهر والطغيان السياسى والإجتماعى والدينى ،وأصبح المجتمع المصرى واضحا ككتاب مفتوح أمام قرائه ومعجبيه !.وتشهد رواياته الكرنك وثرثرة فوق النيل وميرامار والحرافيش وأولاد حارتنا وغيرها ،على قوة معدن نجيب محفوظ وصلابته وشجاعته أمام عيوب مجتمعه وعيوب رموزه . وقد فاجأنى شخصيا بحديثه الشجاع أمام الكاميرات وأمام العالم وأمام رئيس الدولة وكبار رجالها ،بمناسبة تكريمه فى الحفل الذى أقامه له خصيصا الرئيس حسنى مبارك، لحصوله على جائزة نوبل للأداب .فقد وقف نجيب محفوظ موجها حديثه لرئيس الدولة قائلا على ما أذكر "..أشكرك سيادة الرئيس على تهنئتك لى بأننى حققت ما أصبو إليه من أمال ،وأتمنى أن يأتى اليوم الذى أهنئك فيه بتحقيق أمال الشعب المصرى .". وأتذكر جيدا أننى فور وصولى ندوة قصر النيل ،حييت نجيب محفوظ على كلمته الجريئة التى لم أتوقعها إطلاقا فى مناسبة كهذه ،حيث كان المفروض،ذوقيا وبروتوكوليا وإيثارا للسلامه،ألا يتفوه محفوظ بهذه الكلمات التى تقول لرئيس الجمهورية صراحة أنه لم يحقق حتى الأن أمال الشعب المصرى !!.وقد ركزت الكاميرات ساعتها على وجه مبارك الذى كان واضحا تماما أنه بهت من كلمات نجيب محفوظ الصريحة الشجاعه ،ولم يملك ساعتها إلا أن يصفق له هو ورجاله. وقد سعد الأستاذ بأننى قد لاحظت هذه الجرأة فى رده ،وبصراحة كنت الوحيد الذى هنأه عليها !. وكما قلت يظهر نجيب محفوظ ،رضائه أو عدمه ، من إبتسامته الجميلة أو إكفهرار وجهه الواضح !.

وكان العبقرى منظما إلى أقصى درجة ممكنة ،وهذا معروف عنه للجميع ، وهذا التنظيم الفولاذى للوقت هو الذى جعله -كما شرح هو من قبل- يقرأ ويكتب ويعمل ويقابل أصدقائه دون إضطراب أو فوضى . وكان يحترم الجميع ،ولا يهتم بالمظاهر ولا يتهافت على وسائل الإعلام

ولو كانت عالمية .وقد شاهدت هذا عمليا ، عندما جاءت صحفية من جريدة "النيويورك تايمز الأمريكية " ، وما أدراك ماهى النيويورك تايمز،هى أقوى جريدة يومية فى العالم .جاءت ندوة قصر النيل، لتأخذ منه حديث، وعرضنا عليه أن نتركه معها ،ونجلس نحن على مائدة مجاورة ،ولكنه رفض تماما وقال لها لقد أتيت دون موعد سابق ،وهذا الوقت مخصص لأصدقائى ،وأتذكر أن الصحفية ضربت بقدمها اليمنى الأرض فى غيظ واضح ،وذهبت دون أن تحصل على كلمة واحدة منه ،وقد نصحها أحد الحاضرين بأن تتصل بالموظف الذى خصصته له جريدة الأهرام لتحجز موعد معه.

خفة دم وحساسية وذكاء إجتماعى بلا حدود

نجيب محفوظ ،محافظ أخلاقيا، كما كان معظم أفراد جيله ،وعندما أثرت فى ندوة قصر النيل جرأة الأدباء الغربيون فى وصف العلاقات الجنسية فى كتبهم ،وسألت الأستاذ نجيب بخبث لماذا لا يتناول موضوع الجنس بتفاصيل واضحة مثلهم ، ،تعجب نجيب محفوظ قائلا بخفة دمه المعهودة " يعنى راجل وحبيبته دخلوا الغرفة وأغلقوا بابها،يعنى داخلين يعملوا إيه ؟!..يلعبوا طاولة ؟".وضحكنا جميعا .وعقبت أنا قائلا بأن هذه ليست حجة قويه لأن حضرتك وصفت بالتفصيل كيف كان يأكل ألسيد عبد الجواد وعائلته فى رواية بين القصريين ،فبنفس المنطق يمكن أن نقول إننا لا نحتاج إلى وصف طريقة الأكل ،لأن من يجلس حول الطبلية،هايعمل إيه ؟هايأكل طبعا . المهم إننى أضفت قائلا ، أنه بالرغم من أن التقاليد والعادات الشرقية تمنع كاتب كنجيب محفوظ من أن يحصل على الفرصة المتاحة لنظيره الغربى فى وصف الجنس بالتفصيل،وهو نشاط رئيسى فى حياة الإنسان ،إلا أن عبقرية الاستاذ نجيب كانت واضحة وباهرة بدرجة أنها لم تحتاج إلى وصف أى علاقات جنسية لإظهار هذه العبقرية !.

وفى جلستنا الخاصة بهلتون رمسيس أبدى نجيب محفوظ إندهاشه عندما علم أن محافظة القاهرة قد أجرت مسابقة لإختيار أجمل زهور داخل الحديقة الدولية بمدينة نصر،بالترتيب ،الأول ثم الثانى والثالث وهلم جرا، إلى أن تصل إلى المركز الأخير.وكانت كل سفارة أجنبية فى القاهرة قد تبرعت بزراعة مربع زهور خاص بها فى الحديقة ،سفارة اليابان والسفارة الإنجليزية وغيرها من السفارات، كلهم تبرعوا بأموالهم لزراعة جزء من الحديقة الدوليه إلى أن إكتملت .وكان تعليق نجيب محفوظ أنها قلة ذوق من المسؤلين ،كيف أن السفارات دى إتبرعت إنها تجمل،على نفقتها، حديقة لمصر ،وإحنا نعمل مسابقة علشان نكسف سفارة منهم بأن يكون مربع زهورها هوالأخير وأخرى قبل الأخير !. لمحة لا يمكن أن يلاحظها سوى نجيب محفوظ بحسه الإنسانى العالى وذوقه وكياسته.

كان نجيب محفوظ حساسا لأقصى درجة فيما يخص علاقاته العابرة بالمحيط الإجتماعى حوله ،فلا يطيق أن يتورط فى أى مشكلة مع أى بشر مهما كان مجنيا عليه فيها. فى جلستنا الخاصة بهيلتون رمسيس ،تصادف أن أوقفت سيارتى فى مكان قريب من مدخل الفندق،حرصا على راحة العبقرى ،وحتى لا يسير مسافة كبيرة . وأثناء جلستنا داخل الفندق، إقترب موظف،من العاملين بالفندق،وبأدب جم إستأذن فى أن أقوم بركن سيارتى فى مكان أخر،حيث أن المكان الذى ركنت فيه ،كان الفندق قد خصصه لسيارة أمير سعودى يستأجر طابقا كاملا أو طابقين من الأدوار العليا للفندق لسنوات متصلة . طبعا مصدر دخل هائل للفندق لايمكن تعويضه بثمن قهوة الاستاذ نجيب !!.وأستأذنت العبقرى لدقائق حتى أحرك سيارتى لمكان اخر. وأنا فى طريقى مع الموظف سألته قائلا :يعنى صاحب جائزة نوبل لا يستحق مكانا مخصصا له،مثل الأمير السعودى ؟!. وما إن حكيت للأستاذ نجيب ماقلته للموظف ،حتى أكفهر وجهه وصاح فى وجهى " ما تحرجنيش مع الموظفين "،ولم يهدأ إلا بعد أن أكدت له أن الموظف ضحك لأنه أدرك إننى كنت أهزر معه . والحقيقة المرة أننى لم اكن أهزر !،ولكن كنت أتكلم بمنتهى الجدية مع الموظف ،الذى كان محرجا ومقتنعا كما يبدو بمنطقى، ولكنه كان ينفذ أوامر رؤساؤه .

وأيضا فى جلستنا الخاصة أخبرنى العبقرى بأنه قد عرف أن الحكومة المصرية أهملت تماما زيارة الأميرة ديانا لمصر فى أغسطس عام ١٩٩٢،بل وعاملتها معاملة سيئة ،لأن الحكومة البريطانية لم تحسن إستقبال السيدة سوزان مبارك فى زيارة سابقة لزيارة ديانا !!.وأبدى نجيب محفوظ إستغرابه قائلا وهو يبتسم، : "وهى ذنبها إيه ؟!،مايصحش.".

وبعد وفاة الأميرة ديانا عام ١٩٩٧ ،فى حادث سيارة مع حبيبها المصرى "دودى الفايد " إبن الملياردير محمد الفايد ،سألت نجيب محفوظ فى ندوة المعادى عن رأيه فيما يردده محمد الفايد من أن الأمير فيليب زوج ملكة انجلترا هو الذى خطط مع المخابرات البريطانية حادث السيارة الذى أودى بحياة إبنه والأميرة ديانا ،حتى لا يتزوجا فيصبح زوج أم ملك

بريطانيا القادم مصريا مسلما . إبتسم نجيب محفوظ وهز رأسه بالنفى ،وقال أحد الحاضرين أنه لا يوجد دلائل أن المخابرات هى التى دبرت الحادث ،فرددت قائلا لو أى مخابرات تركت دليل على فعلتها تكون مخابرات خايبه جدا ! وضحكنا جميعا ومعنا العبقرى .

ضحك نجيب محفوظ عندما أخبرته يوما ، بندوة قصر النيل ،بعنوان طريف لمقالة نقدية للناقد السينمائى سامى السلامونى. وكان السلامونى من ضمن مجموعة من نقاد السينما المحترمين فى الستينات والسبعينات من القرن الماضى .وكانت المقالة بعنوان " مفاجأة ..فيلم جيد لحسن الإمام !" وكان الفيلم الذى يقصده هو "السكرية " وهو الفيلم الثالث والأخير فى ثلاثية نجيب محفوظ .فقبلها كان فيلم "بين القصرين " ثم فيلم "قصر الشوق " والثلاثة من إخراج حسن الامام . والحقيقة أنه فعلا وكما كتب بحق الناقد سامى السلامونى أن فيلم السكرية كان مفاجأة من المخرج حسن الإمام. فهو فيلم معبر عن واقع الكتاب كما كتبه نجيب محفوظ .أما فيلم بين القصرين وفيلم قصر الشوق، فبالرغم من نجاحهما الساحق على المستوى الجماهيرى،إلا أنهما فى رأى عشاق فن نجيب محفوظ ،وأنا منهم ، لم نشعر أبدا بأنهما فى نفس مستوى كتاباته. أما بالنسبة للعبقرى صاحب الرواية ،فطبعا ليس من اللائق أن ينقد مخرج سينمائى أوصل فن محفوظ على الشاشة لملايين المصريين والعرب الذين لا يقرأون أصلا لنجيب محفوظ أو غيره !. هكذا عرفنا بعد أن نضجنا بما فيه الكفاية لنفهم العبقرى نجيب محفوظ ،ودهاؤه فى تسويق فنه العظيم . كما أنه ،واحقاقا للحق ، ظلت لقطات مظاهرات ثورة ١٩١٩التى صورها حسن الإمام فى فيلمه "بين القصرين"،هى اللقطات التى إستعان بها كثير من المخرجين زملاؤه فى تصوير أفلامهم عن نفس الفترة.

إحساسه بعبقريته

قرأت مرة على حاضرى الندوة فى كازينو قصر النيل مقالة من مقالات العبقرى بجريدة الاهرام كنت قد أعجبت بها جدا لأنها تشخص بعبقرية كل عيوبنا كمصريين وهى العيوب التى تحول بيننا وبين الوصول إلى ما وصلت إليه دول الحضارة الحديثة وكانت بعنوان " الوعى المنشود " بتاريخ ١٠/٢٩ /١٩٨٧ فكتب يقول :

" مشكلاتنا المتحدية من نوع يمكن أن نسميه بمشكلات الولادة. فالقوانين التى تثقل تقدمنا الديمقراطى. وعجزنا عن توفير الغذاء والمأوى للسكان وما يهدد شبابنا من ضعف التعليم والتربية وإيجاد فرص العمل المبدع والأجر الكافى وتلوث أجوائنا وقذارة مدننا وفساد الإدارة والذمم وعدم سيادة القانون ووهن الإنتماء. كل أولئك وغيره أعراض لمرض ولادة غير سليمة .ولادتنا من العدم أو ما يشبهه الى الوجود. مجرد الوجود . أما مشكلتنا الأساسية فهى مشكلة حضارية . هى التخلف عن العصر فى جملة نواحيه الإقتصادية والإجتماعية والثقافية . هذا التخلف الذى يقضى علينا بأن نكون تابعين للأمم المتطورة فى كل شىء من اللقمة وحتى الذوق رغم خصوصيته . دائما يرعبنا القهر والجوع ويرين علينا الهوان والإغتراب . ولعله يلزمنا أول ما يلزمنا أن نشعر شعورا عميقا بمأساتنا . شعورا يجب أن يؤرق ضمائرنا ويتعس وجداننا وينفذ بألامه الى نخاع عظامنا . وعلى ذلك الشعور أن ينتشر فلا يعفى من أثاره كبيرا أو صغيرا رجلا أو إمرأة حتى نأمل فى ثورة على الواقع والوثوب الى تغييره بكل ما نملك من إدارة وعقل ورغبة فى الحياة السامية . لا يهم الوقت الذى ينقضى لنبلغ ما نريد .ولا طول الطرق التى علينا نطويها . المهم أن نعايش النضال والعمل ساعة بعد أخرى ويوما بعد يوم . ومهما يكن من أمر فالإنسان المناضل أفضل من المستسلم اليائس . والعامل خير من فاقد الوعى . علينا أن نمتلىء بالوعى وأن نتشرب طاقة العمل وأن نتحرر من الأنظمة المكبلة للعقول والأرواح . وأن نتحدى الزمن الذى

سقطنا فى قعره نتيجة للسهو أو الخمول . وليكن فى علمنا أننا إذا لم ننطلق بقوة من داخلنا فلن يمد لنا أحد يده . وإذا لم ندفع الموت بهمتنا فلن يبكينا إنسان . ولن ننال فى النهاية إلا ما نستحق .وما القدر فى أغلب أحواله إلا المصير الذى نكتبه بأيدينا.".

ياللعبقرية حتى فى كتابة مقال !!. تأمل العمق فى وصف العيوب ،ثم العمق فى وصف الحلول ،ثم الخاتمة العبقرية التى كثيرا ما رددتها فى حضوره :"..وفى النهاية لن ننال إلا ما نستحق.وما القدر فى أغلب أحواله إلا المصير الذى نخطه بأيدينا ".

كان العبقرى يمتلىء بالإنفعالات،وتشعر بإضطرابه ،إذا ما قرأ أحد فى الندوة مقالا له أو قصة قصيرة نشرها . ،وأنا اتذكر عندما أتى للندوة فى قصر النيل، الأديب سعيد الكفراوى ،وهو لا يمت لى بأى صلة قرابة ،وقرأ علينا وعلى نجيب محفوظ ،من الذاكرة، قصة قصيرة جدا نشرها العبقرى، كانت على ما أتذكر، عن إنسان دخل غرفة وعندما خرج منها من باب أخر كان الزمن قد مر على حياته كلها وخرج عجوزا!. وأتذكر أن نجيب محفوظ ،وهو يستمع إلى قصته بصوت سعيد الكفراوى،كان الإضطراب واضحا عليه ،وأشعل سيجارته وهو فى غاية الإنفعال . وتسألت وقتها، بينى وبين نفسى، ياترى ماهى الأفكار والإنفعالات التى تمر بخاطر عبقرى مثله عندما يستمع إلى عمل من أعماله ؟.والحقيقة أننى لم أسأله ابدا عن شعوره هذا ، ولا أعتقد أنه كان يمكنه إعطائى اجابة واضحه عن سؤال كهذا .

وفى الندوة الخاصة بهيلتون رمسيس ،إشتكى العبقرى بمرارة من الأستاذ فاروق شوشة .وأصل الحكاية أن الشاعر الرقيق فاروق شوشة كان له برنامج مشهور جدا فى التلفزيون المصرى إسمه " لغتنا الجميلة" وكان البرنامج يتناول القضايا الثقافية المعاصرة ،ويستضيف كبار الأدباء والنقاد لمناقشتها ،وكان صوت فاروق شوشة مقدم البرنامج هادئا وأسئلته لضيوفه عميقة ومحترمة .بإختصار كان برنامجا رائعا .وزاد من روعة

البرنامج المقدمة التى يظهر فيها صور كبار العمالقة ،طه حسين والعقاد وزكى نجيب محمود ونجيب محفوظ وعبد الرحمن الشرقاوى ،ويصاحب عرض الصور موسيقى خلابة . وفجأة إختفت صور هؤلاء الكبار من مقدمة البرنامج !. وعندما سألت نجيب محفوظ ،إن كان على علم بهذا وما السبب ؟. وجدته يشتاط غضبا شارحا لى أن واحدا من هؤلاء العمالقة،(قد يكون عبد الرحمن الشرقاوى)وكان مازال على قيد الحياة، ظهر فى برنامج إذاعى،وعندما سئل عن الشعراء الذين يحب أعمالهم ، ذكر عدة أسماء ليس من بينها فاروق شوشة. فغضب فاروق عليه ،وطبعا لم يكن يستطع أن يزيح صورة هذا العملاق فقط ،فأزاح صورهم جميعا !! وقال نجيب محفوظ بغضب شديد،"هو فاكر نفسه إيه إبن ال..؟!!"ولم يكمل.

تربع العبقرى على القمة طويلا ،قمة الفن وقمة الرواية وقمة الشهرة ،وإنشغال وسائل الاعلام من صحافة وإذاعة وتلفزيون بالحديث معه وعنه ،لابد وأن جعله يشعر، مهما كان تواضعه، بمشاعر الزهو والتفرد،وقد أحسست بذلك يوما فى جلستنا الخاصة بهيلتون رمسيس .فعندما تساءلت عن سر إهتمام وسائل الإعلام بمسلسل أو فيلم تلفزيونى إسمه " حكايات الغريب " وكان على ما أتذكر رواية أو قصة قصيرة للأديب جمال الغيطانى ،إكتسى وجه العبقرى بملامح الضيق الشديد ورد قائلا "طبعا ماهمه شلة واحدة ياسيدى "! ولم أسأله يقصد من ؟! ولكنى كنت أعرف طبعا .ولست ادرى لماذا أحسست وقتها أن ضيق نجيب محفوظ كان لأن الاهتمام الإعلامى قد انتقل فجأة، ولو لأيام معدودة ، لعمل فنى لايخصه !. والحقيقة أيضا أن الأستاذ نجيب قد تأكد له ، بعد حصوله على نوبل ،أنه فعلا مستواه عالمى، ولا يوجد أدنى مقارنه بين فنه وبين فن أى مبدع مصرى أو عربى أخر فى أى مجال من مجالات الفنون المختلفه .وقد كان كل صحفى أجنبى،أمريكى أو ألمانى أو بريطانى أو يابانى يأتى لمقابلته يؤكد له،أثناء طرح أسئلته ثم بعد نشره لأحاديثه ،هذا الشعور بطريقة مباشرة أو غير مباشرة . وكان العبقرى يشرق وجهه بالسعادة الغامرة عندما يحكى لنا عن تعامل جاكلين كيندى معه، وهى الأميرة الغير متوجة

للشعب الامريكى حينذاك وزوجة الرئيس الأمريكى فى الستينات جون كيندى، وخطاباتها له بإعتبارها الناشر لأعماله فى امريكا . كنت تشعر بسعادته البالغة بوصول فنه إلى المكانة التى يستحقها.

أصدقاء بحق

بعد حادثة الأعتداء عليه فى شهر أكتوبر عام ١٩٩٤، والفترة الطويلة التى قضاها العبقرى فى المستشفى ثم فترة النقاهة فى منزله، نصحه الأطباء بأن يعاود الخروج من المنزل مع الأصدقاء حتى يسترد صحته الجسدية والنفسية . وفى ذات مرة وأثناء سؤالى على صحة الأستاذ هاتفيا ، إلتقط الأستاذ جمال الغيطانى سماعة الهاتف ،وكان يزور العبقرى وقتها، وحثنى على الخروج مرة أخرى مع الأستاذ ،لأنه كما ذكرت، لابد وأن يسترد نشاطه بقدر الإمكان .والحقيقة أننى أكبرت فى جمال الغيطانى هذه المكالمة لأن علاقتى به كانت سيئة بعد أن إشتبكنا كلاميا ،عندما حضر مرة ندوة قصر النيل، وكنت أشن هجوما مريرا على الناصرية فى ذكرى هزيمة ٥يونيو ،وطبعا تألم الأستاذ جمال لأنه ناصرى متعصب وغادر الندوة غاضبا وأنا أتابعه بصوت عال قائلا له "كل سنة وأنت طيب يااستاذ جمال " !.

وشدد الأمن على العبقرى أن يترك كازينو قصر النيل نهائيا لأنه صعب مراقبة مداخله ومخارجه ،وخصص له حارس دائم ، أمين شرطة مهذب ومحترم إسمه محمد ،وعربة حراسة مرافقة لسيارة الدكتور فتحى هاشم التى تقل الاستاذ نجيب. وأصبح العبقرى ،بعد إصابته الشديدة ثم تعافيه ، يخرج يوميا برفقة أصدقائه الذين توزعوا على مدار أيام الاسبوع .

أثناء وجود العبقرى فى المستشفى ، إعتقدت جريدة الشعب لسان حال حزب العمل ،وكان التيار الدينى قد سيطر عليها تماما ، بعد تحالف إبراهيم شكرى رئيس الحزب مع هذا التيار،ورأس تحريرها الأستاذ مجدى حسين. إعتقدت الجريدة أنها تستطيع أن تجهز على الاستاذ نجيب أدبيا ومعنويا ،فجعلت أحد محرريها المتطرفين يعرض بالعبقرى ويتهمه فى دينه،ويشرح لقراء الجريدة كيف أن رواية اولاد حارتنا هى رواية

تكفر بالله وبالأنبياء !!.ونجيب راقد فى المستشفى لا يملك دفعا ولا ردا لهذا الإتهام الخطير .ولكنى أعددت ردا قويا على هذا الاتهام مفندا كل حجج الكاتب المتطرف .وإذا بكاتب متطرف أخر يهاجمنى ويدعى أننى ونجيب بك من المنافقين،وأن الجميع يدرك أن أولاد حارتنا تعبر عن الكفر بالله والرسل !.وأعتقدت الجريدة بأنه بهذا المقال الثانى قد أفحمتنى ،وبدأت تعلن عن أن بعض أساتذة الشريعة الإسلامية بالأزهر سوف يكتب ،كل منهم على حده ،مقالا عن إحدى شخصيات الروايه ،رواية أولاد حارتنا، ليظهروا أنها تتكلم عن الأنبياء بالسوء. ولكن الله ألهمنى فكتبت ردا ثانيا أقوى من الأول تحت عنوان " أولاد حارتنا تعبر عن الكفاح ضد الإستبداد"، فندت فيها كل نقطة أثارها الصحفى المتطرف كلمة كلمة وعبارة عبارة .وأنهيت المقال بالتالى : " نجيب محفوظ شرفنا فعلا كمسلمين وعرب ومصريين ،فليحفظه الله لنا من الإرهاب والإرهابيين ،اللهم أمين ". وبعدها مباشرة إنقطعت تماما كل المقالات التى كانت جريدة الشعب تنوى نشرها بأقلام أساتذة الازهر !. وللحق ،فإن الأستاذ محمد القدوسى المشرف على صفحة الأدب بجريدة الشعب ،سمح بنشر الردين اللذين كتبتهما بدون أى حذف،وبموافقة الأستاذ مجدى حسين رئيس التحرير حينذاك .

عاد العبقرى بالتدريج إلى نشاطه ،ولكن سمعه وبصره لم يعودا لسابق عهدهما ، وكما ذكرت، توزع أصدقاؤه على مدار الإسبوع فى ندوات يومية ،وكان إختيارى يومى الأحد والأربعاء، ،يوم الأحد فى فندق شبرد بجاردن سيتى، ويوم الأربعاء فى فندق سوفتيل بالمعادى.وعندما بدأت ندوة يوم الأحد فى فندق شبرد ،كنا نجتمع حول مائدة فى ألتراس المطل على الكافيه الأرضى ،وبعد فترة نقلتنا إدارة الفندق إلى قاعة داخلية خاصة بالبار!. أما فى فندق سوفتيل المعادى فقد كانت الندوة دائما فى قاعة مغلقة علينا . وبدأت مهمتى الأخرى التى أخذتها على عاتقى وهى أن أجلس بجوار أذنه اليسرى التى مازال يستطيع أن يسمع بها جيدا ،لكى أخبره بأهم الأحداث السياسية والاجتماعية والفنية التى تحدث فى

مصروالعالم ،ثم أنقل له أراء الحضور .وعندما بدأ بعض زملاء الندوة فى قراءة إنتاجهم الأدبى للأستاذ نجيب ،تعمدت أن أحضر متأخرا ساعة حتى ينتهوا من قراءة ما يريدون.

أديب عبقرى وسياسى برىء

عندما هاجت الجماعات الإسلامية على نجيب محفوظ بعد حصوله على جائزة نوبل للأداب، لأنها عرفت أن من حيثيات الجائزة رواية أولاد حارتنا بجانب روايات اخرى ،حكى لنا العبقرى أن ضابط بوليس، لا أتذكر رتبته، من مباحث أمن الدولة، جاء لزيارته فى المنزل ،وشرح له خطورة هذا الهياج وأن هناك تهديدات وخطر على حياته،ثم طلب منه أن يقبل بوضع حماية بوليسية له فى تحركاته .فرد الأستاذ نجيب بخفة دمه المعهودة قائلا للضابط ،بعد أن شكره على إهتمامه،أنه يتحرك كثيرا للدرجة التى قد تجعل أفراد الحماية ذاتهم، من تعبهم فى ملاحقته، يغتالونه بأيديهم !!.وضحك العبقرى وهو يحكى لنا هذه الواقعه وضحكنا معه. وإذا بمحاولة الإغتيال تحدث فعلا !.فبعد هذا الحوار بمدة، وفى يوم ١٤ أكتوبر عام ١٩٩٥ وبعد أن إستقل العبقرى سيارة الدكتور فتحى هاشم إستعدادا للقدوم للندوة،حاول إرهابى طعنه بسكين من النافذة ،ولولا أن نجيب محفوظ إنحنى للأمام ثوانى قبل أن يطعنه المجرم ،ولولا سرعة وحسن تصرف فتحى هاشم ،ورجوعه بسيارته للخلف بسرعة إلى مستشفى الشرطة المجاورة لمنزل نجيب محفوظ ،لكانت محاولة الأغتيال الدنيئة قد نجحت.

كنت أيامها قد أصبحت عضوا نشطا فى حزب الوفد وأكتب مقالات فى جريدة الوفد عن الديمقراطية والسياسة عموما .وكنت دائما أشاغب الأستاذ نجيب والكاتب المسرحى على سالم، عندما تحتد المناقشات السياسية معهما ،فأقول لهما أنهما أدباء وكتاب كبار فى الفن، ولكن السياسة شىء أخر . كنت اقول لهما هذا على سبيل الدعابة ،ولكن بعد محاولة الإغتيال التى حدثت نتيجة رفض الأستاذ نجيب محفوظ ،لنصيحة ضابط فى مباحث أمن الدولة،أصبحت أقولها بالفم المليان ،وهى أن ضابط مجهول فى مباحث أمن الدولة يفهم فى السياسة أكثر من أى أديب مهما علا شأنه !. وكنت أردد لنجيب محفوظ كلمات للكاتب الأمريكى ويليام

فوكنر " إن البراءة لا تكشف عن نفسها إلا فى وجود قوى الشر التى سرعان ما تلتهمها إلتهاما "! وقد كانت قوى الشر على وشك أن تلتهم الاستاذ نجيب البرىء سياسيا .هذا الحوار الذى دار بين ضابط مباحث أمن الدولة والأستاذ نجيب محفوظ ،وكيف تغلبت حنكة الضابط السياسية على عبقرية المدنى نجيب محفوظ الذى لم تنفعه عبقريته المدنية فى حماية نفسه ،فما بالك بوطن ؟!.

كان هذا الحوار، بالإضافة إلى المعايشة اليومية مع أعضاء حزب الوفد ،وأيضا القراءة المكثفة لتاريخ الشعب المصرى، من أهم الأسباب التى حولتنى تدريجيا من الثقة العمياء فى الديمقراطية -التى كنت مؤمنا تماما بأنها تصلح لكل الشعوب ولكل الازمان- إلى الواقعية السياسية ،والإدراك بأن القوات المسلحة وقوات الامن لا يمكن إغفال دورها فى قيادة شعب له تاريخ طويل ومؤلم كالشعب المصرى!. وكنت أردد بإستمرار أن فن ممارسة القوة ،الذى تتقنه القوات المسلحة وحدها هو فن ضرورى ولا غنى عنه لحماية الوطن. طبعا فى شعوب اخرى الامر يختلف ،فرونالد ريجان الممثل السينمائى وصل لسدة حكم امريكا ، وفاتسلاف هافيل الكاتب المسرحى وصل لسدة حكم تشيكوسلوفاكيا ،أما بخصوص الشعب المصرى فشىء أخرتماما .

عندما حدث الهجوم الإرهابى على برجى التجارة العالميين فى نيويورك بالولايات المتحده الأمريكيه فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١،قال لنا العبقرى فى ندوة شبرد أنه فور أن سمع بالحادث إعتقد أن اليابانيين هم المسؤلين عن هذا الهجوم إنتقاما منهم وردا على إلقاء أمريكا القنبلتين الذريتين على جزيرتى هيروشيما ونجازاكى اليابانيتين فى نهاية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥. وقد كتب نجيب محفوظ بعد أن علم بالحقيقة فى صندوقه الإسبوعى بجريدة الأهرام قائلا إن هذا الهجوم تستاهله أمريكا ردا على ظلمها المتواصل للعرب .وقد عارضته أنا ورضا هلال وتكلمنا ضد هذا الهجوم وعن جدواه وأستمع لنا العبقرى جيدا كعادته ولكنه صمت ولم يعلق أو يهز رأسه وهذه طريقته أحيانا عندما لا يقتنع بالرأى المثار أمامه

ولكن لحساسية الموضوع لا يريد أن يحدث ضجة أو شوشرة . والحقيقة أن ظلم أمريكا للعرب واضح لا شك فيه ،ولكن أسلوب الرد لا يكون بهذه الطريقة . هذا رأيى.

أمن العبقرى بالديمقراطية إلى اقصى درجة ،وكان لا يمانع فى إعطاء التيار الدينى الفرصة الكاملة لممارسة السياسة ودخول الإنتخابات .وكنت أرد قائلا له وللحضور أن العبقرى ،ربنا يديله الصحة ،ضعف نظره فلم يعد يتمتع بمشاهدة الأفلام ،وضعف سمعه فلم يعد يتمتع بسماع الموسيقى ،لذلك هو يردد مع عبد الحليم حافظ كلمات أغنيته الشهيرة جبار فيقول " زى غيرنا ماباع ،نبيع عهد الهوى وعهده ، زى قلبى ما ضاع ،تضيع كل القلوب بعده ،!" فهو،أى العبقرى ، لا مانع عنده أن يحرمنا من رؤية الأفلام، ولا يمانع من حرماننا من سماع الموسيقى ،طالما هو لم يعد يتمتع بهما ! كنت أقصد طبعا أن التيار الدينى إذا ما تولى الحكم فسوف يتم حرماننا ، إما عاجلا أو بعد حين ، من سماع الموسيقى ومشاهدة الأفلام ،وكان العبقرى يستمع لرأيى مبتسما ،وأعتقد أنه كان يدرك أنه مسموح فى الحوارات السياسية ببعض الخشونة فى الألفاظ .

كان نجيب محفوظ عندما يندمج فى شرح أحوال الشعب المصرى قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ والصدام بين سياسيين يعتبرهم ديكتاتوريين أو معادين للوفد أومن مؤيدى القصر، كان يقول" فلان كان يستحق أن يقتل ، أوفلان لم يكن يستحق أن يغتال .. وهكذا ،مما جعلنى أدرك أن كل جيل له قيمه وعاداته سواء إجتماعية أو سياسية. فأيام شباب العبقرى كانت الاغتيالات السياسية تؤخذ ببساطة ، لذلك ايضا كان تعذيب العهد الناصرى لخصومه السياسيين من سمات هذه الأزمان. فقلت له مرة" يانجيب بك إنت مزاجك دموى شوية" فأبتسم وهو محرج ولم يعلق.

وطنى حتى النخاع

كان العبقرى مثل معظم المصريين يعشق يوم ٦ أكتوبر من كل عام .وأتذكر فى سنة من السنوات ،إحتفل حسنى مبارك بكل قيادات حرب أكتوبر فى إحتفالية كبرى بقاعة من القاعات ،وخطب الرئيس مبارك خطبة قوية ،وأثناء الخطبة كان يتوقف بعد كل فتره ليشيد بقيادة من القيادات ،بطريقة غاية فى القوة والشموخ،ويمنحها وساما ، وكانت القاعة تصفق كالرعد كلما ذكر إسم قيادة وماذا فعلت فى حرب اكتوبر المجيدة ،قائد المشاة وقائد المدفعية وقائد المدرعات وقائد قوات الصاعقة وقيادات البحرية وغيرهم . ودخلت الغرفة المخصصة لندوة الأستاذ نجيب فى فندق سوفتيل بالمعادى،وأنا فى غاية الانفعال، وجلست بجانبه وأخذت أشرح له بالتفصيل أجواء الإحتفالية وأحداثها، وإذا بنجيب محفوظ ينفعل مع شرحى،ويبلغ الحماس به إلى أنه كان ،بعد كل فقرة تكريم أرويها له ،يخبط على فخذه بحماس منقطع النظير،وهو يعلى صوته قائلا بسعادة بالغة "ياسلام " .شاهدت ليلتها نجيب محفوظ وهو فى قمة سعادته بذكريات حرب أكتوبر ،شاهدت نجيب محفوظ الوطنى حتى النخاع كما لم أشاهده من قبل!.

وأتذكر يوم ٢٥ يناير فى سنة من السنوات ،وكنا فى ندوة شبرد ،وتحدث الأستاذ على سالم عن عيد الشرطة ،وكيف أن العشرات من رجال الشرطة قد أستشهدوا فى معركتهم الغير متكافئة مع القوات الإنجليزية فى الإسماعيلية ،نتيجة أمر من فؤاد سراج الدين باشا، والذى كان وزيرا للداخلية حينذاك،بأن يرفضوا الأوامر التى صدرت لهم من القائد الانجليزى بتسليم أسلحتهم ،والخروج من القسم .وأعتبر الأستاذ على سالم أن هذا الأمرمن فؤاد سراج الدين للبوليس المصرى برفض الإستسلام ومحاربة الإنجليز،إنما هو أنانية وإنتهازية من الوزير، لأنه كان يدرك وهو يصدر الأمر أنه فى مأمن من أى سوء ، وأن هؤلاء الضباط والجنود تم التضحية بهم من أجل مجده هو. ولما نقلت إلى أذن العبقرى

وجهة نظر الأستاذ على سالم ،رد نجيب محفوظ بحسم ،أنه مهما حدث،ومهما أختلف الرأى فى هذا ، فقد سجل هذا اليوم فى التاريخ كيوم مجد وفخار للبوليس المصرى ،ولن يستطيع أحد أن يمحو أثره.

قاهرى بإمتياز

كان العبقرى قاهريا حتى النخاع .لم يتكلم فى خلال الخمسة والعشرين عاما تقريبا التى تشرفت بالجلوس بجواره ،ولا مرة واحدة عن الريف أو الفلاحين ولا الصعيد أو الصعايده بكلمه أو بوصف أو بحكاية !!. كان إهتمامه الأول والأخير بالقاهرة وأحياءها الشعبية التى عاش فيها ولها . وقلت له يوما فى ندوة قصر النيل أن القدر قد أنقذه وأنقذ فنه عندما ولد وعاش فى أحياء القاهرة ولم يعش فى الريف، وذكرت له عبارة بليغة للأديب الروسى "أنطون تشيكوف " فى رائعته المسرحية " الخال فانيا "يصف فيها أثر الحياة فى الأرياف على المثقف قائلا :" فى الغربة ،كانا الوحيدان المثقفان (الطبيب والخال فانيا) ،لكن الحياة الضيقة طوتهما بجهلها ،وأفسدت دماءهما بهوائها وأصبحا صغيرين حقيرين ". ولم يفتنى سؤالا خبيثا سألته للاستاذ نجيب ، بعدها بسنوات ،عما إذا كان يستمتع بأشعار صديقه الصعيدى الأشهر الأستاذ عبد الرحمن الابنودى ،فقطب محرجا وقال لا ! .ولا يعنى ذلك، التقليل من قيمة أشعار الأستاذ عبد الرحمن الابنودى بأى حال من الأحوال ،وإنما هو نجيب محفوظ صادقا مع نفسه لأقصى درجة ، فهو بالمعنى الحرفى للكلمة لا صلة له من قريب أو بعيد بالريف أو الصعيد ،فكل عصارة جهده وعقله وقلبه وفنه مركزة تركيزا هائلا فى قلب القاهرة بأحياءها الشعبية، بموظفيها وفتواتها وصعاليكها وبالتالى لا يوجد مساحة ولو قليلة لأى أماكن اخرى فى عقله ووجدانه. فشعوره طبيعى ألا يتأثر بالفنون التى تعبر عن الريف أوالصعيد مهما أرتقت أو تفوقت.

إنقلاب مفاجىء !

كما ذكرت ، العبقرى عندما يغضب أو يفرح ،كان يتصرف بالطريقة المحفوظية. وفى ندوة شبرد ،فوجئت يوما، وأنا جالس بجانبه كالمعتاد ،بالأستاذ نجيب يقول بصوت عال ،تعال ياأستاذ رضا هلال إجلس بجانبى ، ثم قال للحاضرين ،أهو جبتلكم راجل كويس .أدركت فورا أن العبقرى غاضب لأقصى درجة منى.ولكن بطريقته لم يقل لى السبب ،ولم أجرؤ أن أسأله ،فقط إمتثلت لرغبته ،وتركت مقعدى بجانبه للأستاذ رضا الله يرحمه ،وفى طريقه للجلوس بجانبه،سألنى رضا "إنت عملت ايه ؟ الظاهر واحد إداك ذنبه بضم ال"ذ"!. جلست بعيدا عن العبقرى ،وأستمر الحوار بينى وبين الحضور كالمعتاد،وسلمت عليه فى نهاية الندوة دون أن أعاتبه بكلمة واحدة . وفى الإسبوع التالى حضرت الندوة كالمعتاد ،وسلمت على العبقرى أيضا كالمعتاد ،ولكنى جلست بعيدا . وأستمر الحوار بين أعضاء الندوة وأنا اتحدث معهم ،إلى أن قال نجيب محفوظ بصوت عال " هو الكفراوى بيقول إيه ؟ " فأدركت وأدرك الجميع أنه قد هدأ وعفا عنى .ورجعت إلى مكانى المعتاد بجانبه. وإلى هذه اللحظة،لم أعرف سر غضب الأستاذ نجيب منى !.ولم أسأله ابدا .قد يكون فعلا واحدا إبن حلال إدانى ذنبه (بضم ال ذ)، ولكن يجب أن أعترف أيضا،أننى كنت كثيرا ما أكون قاسيا فى كلماتى فى الندوة ،لسبب ذكرته من قبل،وهو أن الناصريين والماركسيين كانوا أغلبية كاسحة فى مصر عموما وفى الندوات خصوصا. وكانوا معتادين على عدم وجود أى ليبرالى حولهم أو بينهم .لذلك كانت أية أراء ليبرالية أو ضد الناصرية ، تقابل بمقاومة عنيفة ،فكان الرد لابد وأن يكون بنفس العنف . وإحقاقا للحق لابد وأن أذكر أيضا أن هناك واقعة بينى وبين العبقرى قد تكون سببا فى تصرفه العنيف معى ، فبعد أن بدأ العبقرى يتماثل للشفاء ببطء من جراح محاولة الإغتيال الخسيسة، بدأ يخرج مع بعض زملاء الندوة الذين لديهم القدرة الغريزية والطبيعية على العناية به أثناء تعافيه البطىء . وقد علمت أنه كان ينام وهو جالس بينهم، فيلزمون الهدوء الكامل حتى يستيقظ .وكلها تصرفات لا

طاقة لى بها. وعندما بدأت أحضر ندوة شبرد ،وكان الأستاذ قد بدأ يسترد عافيته بدرجة كبيرة ،ظل عندى الهاجس من أنه قد ينهار أو يتعب فجأة بيننا ، إلى أن جاء يوم أحد وفوجئت بالعبقرى ،وبطريقته المحفوظية الجميلة ،يطلب منى أن أصطحب الشاعر والأديب نعيم صبرى ونأتى معا للخروج معه فى ندوة خاصة بجانب يوم الأحد . أى يريد أن نستأنف جلستنا الخاصة .طبعا شرف ما بعده شرف لى ولنعيم صبرى . ولكنى إرتعبت من مجرد الفكرة التى شرحتها من قبل، وهى الهاجس بأن يتعب الأستاذ فجأة ولا أستطيع إنقاذه !.،والحقيقة أننى إعتذرت للعبقرى بطريقة فجة ،عن تلبية رغبته فى الخروج .ويبدو أنه فوجىء برفضى هذا ،وأسرها فى نفسه . ولكن الحمد لله ،فى نهاية الأمر،عاد الأستاذ الى طبيعته معى لأنه أدرك قطعا أننى لا أفعل شيئا بنية سيئة ،وأن حبى وأحترامى له ولفنه ليس موضع شك أو تساؤل .

الموت فى حياة وروايات محفوظ

كان الأستاذ نجيب يعشق فن السينما ،وكنت قد إعتدت كلما شاهدت فيلما سينمائيا ذا قيمة ،أحكيه له فيعلق عليه بإسلوبه .وفى ندوة شبرد أتذكر أنى حكيت له فيلم أمريكى إسمه " المصارع " إنتاج عام ٢٠٠٠ عن قائد لأحد الجيوش فى عهد الإمبراطورية الرومانيه ،وكيف ساقه حظه العاثر أن يعتبره ولى عهد القيصر المتوفى، خطرا عليه فيتهمه بتهمة زائفة ويحكم عليه بالموت ،فيهرب ويتحول إلى أسير فى يد منظم لمباريات القتال الوحشية فى حلبات المصارعه فى روما عاصمة الإمبراطورية .المهم أنه بعد مدة أصبح اسطورة لدى زملائه من المصارعين وأصبحوا يثقون به ثقة عمياء لرجولته وبراعته فى القتال،وأصبحوا يعتبرونه قائدا فعليا لهم يطيعونه فى قتالهم حتى الموت مع المجموعات الأخرى من المصارعين. وبعد أن تعددت إنتصاراتهم وتغلبهم على منافسيهم ،أراد المشاهدون من علية الرومان أن يطلقوا عليهم حيوانات جائعه،حتى يستمتعوا اكثر!. وفى وسط الحلبه وقف بطل الفيلم المقاتل وحوله بقية المقاتلين منتظرين البوابات التى ستفتح. وبدأنا نحن مشاهدى الفيلم نستمع إلى زمجرة الحيوانات الجائعه (التى أتضح فيما بعد أنها نمور مفترسه) خلف البوابات ،وبدأ المصارعون تهتز ركبهم ويرتعدون خوفا مما سيطلق عليهم عندما تفتح بوابات الجحيم ،وهنا خطب فيهم المقاتل قائلا عبارة تجسد عظمة الإنسان وشجاعته أمام الخطوب :" ما دمنا جميعا يدا واحده وأنتم تقفون جنودا متراصة خلفى وتنفذون تعليماتى بالحرف، فمهما كان خلف هذه البوابات وأيا كانت قوته ،فسوف نهزمه وسنخرج ظافرين منتصرين " وقد كان !. وتحمست وأنا اقول للأستاذ "هذا هو موقف الإنسان ذى المعدن القوى عندما يريد أن يقهر أى صعاب وأى كارثة ". بعد أن إستمع إلى الروايه صامتا كعادته، وبعد أن إنتهيت ، نظر إلى الاستاذ، نظرة حزينه وهو يبتسم فى أسى قائلا " طيب والموت ياكفراوى ، مين يهزمه ؟!" وضحكت وأنا أنظر للأستاذ

نجيب،وأدعو له فى سرى بطول العمر،ولكنى تساءلت بينى وبين نفسى هل كان العبقرى يشعر بإقتراب العمر من نهايته ؟.

وقد ذكر نجيب محفوظ رأيه فى الموت فى إحدى أحاديثه الصحفية ،وطبعته مجلة الهلال فى أخر صفحة لها فى العدد الاول الذى أصدرته المجلة فى أول فبراير ١٩٧٠ تكريما للعبقرى، نقلا عن صحيفة لم تذكر إسمها .قال نجيب محفوظ : " الموت على المستوى العام ماهو إلا جزء من الحياة مثل بندول الساعة ، لكنه على المستوى الفردى أبشع مأساة يتصورها الخيال..إنه يجعل الحياة مهزلة لا أكثر ولا أقل !. لذلك أعود نفسى على أن أنظر إلى الموت وأفكر فيه على مستواه العام لا على مستواه الفردى..هذه هى وسيلة الإنتصار عليه !."وأنا أجزم عندما سألنى العبقرى عن الموت وكيفية هزيمته ، بعد أن انتهيت من رواية الفيلم ،أنه أى نجيب محفوظ ، لم يعد يفكر فيه على المستوى العام كما فى شبابه،وإنما أصبح ، مثل أى إنسان مدرك فى نهايات العمر، يعتبر الموت أبشع مأساة يتصورها الخيال ،ولولا إيمانه بالله سبحانه وتعالى وحكمته ،وأن الموت علينا حق، لفزع الإنسان ،وشله الرعب عن ممارسة الحياة ذاتها !.

ولابد هنا أن أذكر أن العبقرى يعتبر من أعظم الروائيين ، إن لم يكن أعظمهم ،الذين كتبوا عن حقيقة الموت وما يفعله بالإنسان .ولا يوجد أقسى ولا أبشع من أن يأتى الموت عن طريق القتل . تأمل وصف العبقرى للمقتول على لسان القاتل جعفر الراوى فى رواية "قلب الليل" فقال :..صورة وجهه لا يمكن أن تنسى،أعنى بعد أن غرست النصل الحاد فى عنقه، وجهه وهو ينطفىء هابطا إلى قرارة الظلمة ، وهو يتخلى عن المعركة ويستسلم للمجهول ، وهو يتخلى عن الجدل والذكاء والمجد وكل شىء ". يالعبقرية الوصف. كلمات معدودة ولكنها تشرح حياة بأكملها إختطفها الموت.

وفى رواية الحرافيش يشرح العبقرى الموت الطبيعى قائلا: " لن تنفعه القلعة والنبوت ،سيذوى بهاء هذا الجمال المتألق ،وستتقوض أعمدة هذه القوة الشامخه ،وسيرث المال قوم أخرون، وهم يغمزون ويسخرون ، وستعقب الإنتصارات الباهرة هزيمة أبدية "! ياللعبقرية . فلنتأمل الجملة الأخيرة :" وستعقب الإنتصارات الباهرة هزيمة أبدية " ،كلمات بسيطة تلخص حياة الإنسان ونهايتها الحتمية على مر العصور. كلمات لا يقولها إلا عبقرى روائى من الطراز النادر العظيم .

وفى الحرافيش أيضا يصف مشاعر "جلال عبد ربه" الذى يجسد حلم الانسان المستحيل فى الخلود وخوفه الفطرى من الموت فيقول :" رنا إلى الجثة المسجاة طويلا. طوى الغطاء عن الوجه.إنه ذكرى لا حقيقة.موجود وغير موجود. ساكن بعيد منفصل عنه ..غائص فى المجهول ،ثم ينفجر قائلا :نحن خالدون ولا نموت إلا بالضعف والخيانه . وعندما تقول له عشيقته :السعداء حقا من ينعمون بشيخوخة هادئة ،يرد بتحد : السعداء حقا من لا يعرفون الشيخوخة.

وفى رواية خان الخليلى عندما إندفع الشاب رشدى عاكف لينهل من ملذات الحياة غير عابىء بأية محاذير،إلى أن أصيب بداء السل ،وأصبح الموت قريبا منه وهو فى عز الشباب .تأمل كلمات العبقرى وهو يصف الحال :" إن الحياة تقطر حقيقتها فى أفواه المتأنين ، وتسكبها فى أفواه المتعجلين ". تعبيرات عبقرية موجزة. وأنا أكتب كثير من هذه العبارات من الذاكرة وبعد أن قرأتهم منذ عشرات السنين !.لأنها كلمات لا تنسى بحق .

والحقيقة المحزنة أن التركيز فى متابعة العلم وقراءة الفلسفة مع التأمل العميق للحياة ،تجعل أى مثقف يدرك مدى المعاناة التى يخوضها البشر فى هذه الحياة ،وتصبح العبارة الموجزة والمركزة للعبقرى فى رواية الحرافيش :" وتمضى الحياة بخير لا يذكر، وشر لا يحصى " هى خلاصة حياة البشر حتى اللحظة. " لقد خلقنا الإنسان فى كبد." صدق الله العظيم .

عندما يعجز العبقرى عن التعبير

وعندما كان العبقرى يعجب بقصة فيلم إلى أقصى درجة ولا يكون هناك أى تعليق يخطر على باله ،يضرب على فخذه بيده مكررا العبارة التى أعجبته فى الفيلم .ففى فيلم سينمائى أخر،حصل أيضا على جوائز للاوسكار وهى أعلى جائزة سينمائية فى الولايات المتحده الأمريكيه،وكان إسمه " نهر المستيك" إنتاج عام ٢٠٠٣،إستمع الأستاذ نجيب بإهتمام إلى قصة الفيلم وهى عبارة عن ثلاثة فتيان فى سن صغيرة جمعتهم الجيرة وأصبحوا أعز أصدقاء ثم فجأة تم إختطاف أحدهم من قبل رجال إغتصبوه ثم أعادوه الى أهله !. وكبر الثلاث أصدقاء ،أحدهم أصبح رجلا قويا ذا نفوذ وصلات ونشاطات شبه إجراميه فى المنطقة وثانيهم أصبح رجلا بوليسيا مسؤلا عن الأمن فى المنطقه ذاتها ،أما ثالثهم فقد تزوج ولكنه ظل تعيسا من جراء الأعتداء عليه جنسيا فى الصغر. وأعتاد الثالث أن يخرج أحيانا ليلا،ليهيم على وجهه عندما تزداد نفسيته سوء ويتذكر حادثة الأعتداء عليه . وفى ذات ليله خرج الثالث هائما ليجد رجلا يحاول الإعتداء على طفل جنسيا ،فإنقض عليه ،بكل مافى نفسه من غضب وكراهية متذكرا ما حدث له فى الماضى ،وظل يضرب الرجل المعتدى وكأنه هو الذى اغتصبه حتى قتله وأنقذ الصبى .ورجع عائدا الى بيته وزوجته وعلى يديه وملابسه أثار دماء حاول أن يخفيها عن زوجته ولكنها عثرت عليها .فى نفس التوقيت قتلت إبنة الصديق ذا النفوذ الإجرامى ،فجن جنونه وأطلق رجاله،رجال العصابات،للبحث عن قاتل إبنته . ولكن الصديق الذى أصبح ظابط مباحث هو الأخر أصبح مكلفا بالتحقيق فى مقتل إبنة صديقه رجل العصابات .توصل رجال العصابات إلى زوجة الصديق المعتدى عليه جنسيا والتى أخبرتهم أن زوجها عاد فى نفس الليلة وعلى قميصه أثار دماء !. إقتاد رجال العصابات الصديق القاتل إلى زعيمهم ،الذى أخذ يضغط على صديقه أن يخبره بالحقيقة ،وأن يعترف أنه قتل ابنته ، وإذا بالصديق المسكين الذى لم يقتل الفتاه ولكنه قتل رجلا معتديا جنسيا ،إذا به يشعر بأنه لن يستطيع التخلص من عقدته التى

حدثت له فى الصغر،وأنه أصبح تعيسا لدرجة أنه لم يعد يرغب فى الحياة ،فإذا به يعترف ،زورا ،بأنه هو الذى قتل إبنة صديقه !!. وبدون تردد قتل رجل العصابات صديقه القديم إنتقاما منه لإعتقاده أنه قاتل إبنته. وبعدها مباشرة فوجىء بصديقه ضابط المباحث قادما إليه ليبشره بالقبض على قاتل إبنته،وليسأله فى نفس الوقت عن سر إختفاء صديقهما الثالث.ورد رجل العصابات بهدوء منهيا الفيلم قائلا :" أشكرك على مجهودك فى القبض على قاتل إبنتى ،لكن ليتك جئت بدرى شويه !". وإذا بالأستاذ نجيب يخبط على فخذه بحماس شديد وهو يردد قائلا " كنت جيت بدرى شويه" دلالة على إنبهاره بحبكة الفيلم الكئيب الذى حصل على جوائزالأوسكار لأفضل تمثيل وأفضل إخراج وأفضل فيلم .

الحب فى حياة العبقرى

ومن الأحداث الطريفة التى حدثت فى ندوة فندق سوفتيل بالمعادى ،أن صديقى وهو عضو غير دائم بالندوة لهجرته ، المهندس سامى البحيرى كان قد اكتشف بالصدفة أن زوجته تنتمى لعائلة الشخصية الحقيقية لعايدة بطلة رواية الثلاثية ،والتى أحبها نجيب محفوظ بالفعل فى شبابه،وكتب عنها مصورا شخصيتها ومشاعره نحوها على صفحات الرواية !. وأحضر سامى عائلة زوجته للندوة فى الفندق للتعرف بالعبقرى ،وأخبرنى سامى بعدها، لأننى كنت غائبا يومها لظرف ما، بإن العبقرى كان سعيدا بالعائلة ،وأخذوا صورا تذكارية معه .وفاتنى أن أسأل نجيب محفوظ بعدها عن حقيقة مشاعره لدى رؤيته لأسرة محبوبته القديمه ، مشاعره الحقيقية وليس تلك التى أظهرها لهم فى الندوة !.وأذكر أنه فى مرة من المرات كان العبقرى يجلس بجانبى فى سيارتى إستعدادا للعودة إلى منزله بعد إنتهاء جلستنا الخاصة ، وجاء ذكر الحب وعذابه ، فوجدت الأستاذ وقد بان على وجهه فجأة ملامح إكتئاب، وكأنه تذكر مشاعرإنتابته فى الماضى ،ووجدته يقول بجدية شديدة :"هذا هو الثمن الذى يدفعه الإنسان عندما يحب وتعانده الظروف". والحقيقة أنه ما أكثر الاشياء التى كنت أود أن أسألها للعبقرى ،خاصة عن حياته الشخصية فى مراحله العمرية المختلفة ، ولكن لعن الله السياسة التى كانت تطغى بشراسة وبتلقائية على ندواته العامة وندوتنا الخاصة .ولا أعفى نفسى طبعا من المسؤلية عن ذلك ،فقد كنت فى ذروة إهتمامى بالسياسة، وكنت عضوا نشطا إلى أقصى درجة بحزب الوفد ،وكنت أكتب فى جريدته مقالات سياسية بصورة شبه منتظمة. والأن بعد أن غاب عنا نجيب محفوظ ،وأصبحت أفتقده من أعماق قلبى وعقلى ،أندم الأن ندما فظيعا على أننى لم أستغل الفرصة لكى أتعرف أكثر وأكثرعلى مشاعره الشخصية والحميمة تجاه كثير جدا من الأشياء والأحداث والأشخاص.

ومن الأحداث المفاجئة فى ندوة المعادى ،أن رجلا عجوزا جاء للندوة، وسلم على العبقرى ،وإذا به من المعارف القدامى له ،لأنه تكلم معه عن أحداث مشتركة بينهما من الماضى البعيد ،ولاحظت أن نجيب محفوظ لم يكن متحمسا للتحدث معه ،وكان واضحا أن الرجل ليست لديه إهتمامات أدبية أو فنية أوسياسية ، وإنما هو من معارفه أو من جيرانه . وفجأة وجدنا الرجل يسأل نجيب محفوظ لماذا لم يقبل بإبنه عريسا لإحدى بناته ؟!!. وذهلنا من جلافة الرجل أن يسأل هذا السؤال أمام الحضور !. ولكن الاستاذ نجيب رد عليه ببساطة وهدوء قائلا :" أنا ربيت بناتى على الإستقلالية ولا أفرض عليهم أحدا وهن أحرار" ثم أردف بحسم :" والموضوع ده محبش أتكلم فيه تانى " وسكت الرجل تماما ،وغادر الندوة بعدها بدقائق.

وسوف اذكر هنا كلمات أصف بها جزءا أصيلا من شخصية نجيب محفوظ قد يراها القارىء تقليدية وإنشائية من كثرة ما تكررت فى معظم السير والحكايات التى تروى عن الشخصيات المصرية المهمة والمشهورة فى معرض الإشادة بهم ،ولكن ما حدث بينى وبين الأستاذ نجيب فى حوار جانبى قصير جدا أكد لى أنه فعلا عاشق للشعب المصرى بكل كيانه.فقد كنت كما ذكرت أقرأ جرائد ومجلات يومية كثيره من أجل أن أنقل للعبقرى سواء فى ندوته العامة أو الخاصة أحدث أخبار مصر والعالم ،وبالذات بعد حادثة الأعتداء اللعينه التى أفقدته جزءا كبيرا من طاقته على القراءة والمشاهدة . وكنا جميعا فى الندوة وكما هى العادة فى الجلسات الجماعية تكون الاحاديث أكثريتها مركزة على نقد سلبيات المجتمع المتخلف . والظاهر أننى ركزت وبطريقة جيدة للغاية على المقالات والأحداث التى توضح مدى تخلف الشعب الغلبان، وفجأة، والجميع مشغولون بأحاديث جانبية ،وأنا اقرأ للأستاذ نجيب حادثة توضح مدى الإنحدار الذى حدث فى المجتمع وإذا به ينظر إلى بإمعان وفى صوته نبرة رجاء لم أسمعها منه أبدا قائلا :"من فضلك ياكفراوى بلاش الأخبار دى " . وذهلت من النبرة ومن الكلمات ! وتوقفت على الفور، وجاء

الخاطر الصحيح فورا إلى ذهنى، هذا العملاق لا يمكن أن يكتب بهذه الروعة ويغوص فى اعماق المجتمع والمناطق الشعبية ليخرج منها لألئا وكنوزا أدبية إلا اذا كان عاشقا بحق وبدون أى افتعال لهذا الشعب الذى يكتب عنه ولا يطيق أن يستمع إلى حقائق قد تهز الصورة والعشق الذى يحمله له فى وجدانه !. ولا أنسى ابدا ،وفى ندوة المعادى عندما سأله المهندس سامى البحيرى ،وقد كان مهاجرا للولايات المتحده، إذا ماكان يوما ما قد فكر فى الهجرة هو وعائلته ،ورد العبقرى على الفور : أهاجر ؟!! أهاجر ليه ؟!.كان مذهولا أن يطرح عليه أحد هذا السؤال !.

نفور طبيعى من الإسفاف

سألت نجيب محفوظ ،فى ندوة المعادى ،كيف أصبح على ماهو عليه الأن من أخلاق رفيعة وجميلة ؟ رد الدكتور زكى سالم قائلا أنه سأل الأستاذ نجيب نفس السؤال من قبل .إبتسم الأستاذ بخجل دون أن يرد، وقلت فى نفسى أنه بالقراءة ،وقراءة كتب الفلسفة بالذات،فكثير من الفلاسفة الكبار وعلى رأسهم الفليسوف الالمانى"إيمانويل كنت" أمنوا إيمانا عميقا بأن الاخلاق هى أساس الإنسان السوى ،وأن على الإنسان أن يكون ذو خلق فى كل خطوة يخطوها بصرف النظر عن أى مردود دنيوى أو دينى. وقطعا تطوير النفس المستمر، كما أن التربية فى الصغرعليهما معول كبير، وأنه لابد وأن عائلته قد أحسنت تربيته !.

كان العبقرى يكره من أعماق قلبه الإسفاف والشتيمة فى الحوار أو الكتابة. وأتذكر يوم أتى الأستاذ مكرم محمد أحمد، ،ندوة الأحد بشبرد لكى يرجو نجيب محفوظ أن يسعى لدى صديقه الأديب ثروت أباظه ليعفو عن الصحفى جمال فهمى. والحكاية أن الأستاذ جمال فهمى ناصرى متعصب ،وكان الأستاذ ثروت أاباظة لا يخفى فى كتاباته وأرائه المنشورة كراهيته لكل ما تمثله الفترة الناصرية. فكتب جمال فهمى فى جريدة العربى الناصرى،على ماأتذكر،مقالا كله تهجم على الأستاذ ثروت ،ناعتا إياه ب" الملظلظ الذى يود أن يجلسه على حجره " !،وباقى المقال على هذا المنوال. رفع الأستاذ ثروت قضية قذف وسب وكسبها ،وتم الحكم بالسجن ستة اشهرعلى جمال فهمى .وجاء كما قلت الأستاذ مكرم ،وكان نقيبا للصحفيين وقتها، لكى يوسط نجيب محفوظ عند صديقه ثروت اباظة لكى يعفو عن جمال فهمى ويتصالح معه. طلب الأستاذ أن يستمع إلى المقال المذكور، وما أن إستمع إلى كلمة " الملظلظ "،حتى ظهر على وجهه الإشمئزاز وصاح قائلا بس..بس ،ورفض تماما التوسط فى هذا الامر.

مثال أخر على أن العبقرى يكره كل اشكال الإسفاف .كانت قد حدثت واقعة الإعتداء الجسدى على الأستاذ عبد الحليم قنديل،الكاتب الناصرى المعروف ،والظاهر أن اعضاء إحدى الندوات الاخرى ،كانوا قد حكوا لنجيب محفوظ هذه الواقعة ،وفسروها له بأن الاستاذ قنديل تم الاعتداء عليه بأمر من حسنى مبارك،بسبب هجوم عبد الحليم قنديل المستمر والعنيف على رئاسة مبارك وشخصيته .تعاطف العبقرى فى بادىء الأمر مع عبد الحليم قنديل . أوضحت للأستاذ نجيب ،أنه بالرغم من هجوم قنديل المستمرعلى مبارك ،إلا أن مبارك برىء من ضربه .وشرحت له حقيقة ماأعتقد أنه حدث.فالأستاذ قنديل كتب فى جريدة معارضة،لا أتذكر إن كانت جريدة العربى الناصرى أو الشعب، كتب يقول أن وزير الداخلية الحبيب العادلى تزوج طليقة رجل الأعمال المليارديرالسعد حتى يحصل على أموالها ،وبالتالى يكون قد إمتلك الأموال بجانب السلطة والنفوذ ! وقلت للعبقرى أن وزير الداخلية رد على الإهانة ،بالطريقة الوحيدة المتاحة له ،وأن حرية الكلمة ليس معناها أن أستعمل قوة قلمى فى إهانة البشر،وإلا عندئذ يكون لهم كل الحق فى إهانتى بالطريقة التى يعرفونها .وأننا لنا كل الحق فى نقد المسؤليين ،ولكن بدون إقحام الزوجات أوالخوض فى الأعراض. ورد نجيب محفوظ بصوت كالرعد،وقد أثار إشمئزازه وغضبه ما سمعه : " الموضوع كده إتغير خالص "، ثم كررها بصوت عال مرة أخرى،لكى يسمعها الجميع وهو ذاهب إلى دورة المياه مستندا على الدكتور فتحى هاشم :" الموضوع كده إتغير خالص " .والظاهر كما ذكرت أن العبقرى عندما إستمع إلى هذه الواقعة سابقا إستنكر التعدى على عبد الحليم قنديل ،لذلك حرص بصوت عال أن يخبر الجميع، أنه الأن،بعد أن إستمع الى الوقائع الصحيحة،تفهم ما حدث ووضعه فى إطاره الصحيح ،فقد إعتبر أن المساس بالعلاقات الزوجية على صفحات جريدة أكثر بشاعة من أى اعتداء جسدى ،أو هو يستحق أن يعاقب مرتكبه بالإعتداء الجسدى !.

وأذكرهنا مرة اخرى،أن الأستاذ نجيب كان محافظا تماما فيما يتعلق بتفاصيل الجنس فى الروايات ولا يأتى ذكر الجنس أبدا على لسان بطلاته، كما تعود أحيانا الأدباء الغربيون ،وإنما لا مانع عنده من ذكر التعليقات أو القفشات الجنسية على ألسنة أبطال رواياته من الرجال !.وأتذكر،فى ندوة شبرد،أعطانى الأديب الشاب أحمد سعيد ،قصة قصيرة من تأليفه عبارة عن صفحة واحدة ،لقراءتها للعبقرى،يصف فيها على لسان شابة مصرية،مشاعرها الأنثوية عندما تأتيها الدورة الشهرية ،بطريقة صريحة إلى أقصى درجة،كما إعتاد أدباء الغرب. ضحكت إمرأتان شابتان فى الندوة عند قرائتى لأول عبارة ،ولكن العبقرى إنتفض قائلا "لا..مش سامع..مش سامع" بطريقة رفض واضحة. فتوقفت عن القراءة ، وأبتسمنا جميعا من رد فعل نجيب محفوظ ،بما فينا أحمد سعيد نفسه،الذى تفهم الموقف،فهو من جيل ونجيب محفوظ من جيل أخر، من عمر والده أو جده !.

أراء فى الفن والحياة والإغتيالات !

سألت نجيب محفوظ ،فى ندوة الاربعاء بفندق سوفتيل عن أعظم موسيقى مصرى فى رأيه ،فرد قائلا،بعد تفكير ، سيد درويش.وعن أعظم فنان كوميدى ،أجاب بسرعة،نجيب الريحانى. وقد سألته،كيف توفى ؟ فرد قائلا أن نجيب الريحانى كان قد مرض بالتيفويد ،وكان علاج المرض قد أكتشف حديثا ،ووصلت عبوة من الدواء للفنان الريحانى،وكان خوفه من المرض قد وصل أقصاه، فأبتلع حبوب العبوة كلها على مرة واحده فعجلت بوفاته.

كنت من المعجبين بالنقد السينمائى للدكتور رفيق الصبان ،وعندما أبديت للأستاذ نجيب محفوظ هذا الرأى فى ندوتنا الخاصة بهيلتون رمسيس ،رد ببساطة أن هناك ناقدا سينمائيا أفضل.سألته :من ؟ رد قائلا : سمير فريد . وكما ذكرت من قبل كان العبقرى يقول رأيه ببساطة وصدق فى الأدباء والنقاد وغيرهم من المشتغلين بالفن. وعندما أبديت دهشتى مرة من تفاهة ردود وتعليقات نجم سينمائى لا أتذكر إسمه الأن فى صحيفة أو مجلة ما ،رد نجيب على قائلا :الفنان الممثل أو الممثلة ممكن أن يكون عظيما فى تمثيله،ولكن فى الحياة الحقيقية قد تجد مخه أد كده ،ووضع طرفى إصبعيه على بعضهما البعض يقصد مخا صغيرا. طبعا هو تعامل مع عشرات الفنانين والفنانات من خلال السيناريوهات والروايات ورئاسة الرقابة الفنية ومؤسسة السينما .

فى إحدى ندوات سوفتيل بالمعادى، قال لنا العبقرى أن أمين الشرطة محمد، المخصص لحراسته داخل الندوة ،لديه بعض الخواطر الأدبية والإجتماعية التى يريد أن يقولها لنا ، ثم بلهجة قوية ،أعطى الأستاذ له أمرا " تعال يامحمد "،وأفسحت مكانى للأمين المهذب لكى يأخذ مكانه بجانب أذن الاستاذ اليسرى .وتكلم الأمين محمد عن مشاعره كأنسان له أفكار وأحاسيس،خارج نطاق خدمته .

وقد حضر ندوة المعادى مرة أو مرات معدودة ، على ما أتذكر،الكاتب خيرى شلبى والكاتب إبراهيم عيسى والكاتبة ليلى الراعى إبنة الناقد الكبير على الراعى والكاتبة نعمات البحيرى والممثلة ندى بسيونى .هذا بجانب اعضاء الندوة الدائمين نعيم صبرى وزكى سالم وعلى سالم وعزيزة الياسرجى وحسين عبد الجواد وطبيب الاطفال الدكتور محمود الشنوانى وطبيب التخدير الدكتور حسن حسنى وطبيبة علم النفس الدكتورة سعاد موسى وكاتب هذه السطور.

سأل أحد المتواجدين فى ندوة قصر النيل العبقرى ،بعد حصوله على الجائزة ،عما إذا كانت المقالات التنويرية الرائعة التى كان يكتبها الدكتور زكى نجيب محمود تعد نوعا من الفلسفة ، نفى الأستاذ نجيب هذا الأمر وبطريقته المحفوظية المعتادة ،فالدكتور زكى نجيب محمود أستاذ يدرس الفلسفة وهو مفكر محترم وتنويرى عظيم ولكنه لا يعد فليسوفا بأى حال من الأحوال.وطبعا كان نجيب محفوظ يتكلم من منطق من يعرف عن ماذا يتحدث، فقد كان من الأوائل على دفعته فى قسم الفلسفة بكلية الاداب. وقد ذكر الدكتور زكى نجيب نفسه أنه ليس فيلسوفا، وأن العالم العربى كله ليس به فيلسوف واحد، وأن الفلاسفة قليلون جدا فى العالم وعبر التاريخ ،وهذا حقيقى،فالفلاسفة مثل سقراط وأرسطو وافلاطون وديكارت وكانت وهيجل وغيرهم معدودين عبر التاريخ الانسانى كله.مثلهم مثل مؤلفى الموسيقى السيمفونية كبيتهوفن وموتزارت وشوبان وغيرهم فهم نادرون ،وكذلك عباقرة الروائيين كنجيب محفوظ وتولستوى وديستوفسكى وتشيكوف عبقرى القصة القصيرة ووليام فوكنر وهيمنجواى وطاغور وغيرهم معدودين جدا.

وقد كان العبقرى يضحك أو يبتسم عندما يهاجم الأستاذ مصطفى أبو النصر, وغيره، سياسات عبد الناصر ،وهى علامة على موافقته ،ولكن عندما أراد الأستاذ مصطفى ، بندوة قصر النيل، أن يصل بنقده إلى درجة نفى الزعامة عنه ،رد نجيب محفوظ بإجابة حاسمة وهو يعنيها "لا..لا..كان زعيما حقيقيا ". وهذه الموضوعية ،هذه النظرة النقدية التى

يمتاز بها العبقرى كانت لا شك من أسباب عمق وجمال رواياته، وهى مالفتت أنظار دول الحضارة الحديثة إليه وإلى فنه ،فمن الفروق الواضحة بيننا نحن الشرق المتخلف ،والغرب المتقدم ،هو أننا لايوجد لدينا الموضوعية ولا النظرة النقدية ،فنظرتنا لأى شىء وأى موضوع وأى إنسان هى إما أبيض أو أسود ولا وسطية ، فعندما نبغض إنسانا نجرده من أى صفة حميده ، وعندما نحبه نعبده !!.

أبديت إندهاشى لنجيب محفوظ فى شبرد من أن جريدة مصرية ،تعطى للصحفية سناء البيسى صفحة كاملة لتملأها ، وأن القارىء يستصعب متابعة ما تكتبه هى أو غيرها، إذا ما وجد أنه مضطر لقراءة صفحة كاملة ،فرد قائلا وبسرعة " كتاباتها كويسة "،وهكذا كان العبقرى حاسما عندما يعترض على رأى لا يعجبه أو يكون مؤمنا بغيره. لذلك كنت أتحاور معه وأنا منطلق دون تحفظ فى ذكر ما اؤمن به،وما أعترض عليه، لأنى مدرك تماما أنه سيوقفنى أو سيعترض على رأيى ولو حتى بصمت مكفهر إذا كان لا يوافق عليه أو لا يعجبه.

عند إغتيال بوضياف رئيس جمهورية الجزائر عام ١٩٩٢،وكانت الطبقة الحاكمة هناك قد إستدعته من مقر إقامته فى فرنسا والمغرب ، للعودة للجزائر كى يكون رئيسا لها بعد غياب سنوات وسنوات ، علق العبقرى على إغتياله قائلا : " الراجل بتاعنا (يقصد مبارك) عاقل ، مش زى بوضياف إللى عاد من المنفى للجزائر ليرفع شعار محاربة الفساد وبلده بيعوم على بحيرة من الفساد ،فتم التخلص منه سريعا ! ".

وكان العبقرى قد علق، فى سياق حديثه عن جاكلين كيندى التى كانت تملك حقوق توزيع كتبه فى انحاء أمريكا ، على إغتيال زوجها جون كينيدى رئيس الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٦٣ وأول رجل من الأقلية الكاثوليكية يتبوأ هذا المنصب الرفيع ، فقال العبقرى :هم (يقصد الأغلبية البروتستنتية الإنجيليه) الذين إنتخبوه ،وهم الذين قتلوه !"، فى تلميح قوى بأنه ،أى نجيب،لا يصدق أنه كان إغتيال فرديا،وإنما مؤامرة !.

تذكر أنك بشر

كان العبقرى محبا لتنظيم وقته حتى النهاية ،بما فيه الوقت المخصص لأصدقائه . وفى عيد ميلاده الأخيرفى الحادى عشر من ديسمبر،والذى صادف يوم الأحد ، يوم ندوة شبرد ، قررت أن أذهب متأخرا عن موعدى المعتاد ،وذلك لأننى توقعت أنه لابد وأن كثيرون من أصدقائه ومحبيه سوف يأتون بدون ميعاد سابق ،لتهنئته بعيد ميلاده .كما أننى توقعت أن مندوبى الصحافة والتليفزيون سوف يحضرون بالكاميرات ،وهذا ما حدث بالفعل . دخلت قاعة الندوة ،ووجدت الأعداد الكبيرة ،وكاميرات تلفزيونية موزعة فى أركان القاعة .كان موجودا الدكتور مصطفى الفقى ،والأستاذ إبراهيم المعلم ،وكان الكاتب الصحفى محمد سلماوى يجلس بجانب نجيب محفوظ.ولكن ما أن إتجهت للعبقرى لأحييه،حتى تعالت بعض الأصوات قائلة " إنت فين ياكفراوى ؟ا لأستاذ بيسأل عنك " .وقال لى الأستاذ إبراهيم المعلم ،"هو أنت المهندس الكفراوى ؟ ده الاستاذ بيسأل عنك". وما أن سلمت على العبقرى حتى بادرنى قائلا بضيق ظاهر "إنت فين ؟!"، وشعرت بفخر وإمتنان ،وأنتظرت فترة حوالى عشرة دقائق،ثم إستأذنت الأستاذ سلماوى، وجلست فى مكانى المعتاد بجانب أذن الاستاذ نجيب اليسرى. وأتذكر أننى قلت له ،أثناء إنشغال رواد الندوة بأحاديث جانبية ،قلت له " يانجيب بك، مع كل هذا الأهتمام من البشر،والصحافة المحلية والعالمية،ومع كل هذه الكاميرات الموزعة بإنحاء القاعة ، لابد أن نعاملك كما كان الرومان يعاملون عظماءهم من القواد العسكريين بعد عودتهم المظفرة من المعارك . فقد قرأنا أنه عندما كان يدخل أحد هؤلاء القواد روما عاصمة الإمبراطورية ،راكبا العربة الحربية ذات العجلات التى تجرها سلسلة طويلة من الجياد . كانوا يضعون بجانبه فى العربة ،رجلا مهمته أن يهمس فى أذن القائد العظيم ،وهو يلوح للجماهير الهادرة التى تحييه على جانبى الطريق، قائلا " تذكر أنك لست إلها، تذكر أنك بشر !".وذلك حتى لا يغتر هذا العظيم بهذه الجماهير التى تهتف بإسمه ،ويظل متواضعا

ودودا.وما أن إنتهيت من هذه الحكاية ،حتى التفت إلى نجيب محفوظ ،وعلى وجهه إبتسامته الجميلة الساحرة ،قائلا: " ماأنت بتقوم بالمهمة دى ياكفراوى ".وشعرت بسعادة غامرة ،وشرف ما بعده شرف.

فى نفس الندوة ،تكلم البعض عن إنتشارالتيارالدينى بشدة فى صفوف الشعب ،فى الجامعات والأحياء الخ بسبب محاصرة الدولة لحركة الأحزاب السياسية فى الشارع ، أو بسبب ضعف الأحزاب نفسها ،أو لعدم إقتناع الشعب بالحياة الحزبية اساسا !.المهم أننى إقترحت أنه طالما أن الوضع إذا إستمر بهذا الشكل سيجعل المتطرفين هم فقط الذين يذهبون لصناديق الاقتراع ،فيجب أن يسمح لأفراد القوات المسلحة بحق التصويت فى الإنتخابات .وأبتسم الأستاذ وقال لى بصوت خافت "إنت بكده هاتفتح أبواب الجحيم !". وصاح الدكتور هاشم أستاذ علم الجمال بجامعة حلوان من أخر الصالة قائلا "أنت فاشى ". وعندما إستأذن العبقرى بعدها ليذهب إلى دورة المياه مستندا على ذراع الدكتور فتحى هاشم ، تكلم الأستاذ محمد سلماوى قائلا للحضور" هذا الرأى،يقصد رأيى ، لا يعبر عن رأى الاستاذ نجيب "،وأبتسمت لأن الاستاذ سلماوى ، شعر أن من واجبه أن يحمى الأستاذ نجيب من أن يعتقد البعض أن هذا رأيه، وهذا ما أكبرته فى الأستاذ سلماوى وأبتسمت فى وجهه،دون أن أعلق وعذرته لأنه لم يدرك من الأساس أن ندوة الأحد بالذات هى ندوة الليبراليين ،بمعنى أن كل انسان فيها يعبر عن رأيه هو وليس رأى نجيب محفوظ ،وهو ما يدركه تماما أعضاء الندوة الدائمين.

حوارات معه حول مؤلفاته وغيرها

الروايات الأربع الكبرى وما تمثله

عندما تشرفت بمعرفة نجيب محفوظ معرفة شخصية ،كنت قد عرفته قبلها من خلال رواياته العظمى التى ربطت إسمه بمصر مباشرة ،ووضعته فى مكانة تولستوى وديكنز وبلزاك وفيكتورهوجو وهيمنجواى وغيرهم من عظماء روائى العالم بالنسبة لبلادهم. هذه الروايات هى التى تجذب القارىء فورا كدوامة لا قبل له بمقاومتها إلى بحر نجيب محفوظ المصرى بإمتياز. وهى تضع مصر فى مكانها الصحيح فى عقل القارىء ووجدانه ، كما تضع القارىء فى خضم الأفكار والنظريات العلمية والفلسفية والسياسية التى تجعله مواكبا لعصره. وبالتالى وأنا اتكلم مع نجيب محفوظ وأناقشه كأنى أتكلم وأتناقش مع روايات وأبطال "خان الخليلى" "وزقاق المدق" "وبداية ونهاية" و"الثلاثية بين القصريين وقصر الشوق والسكرية" ،هذه الروايات الأربع الكبرى بشخوصها قد أنصهروا جميعا فى شخص نجيب محفوظ ،فجعلته وكأنه متحدث بإسم مصر،والإنسان فى العالم كله. هذه الروايات تحلل وتصف وتشرح تاريخ مصر وأماكن عميقة فيها فى فترة عاصرناها وأخرى عاصرها أباءنا وأمهاتنا وأجدادنا ،كما تشرح وتحلل فى ذات الوقت تطور الفلسفة والعلم والسياسة فى العالم من خلال الأحداث والأفكار والشخصيات التى تذخر بها وبالتفاصيل الدقيقة ، وبفن عبقرى لا إفتعال فيه ،بحوارات سلسة معبرة وعميقة ،يضفى عليها المؤلف سحرا وروعة بتعليقاته التى تعكس قوة ثقافته الشاملة وحس السخرية والفكاهة التى يتميز بها. فلايكون هناك فيها مجال لأى غموض أوسؤال أو استفسار .وقد تناولها ،أى هذه الروايات ،كما قلت كبار نقاد الأدب وقت صدورها، أمثال رجاء النقاش ومحمود امين العالم وغالى شكرى وقبلهم الدكتور طه حسين بالنقد والتحليل ،وقرأناهم جميعا، بالإضافة إلى مرور زمن كبير بين كتابتها وبين توقيت معرفتنا الشخصية بالأستاذ ، وبالتالى كان الأمر محسوما ،ولم يعد هناك مجال واسع للنقاش مع العبقرى بشأن هذه الروايات الخالدة ،وإنما هى قابعة فى العقل الباطن للقارىء ولنجيب محفوظ ذاته

،وهى الأساس الذى بنى عليه العبقرى كل رواياته الهائلة والرائعة بعدها مثل السمان والخريف والطريق وثرثرة فوق النيل وميرامار واولاد حارتنا والمرايا والحرافيش وغيرها. كل الحوارات التى دارت مع العبقرى، سواء كانت خاصة برواياته ومجموعاته القصصية ،أو كانت خاصة بأحوال الوطن والعالم والكون ،إنما هى بطريقة خفية أو ظاهرة خرجت من رحم هذه الروايات الاربع الكبرى . وبالتالى سيجد قارىء هذا الكتاب أن معظم الحوارات مع العبقرى تتناول كتبه الأخرى .

بيت سىء السمعة

ضحك العبقرى من أعماقه عندما جلست بجانبه وأنا فى شدة الغيظ من برنامج إذاعى إستمعت إليه فى السيارة أثناء قدومى للندوة ،وكان البرنامج عن الولادة القيصرية للحوامل ،وبدأت المذيعة تأخذ أقوال كبار أطباء النساء والولادة فى مصر ورأيهم فى الولادة القيصرية .أجمع كل الأطباء فى البرنامج عن رفضهم تماما للولادة القيصرية ،حتى أن أحدهم قال للمذيعة أنه ما إن تطلب منه السيدة الحامل أن يولدها بعملية قيصرية حتى يطردها فورا من عيادته !. ولذهولى ،إنتهى البرنامج ،ولم تسأل المذيعة الذكية أيا من الأطباء الذين أستضافتهم ،لماذا يرفضون القيصرية ؟!! والأعجب أنه لم يخطر على بال أى من هؤلاء الأطباء الكبار أن يذكر للمستمع لماذا يرفض إجراء القيصرية ؟!!. وذكرت للأستاذ نجيب العبارة الرائعة للمفكر الإنجليزى صمويل جونسون : " الجحيم هو إنعدام المنطق "..وكما ذكرت ضحك الاستاذ من أعماقه ،وهى ضحكة يدرك عندها قائل الواقعة أنها قد مست العبقرى بقوة.

وقد رجعت إلى مجموعته " بيت سىء السمعة "التى أصدرها عام ١٩٦٥ " ففى قصة بعنوان"الصمت "، كان الجانب الفكاهى منها أن الطبيب الذى كان يولد زوجة فنان ممثل، أخذ يسأل الممثل عن أدواره وكيف يختارها الخ ،أثناء توليده الزوجة وهى تصرخ من الالم ،وزوجها الممثل يتألم لألمها ،والطبيب مستمر فى أسئلته للزوج المضطرب عن معنى السيناريو ؟! وهكذا استمرت الحوارات المثيرة للضحك بين الجراح المهتم بالفنان ومهنته والفنان المهتم بزوجته ومحنتها !.

وقد أخبرت العبقرى مرة بخصوص مجموعته وقصته التى تحمل إسم المجموعة " بيت سىء السمعة " أنه كان واضحا ليبراليته الاجتماعية فيها، حيث كتب ينتقد بيوت شارع الملوانى قائلا:" كل بيت ينطوى على نفسه كالسر، النساء عورة والحب حرام ، والزواج إجراء من إختصاص

الرجال ،والعروس أخر من يعلم ...".وابتسم العبقرى قائلا : الأحوال كانت كده. فرددت عليه قائلا : ومازالت كده يانجيب بك فى أنحاء كثيرة فى مصر !.

صباح الورد

دخلت على العبقرى صائحا بعد قراءتى لمجموعة " صباح الورد " : مش ممكن يانجيب بك هذا الكم الهائل من الشخصيات التى تنبض بالحياة ! هو مخك كومبيوتر ؟.وضحك الأستاذ فى سعادة قائلا عجبتك ؟ جميلة يانجيب بك. شخصيات كثيرة جدا وكلها تنبض بالشجن والأمال والمعاناة ومحاولة إقتناص السعادة التى قليلا ما تتحقق وللحظات ثم تختفى ليعود الكفاح الذى لا ينتهى إلا بالموت .والزمن ، ذلك الغول الذى يبتلع الجميع فى جوفه ،وكما نعرف جميعا أن الزمن هو البطل الذى يتكرر فى كل روايات نجيب محفوظ . ففى قصة "صباح الورد" التى هى فى ذات الوقت عنوان للمجموعة التى تحتوى على قصتين أخريتين ،كتب العبقرى عن "أل اسماعيل " و" أل مراد "و "أل القربى " و" أل الجمحى " و"أل مكى " و" أل قيسون "و" أل حسب الله وفرج " و" أل شكرى بهجت "و " أل السناوى " و" أل الفنجرى " و" أل الكاشف " و" أل ضرغام " و" أل العلوى "و " أل كناشة " و" أل عديلة الحرة " !!. ويضمهم جميعا شارع الرضوان . شىء مذهل ،كل هذه العائلات بأبنائهم بأقاربهم بمعارفهم تدب الحياة فيها وكأنهم يعيشون معنا وبيننا، ومع تدخل تعليقات العبقرى المليئة بالفلسفة والعلم والتاريخ والفكاهة يشعر القارىء أنه يشكل معهم ومع الوطن والكرة الارضية والكون كله وحدة واحدة لا تنفصم . (والحقيقة أن هذا التعليق ينطبق على معظم روايات العبقرى ،وهو سر عبقريته وعالميته).ويبدأ حكاياته عنهم بعبارة شديدة الفكاهة والعمق تلخص حقيقة ما يقرؤه ويسمعه الإنسان فى احيان كثيرة، وبالذات وسط الشعوب المتخلفة فيقول: " ..والعبرة فى النهاية بما يقال لا بما حدث ، ورب كذبة أصدق من حقيقة ،فإستمع إلى شارع الرضوان ولا تكن من المتشككين .". ثم تأتى النهاية فيتحدث العبقرى عن بطلة قصته الأولى " أم أحمد " تلك المرأة التى أصبحت همزة الوصل الباقية بين العباسية الشرقية والعباسية الغربية فيقول :" خطر لى ذات يوم أن أزور أم أحمد بعد انقطاع طويل .وجدتها فى بيتها مع إبنتها المحالة الى المعاش .كان

بصرها قد كف وقدرتها على الحركة قد ولت . ولما عرفتنى فتحت لى ذراعيها بحرارة وشوق ،ثم جلست على كرسى بجانب فراشها . لعل لسانها هو العضو الوحيد الذى بقى محافظا على حيويته . ورحنا نتذكر ونتذكر ونقلب صفحات الماضى البعيد والقريب . جلنا معا فى جنبات عالم حافل بالأموات ، ألا ما اكثر الراحلين ، كأن الوجوه لم تشرق بالسناء والسنى فى ظلمات الوجود وكأن الثغور لم ترقص بالضحك ،هاهى راوية الحكايات وطبيبة الحب والجنس والسعادة ملقاة على الفراش القديم تشكل عبئا يوميا على أقرب الناس إلى قلبها . وما قيمة الحكايات يأأم أحمد وهى تتكرر بصورة أو باخرى قبل أن تلقى نفس المصير .وقد عبرت الحارة من أولها لأخرها وأنغمست فى العطر القديم.رأيت قلعة أل سعادة مغلقة مهجورة كالبيت المسكون ، أما السرايات الأخرى فقد صارت إحداها مدرسة والثانية مستشفى ..وتنبثق من الماضى أصوات وألوان ونبضات قلب فأقول لها لقد جمعتنا هذه الحارة ذات يوم ثم فرقت بيننا الأيام ، فإلى اللقاء فى المقر الأخير.". ماهذا الشجن ياعبقرى ؟.

ليالى الف ليلة والجريمة والفأر النرويجى

إعتدت ،بين الحين والحين،أن أردد وبصوت عال وأمام الجميع، بعض عبارات عبقرية من روايات نجيب محفوظ تنطبق على أحداث تجرى فى الحياة أو تلخص ما يحدث فى المجتمع ، وكان العبقرى يضحك ضحكته المحفوظية الرائعة المليئة بالسعادة .وأتذكر مثالا عما أقول ،فى رواية" ليالى الف ليلة" ،كانت هناك إمرأة صارخة الجمال وأسمها "أنيس الجليس " تذهب بعقل أى رجل مهما كان .ودخلت على مكتب كاتم سر الحاكم ورجله القوى لتشكو له إنهم حرموها من الصدقة والزكاة التى تستحقها،وأنهار الرجل أمام جمالها الصارخ ،وأراد نجيب محفوظ ، ،أن يوضح مدى روعة جمالها وتأثيره على الرجل وما سيخلفه من كارثة على مستقبله ،كل هذا بعبارة واحدة ،فكتب يقول أنها عندما دخلت وجلست أمام الرجل المهيب ،قال لها الرجل،: "وهو يلقى بتاريخه من النافذه "،هاشوفك إمتى ؟! تأمل العبارة العبقرية :"وهو يلقى بتاريخه من النافذة ". ماضى الرجل وحاضره ومستقبله، لخصه نجيب محفوظ للقارىء فى جملة واحدة ، ياللعبقرية !.

ومثال أخر فى قصة قصيرة بعنوان الجريمة وهى من ضمن مجموعة قصصية رائعة كتبها العبقرى وعنوانها أيضا " الجريمة" عام ١٩٧٣حيث بطلها رجل من المباحث ومتخفى ليكشف عن جريمة حدثت فى حى من الأحياء ويفاجأ بأن جميع السكان متواطئون بصورة أو بأخرى فى الجريمة لأنهم لا يشعرون بالعدالة تتحقق بما فيهم رجال الأمن ! .وعندما ناقش البطل زميله المسئول عن الحى عن سبب عدم تحقيقه للعدالة بين الناس،رد عليه قائلا إن واجبه هو المحافظة على الأمن فقط ،فسأله وهل يحفظ الأمن بإهدار العداله ؟ فرد المسؤل :وربما بإهدار جميع القيم !. فأنهى البطل المناقشة والقصة قائلا بعبقرية : "إذا سأكتب فى تقريرى أن جميع القيم مهدرة ولكن الأمن مستتب "!!. وكان نجيب محفوظ يضحك من أعماقه وأنا اذكر هذه العبارة العبقرية الاخيرة .

ولا أنسى أبدا كيف كانت سعادة نجيب محفوظ وضحكه وأنا أخبره أمام الجميع أننى لم أتوقف عن الضحك وأنا أقرأ القصة القصيرة " العريس " فى نفس المجموعة القصصية "الجريمة" وهى عبارة عن رجل يطلب من صديقه أن يبحث له عن عروسة ، وبعد أن عثر عليها بدأت عائلتها ووالدها وأسمه "عابد ميرى" عملية السؤال عنه وعن أحواله المالية والاجتماعية وعن تاريخه البعيد والقريب بطريقة هى قمة الفكاهة والعمق فى ذات الوقت!، حيث كشفوا له عن كل عيوبه أو ما يفترض انها عيوبه ، فبدأو بالسؤال عن صحته والرصاصة التى اصابته فى الماضى ،وعندما سئل كيف اصيب بها فأجاب: فى مظاهرة وطنية، قال له صديقه انه من حسن حظه أن عائلة العروسة تعتقد أنه اصيب بها فى ملهى للغناء والرقص !.

فيقول لصديقه : أتعد ذلك من حسن الحظ ؟!

فيرد صديقه : نسبيا ،يمكن الدفاع عن عبث الشباب وطيشه أما التورط فى شئون السياسة فيعرض الإنسان لأخطار مجهولة وبالتالى تتعرض لها أسرته ، على أننى دافعت عنك فى هذا الشأن .

يرد :ماذا قلت ؟

صديقه : قلت إنك لم تنتم لحزب ،ولا تنتمى لرأى ،وأنك مخلص للدولة ..

وتستمر التحريات الغاية فى الظرف والفكاهة ، فيسأل صديقه : طبعا مازالت التحريات جارية ؟

فقال صديقه وهو يضحك : الحديث كان عن السلوك الشخصى ..كلام قيل عن القمار

يرد : كلا ، لست بطبعى مقامرا، لعبت مرات معدودات ثم لم أعد إليه

صديقه : والخمر ؟

يرد : دائما كنت ومازلت معتدلا ،لم أفقد الوعى إلا مرة واحدة.

صديقه: أل ميرى لا يخافون الشراب بقدر ما يخافون عواقبه.

يرد: لم تكن ثمة عواقب وخيمة.

صديقه : قيل إنك طولت لسانك على الإستبداد وأنت فاقد الوعى!

يرد : قلت لك إننى لم أفقد الوعى إلا مرة واحدة .

صديقه : ربما وقع ذلك فى تلك المرة ،وعابد ميرى يخاف أن يتكرر ذلك بعد أن تكون قد صرت زوجا وأبا .

فيرد بحدة : لا أساس لخوفه صدقنى ،ثم لماذا تذكر تلك الزلة وتنسى مجاملاتى الطويلة للإستبداد وأنا فى تمام الوعى ؟!

وتستمر الحوارات الساخرة العميقة على هذا المنوال السهل الممتنع الى أن يصل الأمر بالتحريات الكوميدية الى حد أن يعتقد عابد ميرى أبو العروسة بأن العريس المنتظر هو المسئول عن هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ !!!. وعندما يفقد العريس رغبته نهائيا فى الزواج ويلعن اليوم الذى فكر فيه ،ويستعد بكلام فظ ليرد به على صديقه القادم من بعيد، تظهر عبقرية محفوظ الدرامية ،ونفاجأ بأن صديق العريس يبادره قائلا : عابد ميرى يحييك ،ويرجو أن تحدد موعدا لإعلان الخطوبة فى أقرب وقت ممكن !. يالعبقرية محفوظ .فى رأيى المتواضع " العريس "من أجمل القصص القصيرة وأذكاها وأفكهها على الاطلاق .

وأيضا فى إحدى الشهور إشتكى المصريون من وجود فئران غريبة تأكل المحاصيل وتتلف الزرع ،وأطلق الخبراء على هذه النوعية من الفئران إسم الفأر النرويجى،وأنشغلت الصحف ومحطات الإذاعة والتلفزيون بهذه المشكلة !.وطبعا لم يفت العبقرى هذا الأمر،وخرج علينا بقصة قصيرة تحت عنوان "الفأر النرويجى"! وكانت على ما أتذكرعن

عائلة عانت تماما فى حياتها ومصالحها من مصائب هذا الفأر فأضطرت أن تستأجر خبيرا فى مكافحة هذه النوعية من الفيران النرويجية !،المهم جاء الخبير وهو متدثر ببالطو وقبعة ونضارة سميكة ،وبعد أن أدلى بخبرته وأصدر تعليماته لأفراد العائلة ،وهم يستمعون إليه بتبجيل وإحترام شديد .وأثناء جلوسه معهم على مائدة الطعام ،تظهر شواربه فى لحظة ثم تختفى،ثم يكتشفون ذيلا له يخرج من تحت البالطو،وإذا به هو نفسه فأر نرويجى !!. قصة قصيرة نسجها العبقرى بجمل وحوارغاية فى الفكاهة وشديدة العمق أيضا ،فكما نعرف فى الدول المتخلفة عموما يكون المسؤل فى أغلب الأحوال هو حاميها وحراميها فى ذات الوقت كما يقول المثل !.ولا أنسى ضحكة محفوظ وسعادته وأنا احكيها للندوة واقفا وبإلقاء شبه تمثيلى !.وبعد نشرها فى مجلة ادبية ،لا أتذكر إسمها الأن ،نشرها العبقرى ضمن مجموعة قصصية إسمها " التنظيم السرى "عام ١٩٨٤. ومن الغريب أن باقى قصص المجموعة غاية فى الغموض ،ولا تمت بصلة لقصة الفأر النرويجى من حيث الظرف أو الوضوح أو الجمال !.

قلب الليل وحديث الصباح والمساء

وفى رواية " قلب الليل " إستلفت نظرى كلمات بطل الراوية "جعفر الراوى" بعد أن قتل "سعد كبير" وأدرك المصير المظلم الذى ينتظره فقال بأسى " ياعقلى المقدس لماذا تخليت عنى ؟" وقد سألت العبقرى إذا كان قد كتب هذه العبارة تمثلا بعبارة المسيح عليه السلام عند صلبه كما قيل :" ياإلهى لماذ تخليت عنى ؟" وقد أبتسم نجيب إبتسامة غامضة ولم يرد !.ربما لأنى سألته أمام الحضور. ومن الجدير بالذكر أن القاتل والمقتول كانا ينتميان للحزب الشيوعى. ولكن كان من عادة العبقرى ألا يسترسل فى شرح معانى عباراته وكلماته ،وهو تصرف مفهوم ،حتى يترك للقارىء حرية التفسير كما يريد.

وفى رواية " حديث الصباح والمساء" وكانت مكونة من حوالى ستة وستين شخصية مرتبه حسب الترتيب الأبجدى من الألف للياء ،وكلها شخصيات من عائلات تتقابل وتتزاوج وتتوالد ويتفرق أفرادها فى الحياة الواسعة مكونة بانوراما تاريخية هائلة . ولابد أنها كانت مهمة شاقة جدا على العبقرى ليكتبها بهذا الشكل. وقد أضطررت لعمل جدول لأنساب العائلات وتزاوجها من بعضها البعض حتى أستطيع متابعة الرواية !.وذهبت للندوة وأنا احمل هذا الجدول وأنا سعيد بالنتيجة ولأنى إكتشفت من الجدول أن هناك خطأ فى نسب من الأنساب لا أتذكره الأن .وأخبرت نجيب محفوظ بهذا وحاولت أن أستطرد ،ولكنه رد بسرعة بأن شكرنى ثم فهمت أنه لا يريد ، أن أحدثه عن هذا الخطأ.

المرايا وإبن فطومه

وفى " المرايا " وفى تشريح للمجتمع المصرى يقول زهير كامل أحد الشخصيات ضمن بانوراما هائلة من الشخصيات التى حفلت بها الرواية الرائعة :"بت أعتقد أن الناس أوغاد لا خلاق لهم ،وأنه من الخير لهم أن يعترفوا بذلك،وأن يقيموا حياتهم المشتركه على دعامة من ذلك الإعتراف،وعلى ذلك تصبح المشكله الأخلاقية الجديدة هى : كيف نكفل الصالح العام والسعادة البشرية فى مجتمع من الأوغاد والسفله ؟!". (ملحوظة : هى نفس نظرة الفليسوف الإنجليزى الأشهر توماس هوبز،ونجيب محفوظ تقبع الفلسفة فى عقله الباطن !) .وكنت أختصر هذه الجملة إلى " كيف نقيم العدل والقانون فى مجتمع من الأوغاد والسفله ؟! ويضحك العبقرى من أعماقه . وتقول إحدى الشخصيات فى نفس الرواية وهو كامل رمزى " لقد عبدنا مصطفى النحاس يوما لا لشىء إلا لنزاهته وصلابته فى الحق وهما صفتان جديرتان بكل مواطن عادى،ولكن لندرتهما جعلنا منهما دعامتين أساسيتين لزعامة شعبية !". تأمل النظرة التشريحية الواقعية والمليئة أيضا بالسخرية والضحك ،خليط لا يبتكره إلا عبقرى !.الرواية الرائعة مليئة، بما لا يعد ولا يحصى، بهذه التعليقات والتحليلات الرائعة العميقة التى أبدع العبقرى فى كتابتها ،وتحتاج وحدها الى كتاب منفرد.

والحقيقة أن الاستاذ كان قد بدأ يميل بالتدريج البطىء إلى الأنظمة السياسية والإقتصادية والإجتماعية الليبرالية ،وبالذات بعد هزيمة يونيو ٦٧ وبعد أن بدأ التصدع فى الأنظمة الشيوعية فى العالم وعلى رأسها الإتحاد السوفيتى . وقد أظهر العبقرى حيرته وبحثه عن الأنظمة الأكثر ملاءمة للإنسان ،من خلال روايته " رحلة إبن فطومة " التى صدرت عام ١٩٨٣ .فقد خرج الرحالة إبن فطومة ليبحث عن دار الجبل التى هى كما تصورها " دار الكمال ".وأثناء بحثه ودورانه فى أنحاء العالم صادف وعايش أشهر الأنظمة التى ينضوى البشر تحتها على إختلاف جنسياتهم

.فعاش فى دار الحلبة (التى تمثل الدولة الرأسمالية.) فكما يدل إسمها ،فأهلها يعيشون وكأنهم فى حلبة للتنافس والتطور والتقدم .هى دار الحرية ،تمثل فيها جميع الديانات ، فيها مسلمون ويهود ومسيحيون وبوذيون وملحدون ووثنيون .وأن الدولة لا شأن لها بالاديان وتعامل الجميع على قدم المساواة...فيقول إبن فطومة عنها :حرية لم اسمع عنها من قبل .. ثم ذهب لدار الامان (التى تمثل الدولة الشيوعية)،فى التأمين الشامل والمساواة التامة بين البشر،ولكن دون الحرية. وعندما يتساءل إبن فطومة عن الحرية ، يخبره دليله بحدة : أنظر إلى الطبيعة ،أساسها القانون والنظام لا الحرية .فيرد إبن فطومة : ولكن الإنسان من دون الكائنات يتطلع دائما إلى الحرية !، فيرد الدليل : إنه صوت الشهوة والوهم ، لقد وجدنا أن الإنسان لا يطمئن قلبه إلا بالعدل فجعلنا من العدل أساس النظام ووضعنا الحرية تحت المراقبة ..فيقول إبن فطومة أو نجيب محفوظ -لا فرق- لنفسه :" إنها دار عجيبة.أثارت إعجابى لأقصى حد ، كما أثارت إشمئزازى لأقصى حد .". وعنما يحاول الذهاب لدار الجبل التى تمثل الكمال أى النظام المثالى الكامل،يجدها بعيدة جدا وطريقها وعر وصعب، ولكنه يصمم على بلوغها فيختفى بعدها تماما ولا يجده أحد ،فى دلالة على أن الكمال لا يوجد فى الحياة الإنسانية ،وأن الكمال لله وحده !. والحقيقة إننى وجدت الراوية غير ممتعة ،فلم أناقشه فيها ابدا .

ثرثرة فوق النيل وحكايات حارتنا

كما ذكرت كان العبقرى يرفع وجهه بإهتمام ملحوظ عندما تذكر أمامه معنى عميق مخفى فى ثنايا رواية من رواياته أو قد يضحك من أعماقه ضحكته المجلجله ،عندما تذكر له عبارة من عباراته أو جملة من جمله التى وردت على لسان أحد أبطال رواياته ،تكون فكاهية وتكون قد مست فى ذات الوقت هدفا عميقا من أهداف الراوية .ففى ندوة قصر النيل لن أنسى ضحكته المجلجلة عندما ذكرت أمامه موقف أنيس بطل رواية "ثرثرة فوق النيل" وهو يقف أمام مديره الذى يهدده بخصم يومين من مرتبه،" سارحا بفكره :" أنه عندما يتوهج فى السماء نور،معلنا أن نجما قد أنفجر وأنفجرت بالتالى مجموعته الكوكبية وأنتثر الكل غبارا،وذات مرة تساقط الغبار على سطح الأرض فنشأت الحياة "..،وتقول لى بعد ذلك سأخصم من مرتبك يومين ؟!." طبعا المفارقة هنا واضحة ومثيرة للضحك بين تفكير أنيس فى نشأة الحياة فى الكون وبين تفاهة الشأن الذى يحدثه به رئيسه فى العمل ،لذلك ضحك العبقرى بسعادة، ومن أعماق قلبه،لأن المعنى قد وصل لقارئه.

وهنا لابد ان أكرر وأركز على أن نجيب محفوظ ،كان لا ينسى أبدا ،وهو يكتب عن أدق التفاصيل اليومية فى حياة أبطاله،ويصف الأماكن التى يتحركون أو يقيمون فيها بدقة متناهية ،كان لا ينسى أبدا ،أن يذكر قارئه بالكون الهائل الذى يتمدد بلا نهاية ،وأن كرتنا الارضية التى نعيش عليها ماهى إلا نقطة فى محيط من النجوم والكواكب التى تدور بلا انقطاع ..فلا ننسى العلم والقضايا الكبرى التى تهم الإنسان عموما بصرف النظر عن دينه أو جنسيته أو لونه إلخ ، بجانب القضايا التى تهم الوطن. تأمل بطل الحكاية رقم ٧٧ فى رواية " حكايات حارتنا " وهو يقول ضاحكا :" تذكرت أننى طالب بين طلبة متنافسين ،فى مدرسة تجمع بين طلبة الأزقة المتخاصمة ،فى حارة وسط حارات متعادية ،وإنى كائن بين ملايين الكائنات المنظورة وغير المنظورة فى كرة أرضية تهيم وسط مجموعة

شمسية لا سلطان لى عليها ،والمجموعة ضائعة فى سديم هائل ،والسديم تائه فى كون لا نهائى ،وأن الحياة التى أنتمى إليها مثل نقطة الندى فوق ورقة شجرة فارعة ،وأن على أن أسلم بذلك كله ثم أعيش لأهتم بالأحزان والأفراح ،لذلك لا أتمالك نفسى من الضحك ." هكذا كان نجيب محفوظ ،وهكذا أدركت لجنة نوبل أنها أمام روائى وطنى إنسانى كونى فذ ،فأعطته جائزتها وهى مطمئنة. .

عصر الحب

ومن الروايات التى تظلل على أجواءها الكأبة من أولها إلى أخرها رواية "عصر الحب". مثلها مثل رواية السراب ولكن بطلها "عزت" عاجز من نوع أخر!. هو عاجزعن فعل الخيرمهما حاول ،وكأن الاقدار قد كتبت عليه اللعنة .وقد قسا فيها العبقرى على الحارة ،وكأنه يلومها على أنها تضم أمثال هذا الرجل. فكتب يقول :"..وفى حارتنا لا يغض البصر عن نقيصة،ولا تعفى نقيصة من القيل والقال ،والحفظ والتسجيل ،لذلك فليس أبقى فى الذاكرة من سير الفتوات والقوادين والعاهرات ،ونغالى فنؤرخ بهم الأحداث فتقرن الذكرى بحياة الضبش أو الدنف أو علية كفتة "!!. وقد تجلت عبقرية نجيب محفوظ وهو يشرح المشاعر التى إنتابت عزت عندما أكتشف حقيقة وضعه وذاته فقال :" عرف الوحدة وهو منغمس فى خضم الناس ..أدرك أن جاهه زائف وأنه يستمد نوره من أمه. إنه فى الواقع حقير فقير عاجز..إنه أسير الحديقة والوسائد الناعمة وتلك القوة الغامضة المجهولة.ولشدة إرتباطه بالحياة فقد الحياة الباهرة .إنه وفى للأسر ليشدو أغانى العذاب ، وستجلوا بدرية عن مجال أمله بعد أن أرست فيه طابعا لا يبيد . وكتب عليه أن ينتظر أملا لا يعود وأن يبحث عن كائن ليس له وجود ،واللعنة على الكبرياء التى يلقنها غر فى مهد عبودية ". ماهذه الروعة يانجيب بك ؟ هكذا قلت له بعد قراءتى أمامه لهذه الجمل البديعة والتحليلات العميقة والموسيقى التى تنطق بها الكلمات .وأبتسم العبقرى إبتسامته الرائعة التى تحمل معانى السعادة والإمتنان.

السمان والخريف وميرامار

كما ذكرت من قبل أن حوارات العبقرى معنا فى ندواته كلها كانت تنطق بعشقه لسعد زغلول وثورة ١٩ .وقد حاول نجيب محفوظ ،عندما قامت ثورة ١٩٥٢ أن يتأقلم مع الاوضاع الجديدة ،وبالرغم من أن رجال ثورة يوليو٥٢ حاولوا تشويه ثورة ١٩ ونتائجها وزعمائها ،إلا أن العبقرى، كمصرى اصيل ومخلص ،وكأى انسان سوى،كان لابد له أن يتفاءل ويفترض حسن النية حتى فى أحلك اللحظات. حاول العبقرى أن يعطى رجال ثورة يوليو ٥٢ الفرصة للنجاح والإنتصار ،كما ذكر لى فى جلستنا الخاصة . ولم يكن منافقا أو خائفا عندما فعل ذلك وكتبه ،كما أدعى بعض اليساريين والناصريين. ففى روايته الجميلة" السمان والخريف " التى صدرت عام ١٩٦٢ ،حاول قدر طاقته أن ينصف ثورة يوليو بذكر بعض نقاط الضعف التى كانت قد إعترت رجال حزب الوفد ،ويمثلهم بطل الرواية عيسى الدباغ .ثم فى نهاية الرواية يواجه عيسى الدباغ شاب من شباب ثورة يوليو ،وفى حوار جميل وسلس ومتدرج ،

يقول عيسى للشاب الثورى المتحمس :

لم يعد يهمنى شيئا

فيرد الشاب قائلا :

أما أنا ،فكل شىء يهمنى وأفكر فى كل شىء

يرد عيسى :

فلتطب لك الدنيا كما تشاء

فيقول الشاب الثورى:

اليس هذا بخير من الجلوس فى الظلام تحت تمثال سعد زغلول ؟!.

يرد عيسى :

هكذا هى تطيب لى فلا تشغل بالك بأمرى

يقول الشاب : أنت لم تقرر بعد أن تفتح قلبك لى

عيسى : ولم ذلك ؟ ألا ترى أن الدنيا كلها مملة ؟

الشاب : ليس عندى وقت للملل !

عيسى : ماذا تفعل إذن ؟

الشاب : أعابث المتاعب التى ألفتها وأنظر للأمام بوجه مبتسم ، بوجه مبتسم رغم كل شىء، حتى ظن بى البله

عيسى : وما الذى يدعوك للإبتسام ؟

فقال الشاب بلهجة أكثر جدية :

أحلام عجيبة ، ما رأيك فى أن نختار مكانا أنسب للحديث ؟

فقال عيسى بسرعة :

أسف ، الحق أنى شربت كأسين وأرغب فى الراحة .

فقال الشاب بأسف :

أنت تود أن تجلس فى الظلام تحت تمثال سعد زغلول .

فلم يجب عيسى بكلمة فقام الشاب وهو يقول :

أنت لا ترغب فى حديثى فلا يجوز أن أزعجك أكثر من ذلك

وتحول عنه ماضيا نحو المدينة

وتابعه عيسى بعينيه وهو يبتعد . ياله من شاب غريب ! ترى ماذا يفعل اليوم ؟ وهل رحمته المتاعب ،ولماذا ينظر إلى الأمام بوجه مبتسم ؟.

وظل يتابعه بعينيه حتى بلغ أخر الميدان.لم يكن سيء النية كما توهم ،ولم يقصده بسوء، فلم لم يشجعه على الحديث ؟ ألم يكن من الممكن أن يستعين به على مغالبة الملل فى هذه الساعة من الليل ؟ أو لم يكن من المحتمل أن يجرهما الحديث إلى شيء مشترك تطيب به السهرة ؟. ورأه وهو يختفى متجها نحو شارع صفية زغلول.وقال لنفسه:أستطيع أن ألحق به على شرط ألا أضيع ثانية فى التردد. وأنتفض قائما فى نشوة حماس مفاجئة ،ومضى فى طريق الشاب بخطى واسعة ،تاركا وراء ظهره مجلسه الغارق فى الوحدة والظلام ."

وتمت الرواية الرائعه والتى يعلن فيها العبقرى النظر إلى الأمام بتفاءل وإفتراض حسن النية وإعطاء الفرصة لشباب الثورة الجديدة ثورة يوليو ٥٢ لكى يشكلوا المستقبل . وكما ذكرت، هذه المشاعر هى من شيمة أى مصرى مخلص يريد لوطنه أن يتقدم للأمام ،حتى لو على يد خصوم حزبه القديم العريق وثورته المفضلة !. وظل الاستاذ نجيب على منهجه هذا، ولم يفقد الامل فى الإصلاح حتى بعد أن بدأت الامور تتغير تغيرا جذريا ، وفتحت المعتقلات من أوسع أبوابها ،وتأله الحكام الجدد ، وأنتشرت رائحة الفساد فى رجال الإتحاد الإشتراكى الحزب الأوحد ، فكتب العبقرى رائعته "ميرامار" التى تظهر فساد وإنتهازية رجال الاتحاد الاشتراكى ممثلة فى الشخصية الشهيرة " سرحان البحيرى ". حتى عندها لم يفقد نجيب محفوظ الأمل فى ثورة يوليو، فقد أنتهت الرواية بالشخصية الوفدية القديمة "عامر وجدى " وهى تجتمع ب " زهرة " التى تمثل رمزا للشعب المصرى البسيط ،لتعزيتها فى صدمتها العنيفة فى رجل الإتحاد الإشتراكى الذى وعدها بالسعادة والإستقرار ثم خدعها. قال لها الوفدى الأصيل : ثقى من أن وقتك لم يضع سدى ، فإن من يعرف من لا يصلحون له فقد عرف بطريقة سحرية الصالح المنشود ." ومن سخرية القدر أن هذه الرواية كتبها العبقرى مباشرة قبل وقوع كارثة يونيو ٦٧ !!.

قشتمر

ثم حدثت الطامة الكبرى بكارثة يونيو ٦٧. كان لا يمكن لحسن النية أن يستمر ولا للتفاؤل أن يعمى البصر وإلا أصبح الإنسان معتوها أوساذجا أو ضعيف التفكير!. وبدأت روايات نجيب محفوظ وقصصه القصيرة تتوالى وتنتقد وتتصاعد فى إنتقادها بصورة مباشرة مثل" الكرنك" وبصورة غبر مباشرة مثل قصصه القصيرة "تحت المظلة " وغيرها . الى أن كتب روايته الرائعة "قشتمر" التى صور فيها تاريخ شلة من الرجال تشبه شلته الحقيقية من أيام العباسية القديمة من عام ١٩١٥.وكانت قشتمر هى القهوة التى يجتمع فيها شلة أبطال الرواية وعمرهم من عمر الأستاذ .وعاصرأفراد هذه الشلة تاريخ مصر لسبعين عاما متواصلة حيث عاصروا ثورة ١٩١٩ وهم أطفال ثم ثورة يوليو ٥٢ ثم كارثة يونيو٦٧ فعبور اكتوبر ١٩٧٣ وما بعده .وفى هذه الرواية كانت تعليقات أبطالها كلها تشى بمشاعر نجيب محفوظ الحقيقية التى إستقرت فى وجدانه بعد طول السنين، والنتائج التى توصل إليها عقله ووجدانه فى نهاية المطاف. إكتشف العبقرى وأكتشفنا معه أن حبه الأول والأخير هو لثورة ١٩١٩ ،وأن الزعيم الذى لا زعيم غيره ، فى رأيه ، هو سعد زغلول " فأما الزبد فيذهب جفاء ،وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض " صدق الله العظيم .وقد أبتسم العبقرى فى سعادة واضحة، وأنا أعلق على مواقفه النهائية بهذه الاية الكريمة. ونعود إلى الرواية لنقرأ فقرات منها توضح موقف العبقرى .فقد كتب يصف العباسية القديمة ممثلة لمصر عام ١٩١٧ فيقول :" العباسية فى شبابها المنطوى. واحة فى قلب صحراء مترامية . فى شرقيها تقوم السرايات كالقلاع وفى غربيها تتجاور البيوت الصغيرة مزهوة بجدتها وحدائقها الخلفية .تكتنفها من أكثر من ناحية حقول الخضر والنخيل والحناء وغابات التين الشوكى . يشملها هدوء عذب وسكينة سابغة لولا أزيز الترام الأبيض بين الحين والحين فى مسيرته الدائبة ما بين مصر الجديدة والعتبة الخضراء .ويهب عليها هواء الصحراء الجاف فيستعير من الحقول أطيابها مثيرا فى الصدور حبها

المكنون .ولكن عند الأصيل يطوف بشوارعها عزف الرباب المتسول بجلباب على اللحم ، حافيا جاحظ العينين ، يشدو بصوت أجش لا يخلو من تأثير نافذ : أمنت لك يادهر..ورجعت خنتنى ". تأمل الوصف الشاعرى العميق والرائع للعباسية القديمة بقلم العبقرى .

ثم يصف العباسية بعد مرور خمسين عاما فيكتب :" أجل ذهبت فى ادراج التاريخ عباسية الزمان الأول ،بالهدوء والخضرة والسرايات والترام الأبيض ،وأنتشرت العمائر ،وقامت الدكاكين على الجانبين ،وفاض الحى بسكانه ،وأكتظت الشوارع بالصبية والسيارات الخاصة والعامة ،إنه الزحام والضوضاء والأنفاس المتلاطمة ،ولكن لم يجر هجرها لأحدنا فى خاطر ،ولا تصورنا أنه يمكن السمر فى غير قشتمر. ..إزداد شعورنا الحميم بالمودة ،ووجدنا فى صداقتنا سلوى الوجود وحلاوته ،وغلب علينا الاستسلام للواقع ، وتخلصنا من كثير من رواسب الماضى ، وأجتاحنا ما يشبه النعاس الهنىء والحلم العذب حتى إنتفضنا قائمين على صوت انفجار كالبركان فى يوم من الايام عجيب إسمه ٥ يونيو ٦٧ .دهشة وتساؤل وتعجب ،حيرة وعدم تصديق ،ثم دهشة وتساؤل وتعجب ،تجرع لواقع لا مفر منه ،كيف ؟!..لا ندرى ،لماذا ؟ لا ندرى ،ثم سيل ينهمر من الأحاديث ،وفيضان من النكت ،ومضطرب بلا حدود لعواطف متناقضة،من أقصى الحزن لأقصى الفرح ،ولكن جرثومة الكأبة إستقرت فى أعماق كل نفس ."

بعبقرية يرسم نجيب محفوظ صورة للعباسية القديمة وحبها المكنون فى الصدور مقارنة بالعباسية ماقبل ٥ يونيو مباشرة ،حيث كان هو وأصدقاؤه قد رضوا بالهم، ولكن ألهم لم يرضى بهم فضربهم بكارثة ٥يونيو !!.وسوف أبدأ بالعكس أى سوف أذكر بعضا من مشاعر أبطال الرواية عن هزيمة يونيو٦٧ وأنتهى بذكر مشاعرهم أثناء ثورة ١٩١٩ لكى اوضح كيف إنجلت مشاعر نجيب محفوظ الحقيقية بعد كارثة يونيو ٦٧ تجاه رجال يوليو ٥٢،وكيف ظهر حبه الثابت القوى ،ومشاعره الفياضة التى كان يعتقد هو شخصيا أنه قد تجاوزها لمصلحة المستقبل

وتحت وطأة الأمر الواقع !. وسوف أذكر التعليقات متوالية دون ذكر أسماء الأبطال للإيجاز،مع ملاحظة أن نجيب محفوظ هو الراوى فى الرواية. يقول الراوى :" ولا شك أن سحابة من الأسى نشرت جناحيها فوقه لما حل بأخيه وزوج أخته الذى كان من كبار الملاك الزراعيين ،ولما جرى على حزب الوفد، حزب أبيه، والبطولات التى أطلت على الدهر فى شموخ والتى تتحول من خلال أبواق الدعاية الى تلال من الخرائب !. إنها ثورة ذات اهداف جليله ولكن القدر عهد بها إلى شلة من قطاع الطرق . أسد على وفى الحروب نعامة .ألم يقل أنه علمنا العزة والكرامة ؟ إشبعوا عزة وكرامة !.إعرف لرجلك قبل الخطر موضعها ..ما أجدر أن نوجه هذه الحكمة لبطل ٥ يونيو.هاهو يطهر الثورة من سلبياتها ويعيد بناء الجيش من جديد ..سيزيف يصعد الجبل من جديد ."

ثم يكتب نجيب محفوظ " ولما رحل الرجل عن دنيانا .." لم يقل رحل الزعيم أو رحل قائد الثورة وإنما قال رحل الرجل !!!.ولنقرأ تعليق الشلة على رحيل" الرجل" : لم يخف صادق صفوان فرحه فقال : هذا خبر أمتع من شهر العسل وقال حمادة ساخرا : موته يعتبر من أمجد أعماله.أما اسماعيل قدرى فقال : هرب فى الوقت المناسب تاركا الطوفان لمن يخلفه .وأندمج صادق صفوان فى حياته بطمأنينة جديدة قائلا : أنا متفائل بالرئيس الجديد ...."

ويكتب نجيب محفوظ "..أما طاهر عبيد (الناصرى) فقد وجد نفسه تحت حكم الزعيم الثانى(السادات) فى عالم غريب كريه لا يحتمل ،وأساء به الظن من أول ساعة وعده عميلا لجميع القوى الرجعية فى الداخل والخارج..وأمتنع عن الكتابة فلم يهتم به أحد..ولما حدث النصر العظيم فى اكتوبر ٧٣ تلقاه بفتور غريب ،وراح يرجع جذوره إلى البطل الراحل.إنه الوحيد فى شلتنا الذى عبد الراحل فى حياته وقدس ذكراه بعد مماته ،ولولا صداقتنا العجيبة لربما ضاق بنا وأنصرف عنا.."

ولندخل الأن على تعليقات وحكايات الراوى نجيب محفوظ فى رواية قشتمرعن ثورة ١٩١٩،وكان هو وزملاؤه أطفالا، فيقول: "..سمعت بابا يتحدث عن ثلاثة رجال ذهبوا إلى الانجليز يطالبون بإستقلال مصر! تساءلنا عن معنى ذلك فقال حمادة :أى أن يخرج الإنجليز من مصر.وذهبنا إلى المدرسة .وهدر الفناء بالخطب الحماسية ،ثم تدفق التلاميذ إلى الخارج فى مظاهرة عاصفة .أول درس عملى نتلقاه فى الوطنية .سرى فى قلوبنا الحماس ..فى بيوتنا سمعنا أصداء ما يحدث فى الخارج تتردد بحرارة.لأول مرة يلتقى الأباء والأبناء فى عاطفة متأججة واحدة .حتى الأمهات يصغين وينفعلن.أنباء المظاهرات يحملها إلى بيوتنا هواء ديسمبر البارد ولكننا نتلقاها دافئة بل ساخنة . ومصارع الشهداء تروى كالأساطير.دوريات الإنجليز تخترق شارعنا محمولة فى اللوريات مدججة بالسلاح. الهتافات تترامى إلينا من الحسينية جنوبا ومن الوايلية شمالا. سعد.. يحيى سعد، الإستقلال التام أو الموت الزؤام . وتذاع الاخبار فى منازلنا : قطعت المواصلات .المظاهرات فى كل مكان ..الفلاحون يحاربون . زلزلت الارض بغتة ولا تريد أن تسكت .تدفقت العواطف إلى قلوبنا لتخلقنا خلقا جديدا ." " ..وغطى الحماس والقتال والضحايا على مسيرة الحياة اليومية ..وفى الفصل تطوع كل مدرس لتلقيننا درسا فى التربية الوطنية مستهينا بأمنه وسلامته ومستقبله .وبفضل أولئك المدرسين العظام عرفنا ما أخفى عنا من تاريخنا منذ الثورة العرابية ،وعرفنا سعد كمثال للقوة والنضال والذكاء والنزاهة منذ شبابه الأول .وثملنا بما سمعنا وإنبثت فينا روح الوطنية التى لم تنتزع من قلوبنا حتى اليوم .وذاق البلد أول طعم للنصر بالإفراج عن الزعماء المنفيين ثم شهد أعجب يوم فى تاريخه يوم عودة سعد ".

وبعدها يستمر الراوى نجيب محفوظ فى وصف الأحداث مرددا إسم "سعد " فى معظم الجمل وكأنه يتمتع بترديد إسمه على الورق !! بعكس قائد ثورة يوليو الذى لم يذكر إسمه ولو مرة واحدة فى الرواية !. " قال اسماعيل قدرى بحزم : نحن على أى حال مع سعد لسبب وبغير سبب

وضد الملك بسبب وبغير سبب..وأتفقت قلوبنا على ذلك.فى ذلك الزمان صهرنا الوفد فى أتون وطنيته فبعثنا على يديه خلقا جديدا ،ويوما قال اسماعيل قدرى :فى مصر أربعة أديان،الإسلام والمسيحية واليهودية والوفد !. فقال طاهر عبيد ساخرا : والدين الأخير أعظمها انتشارا !.

ثم يستمر الراوى نجيب محفوظ قائلا " علمنا الوفد ماذا نحب وماذا نكره ،وبأى قوة نحب وبأى قوة نكره وأجتاحتنا القضية الوطنية وملكت قلوبنا ،غطت على الأسرة والمستقبل والأمل الشخصى .وأندفعنا مع طوفان الحزبية بنفس القوة والعنف ونبضت كل خلية من خلايانا بالحياة والإصرار ." " وإلى جانب السياسة هبت علينا رياح الثقافة المنعشة البيضاء ، إلتهمنا المجلات الإسبوعية والشهرية والكتب المؤلفة والمترجمة ،وتنورت رؤسنا بمصابيح مشعة مثل المنفلوطى والعقاد وطه حسين والمازنى وهيكل وسلامة موسى ،ودار الحوار حول الفكر كما يدور حول السياسة ، وشملت اليقظة العقل والقلب والإرادة ." .

وأنا أعتقد أنه لم تكن هناك رواية للعبقرى مثل "قشتمر" تتضح فيها عواطفه الحقيقية وعشقه الحقيقى لثورة ١٩ وزعيمها ،وإزدراؤه الواضح بل وكراهيته لأى إنسان أو أى ثورة اخرى تحاول حتى أن تقارن نفسها بها ناهيك عن إدعائها بفشلها !!!. وقلت للعبقرى ونحن فى هيلتون رمسيس : يانجيب بك ،لقد نسيت أحيانا فى قشتمر أنك تكتب رواية، وتحولت إلى خطيب أو قائد مفوه يحدث جماهيره عن مزايا ثورة ١٩ ..فرد العبقرى مبتسما وسألنى متعجبا : كده ؟! فسارعت بالقول: ولكن هذا لم يؤثر على جمالها.وهذا حقيقى. والحقيقة أن الثورة ضد المحتل الأجنبى تختلف تماما عن الثورة ضد حفنة من أبناء الوطن.فثورة ١٩١٩ كانت ضد الإحتلال الاجنبى وبالتالى شعر جميع أفراد الشعب بالفخر والحماس وإسترداد الكرامة وهم يحاربون الإنجليز .أما ثورة يوليو ٥٢ فقد كانت ضد نظام الحكم الملكى أساسا ثم ضد المتحالفين معه ثم ضد الرأسماليين والرجعيين الخ وغيرهم من أفراد من الشعب المصرى نفسه ،وقد تم نعتهم بهذه الصفات من أجل التخلص منهم ،وبالتالى تكون الثورة فى هذه الحالة

أشبه بحرب أهلية مصغرة ، نتائجها غالبا ما تكون وبالا، ولا ينتج منها خير أبدا .لذلك كانت كارثة ٥ يونيو نتاجا طبيعا ليوليو ٥٢. وكان تعليق العبقرى مختصرا مفيدا :"عندك حق "! .

يوم قتل الزعيم

كما ذكرت من قبل حكى لنا نجيب محفوظ فى ندوة فصر النيل كيف أن السيدة جيهان السادات تكلمت معه تليفونيا لتطمئن اذا كانت رواية " يوم قتل الزعيم " بها تعريض بزوجها الراحل انور السادات ،فاخبرها الأستاذ بالنفى . ولم يخبرها طبعا بما قالته إحدى شخصيات الرواية الكارهة للسادات تعليقا على الزى الألمانى الذى إرتداه أنور السادات فى إحتفال من الإحتفالات:" الزى زى هتلر والفعل لشارلى شابلن "!. والحقيقة أننى إختلفت مع الأستاذ نجيب فى جزئية عصرالإنفتاح الذى هاجمه بضراوة فى الرواية ،هو ،وغيره من الكتاب والصحفيين الإشتراكيين وعلى رأسهم الصحفى أحمد بهاء الدين .فقد إتهموه ،أى عصر الانفتاح ،بأنه السبب فى فقر كثير من المصريين وشيوع الفساد والرشوة الخ ،حتى أن الرواية، رواية يوم قتل الزعيم، كل أبطالها فقراء يقعون فى براثن أوغاد فاسدون نتيجة عهد الانفتاح أيام السادات!!. وقد إعترضت وأختلفت تماما مع الأستاذ فى تقييمه هذا ،وأخبرته أمام الجميع أن عصر الإنفتاح هو المسئول عن خروج الألاف بل الملايين من المصريين ،وأنا من بينهم،إلى السعودية ودول الخليج ،حيث عملنا وكسبنا أموالا حلالا، بعد أن كنا فقراء فى عهد الإنغلاق !.وأن أى بلد فى العالم يتحول من الإنغلاق والحكم الإشتراكى إلى الإنفتاح والإقتصاد الحر،لابد وأن يتعرض لمثل ما تعرضت له مصر،ولابد أن يظهر فى بداية التحول النصابون والمرتشون الخ ،ولكن الأغلبية ستكسب وستنطلق ،وقد حدث فعلا أن خرج الملايين من المهندسين والمحاسبين والأطباء والنجارين والحدادين والسباكيين والعمال وغيرهم ،وكلهم رزقوا حلالا وأنعشوا الإقتصاد المصرى ،وأن أخر من يحق لهم الحكم على عهد رأسمالى هم اليساريون والإشتراكيون والماركسيون !!. وقد إستمع إلى الاستاذ بكل ديمقراطية وود. والحقيقة إننى ،قبل أن أعرض رأيى هذا ،وحتى أخفف من وقع إعتراضى، قرأت مقاطع من الرواية تعبر عما فى صدر الاستاذ تجاه رجال ثورة يوليو ٥٢ من خلال شخصية الوفدى القديم محتشمى زايد

الذى قال :" ما ذنب حفيدى ياحثالة الأرض ؟،ورثتم أبناءكم المال والأمان وأورثتمونا الضياع والفقر والديون وكأن الثورة ما قامت إلا من أجل سعادتكم وتعاستنا .أه ياربى حتى متى أحن إلى كرامات لا تتيسر؟، متى أطير فى الهواء أو أامشى فوق الماء؟، متى أشير إلى الظالم فأصعقه وأريح الدنيا من شره ؟، الحق أنها تجربة فاشلة وأن الانسان أعجز من أن يتعامل معها كنعمة كبرى فنجسها بالغدر والأنانية والخيانة ".ثم قال أيضا "..فإلى جنة الخلد يازمرده ويالهلوبة ويأم طاقية ، وياجميع المنحرفين والمنحرفات ممن لم نقر بفضلهم حتى ورد الزمان علينا بأبطال النحس والفاقة والهزائم " .كلام عنيف يظهر مشاعر نجيب محفوظ ،وإنتقامه ممن حاولوا تلويث ثورة ١٩١٩ وزعيمها سعد !.وعنما يطالب أحد شخصيات الرواية بثورة ،ويرد عليه أخر قائلا : هل تعنى الثورة إلا مزيدا من الخراب ؟ يقول الوفدى القديم لنفسه :" يتحدثون عن الثورة (ثورة ١٩١٩)بلا معرفة. لم يسمعوا عنها ، حكى لهم الراوى المأجور حكاية زائفة كاذبة. يبدأ المدرس المغلوب على أمره درسه بالسؤال الخائن " لماذا فشلت ثورة ١٩١٩؟!. ياأبناء الابالسة ألا توجد قطرة حياء ؟!. يازبانية المعتقلات وعباد نيرون ."

لا شك أن نجيب محفوظ كان يلعن من أعماق قلبه من حاول تشويه ثورة ١٩ !. كان يجاملهم فقط ليتقى هجومهم ،وموقفه مفهوم وحوله هذه الأعداد الهائلة من الناصريين المنتشرين فى كل مكان ،يحاصرونه فى أى مكان يجلس به ويراقبون كل كلمة يكتبها فى الجرائد والمجلات ،بحكم سيطرتهم الكاملة عليها وعلى صفحات الأدب فيها. ويتذكر أحد شخصيات رواية "يوم قتل الزعيم " وهو حفيد محتشمى زايد أن هناك من قال له " الرئيس الراحل فى هزيمته (يقصد عبد الناصر) أعظم من هذا فى نصره (يقصد السادات). ويتذكر الحفيد رأى جده بهذا الخصوص الذى قال :" نحن قوم نرتاح للهزيمة أكثر من النصر، فمن طول الهزائم وكثرتها ترسبت نغمة الأسى فى أعماقنا ، فأحببنا الغناء الشجى والمسرحية المفجعه والبطل الشهيد ،جميع زعمائنا شهداء : مصطفى كامل شهيد

الجهاد والمرض ، محمد فريد شهيد المنفى،سعد زغلول شهيد النفى أيضا ،مصطفى النحاس شهيد الإضطهاد ، جمال عبد الناصر شهيد ٥ يونية ، أما هذا المنتصر المعجبانى(السادات) فقد شذ عن القاعدة ، تحدانا بنصره ، ألقى فى قلوبنا أحاسيس وعواطف جديدة لم نتهيأ لها ،وطالبنا بتغيير النغمة التى ألفناها جيل بعد جيل ،فأستحق منا اللعنة والحقد ، ثم غالى بالنصر لنفسه تاركا لنا بإنفتاحه الفقر والفساد ، هذه هى العقدة ". هكذا رد نجيب محفوظ للسادات إعتباره مقارنة بغيره .وطبعا كالمعتاد كان العبقرى يسعد بقراءتى لفقرات من رواياته على رواد الندوة . وللموضوعية أقول هنا ،وقد قلت هذا للأستاذ فى ندواته وكررتها كثيرا ،أنه كان قد وصلت للسادات أخبار مقلقة ،أن بيجين رئيس وزراء اسرائيل الذى وقع مع السادات وثيقة كامب ديفيد ، كان قد بدأ يفكر فى التراجع عن إنسحاب اسرائيل من سيناء حسب بنود الإتفاقية !!،وذلك بعد أن قرأ التقارير التى عرضتها عليه مخابراته والتى أخبرته بأن كل السياسيين المدنيين المصريين ،وفديين وناصريين وشيوعيين واخوان ، كلهم يهاجمون الإتفاقية ويرفضونها . وبدأ الإسرائيليون يتساءلون ،إذا كان كل هؤلاء السياسيين كارهين للإتفاقية ،فلماذا إذا سننسحب؟!!.وشعر السادات بخطورة الموقف ،وفى ساعات وفى يوم ٥ سبتمر أصدر أوامره بإعتقال كل هؤلاء لكى يظهر حجمهم الحقيقى أمام بيجين وليثبت له أن القوات المسلحة التى حاربت وضحت بألاف الشهداء هى التى تضمن الإتفاقية وليس هؤلاء المدنيين الضعفاء. وأقتنع بيجين وصدر الأمر للإسرائليين بالإنسحاب ،وفاز الوطن ورجعت سيناء الحبيبة الى حضن مصر بفضل قرار من أروع قرارات السادات ،وهى إعتقال هؤلاء الجهلة الذين كانوا، بحماقتهم وجهلهم السياسى، سيضيعون سيناء إلى الأبد !.وكان السادات ينوى الإفراج عنهم بعد الإنسحاب الإسرائيلى من سيناء . وقلت أمام العبقرى أن هؤلاء الذين رفضوا كامب ديفيد والسلام مع إسرائيل، ينطبق عليهم تماما العبارات البليغة الموجزة التى قالها الجنرال وليام شيرمن أحد أعظم قيادات جيش الشمال المنتصر فى الحرب الأهلية الأمريكية ،عندما أتى إليه مجموعة من المدنيين الشماليين يحثونه على رفض السلام مع

الجنوب وإستمرار القتال ، فقال لهم عباراته الخالدة فى التاريخ الأمريكى : " إن أولئك الذين لم يطلقوا فى حياتهم طلقة واحدة ، ولم يسمعوا أنات الجرحى فى المعارك ،هم وحدهم الذين يهللون للحرب .أيها السادة ،الحرب هى الجحيم !". وكان تعليق نجيب محفوظ " مظبوط كده ".

وقد كنت دائما أذكر العبقرى برأيى فى أن فن "ممارسة القوة " هو فن غائب تماما عن المجتمع المدنى المصرى عبر تاريخه كله ،لذلك إعتزل الزعيم المدنى مصطفى النحاس السياسة فور تمكن الجيش من مقاليد الأمورفى ثورة ١٩٥٢،وقال قولته المشهورة :إن الجيش مثل وابور الزلط يهرس أى شيء أمامه !. كما أن عباس العقاد الذى وقف فى البرلمان فى عهد الملك فؤاد وهو يقول بصوت عال :إن البرلمان مستعد لسحق أكبر رأس فى البلاد إذا حاول أن يعتدى على الدستور ، وكان يقصد الملك ذاته ، إعتزل السياسة تماما بعد ثورة ٥٢، وعرف جيلى العقاد من خلال مقالاته فى الصفحة الأخيرة بجريدة الأخبارعن النباتات وغيرها من المواضيع البعيدة تماما عن السياسة !!..فمعدن المدنى المصرى مرن ويتأقلم مع أى ظروف ،أما علم أو فن "ممارسة القوة " فهو علم وفن يدرسه طلبة كليات القوات المسلحة والشرطة، لذلك يكتسبون معدنا قويا يساعدهم فيما بعد على حكم المدنيين !.

الحب فوق هضبة الهرم

الحقيقة يانجيب بك أنت أنصفت السادات تماما فى قصة " السماء السابعة " هكذا قلت للعبقرى ،فأبتسم كعادته عندما يكون مبسوطا بما يقال. والسماء السابعة هى من ضمن مجموعة " الحب فوق هضبة الهرم " ، وهى قصة خيالية معقدة لا تمت للواقع بصلة ،يتخيل فيها العبقرى أن كل زعيم لمصر ،عند موته يصعد للسماء الأولى،فإذا كان مرضيا عنه تماما يصعد للسماء الثانية ،أما إذا كان الرضا عنه غير كاف ،فعليه أن يكون مرشدا لشخصية ما على الأرض. فإذا كان الإرشاد مخلصا لصالح الوطن والشعب ونفذته الشخصية بإخلاص ،عندها يرتفع الزعيم المرشد إلى السماء الثانية . ويدور الحوار التالى بين بطل الرواية وبين كاهن طيبة . يقول البطل :أود أن اعرف مصائر زعماء وطنى ؟ يرد الكاهن:إسأل مابدا لك .

فيسأل : ماذا عن السيد عمر مكرم ؟

فيرد الكاهن :إنه مرشد انيس منصور.

وأحمد عرابى ؟

إنه مرشد لويس عوض .

ومصطفى كامل ؟

إنه مرشد فتحى رضوان ،

ومحمد فريد ؟

إنه مرشد عثمان احمد عثمان .

وسعد زغلول ؟

يرد الكاهن : هو وحده الذى صعد للسماء الثانية دون أن يحتاج لإرشاد احد !.

ويسأل البطل: ومصطفى النحاس ؟ .

فيرد الكاهن : كان مرشد انور السادات ،وعقب ٦ اكتوبر وعودة الحرية صعد إلى السماء الثانية .

ويسأل البطل : وجمال عبد الناصر؟

فيرد الكاهن : إنه اليوم مرشد القذافى !.".

قلت للعبقرى: هذا الحوار هو أدق وأصرح وأوضح رأى قلته عن زعماء مصريانجيب بك !. والحقيقة إننى كثيرا ما كنت أعود لقراءة روايات العبقرى التى كتبها قبل أن أتشرف بمعرفته شخصيا ،حتى أقارن ماقاله فيها بما يقوله فى رواياته التى كتبها بعد تاريخ معرفتى به ،وحتى أتلو عليه ماأحببته فيها. وقد كتب العبقرى مجموعته هذه قبل رواية "يوم قتل الزعيم " بسنوات ،ولكن رأيه فى السادات لم يتغير كثيرا.

والحقيقة أن نجيب محفوظ كان قد بدأ يترك الكنايات الغامضة واللا معقولة بعد عبور أكتوبر ١٩٧٣ ، فبقية قصص المجموعة :" أهل القمة " و"الحب فوق هضبة الهرم " و"سمارة الامير "كلها قصص تتناول الحياة الواقعية المصرية فى هذه الفترة، فترة السبعينات . وقلت للعبقرى أن قصة "الحب فوق هضبة الهرم " تجسد مأساة العلاقة بين الرجل والمرأة فى مجتمعاتنا العربية المحافظة إلى درجة التعاسة. وهذه المجتمعات تصل فى خنق الحريات إلى درجة لا تقاس بأى شعب من شعوب العالم غربه وشرقه ، مما يؤدى إلى الحرمان الجنسى الهائل الذى عانى منه بطل القصة، والذى يمثل ٩٩ فى المائة من شباب الوطن !! وكانت نتيجته إنتشار هائل للزواج العرفى بين شباب الثانوى وشباب الجامعات ،فى الثمانينات والتسعينات. وهز العبقرى رأسه موافقا.

عبور أكتوبرالعظيم

الباقى من الزمن ساعة

كما ذكرت أن العبقرى قد عاد إلى طبيعته وهدوئه ، مثل معظم المصريين ،بعد عبور اكتوبر ٧٣. وبدأت معظم كتاباته تبتعد عن الغموض واللامعقول ،بل أنه كتب رواية مماثلة للثلاثية (بين القصرين وقصر الشوق والسكرية) ولكن يمتد تاريخ أحداثها إلى ما بعد عبور أكتوبر وإتفاقية كامب ديفيد أى إلى قرب نهاية السبعينات من القرن الماضى ،وفى صفحات تصل إلى أقل بكثير من صفحات رواية واحدة من الثلاثية !.هذه الراوية هى" الباقى من الزمن ساعة " ،وفى قلبها تعيش الشخصيات الكثيرة والمتناقضة التى يبرع العبقرى فى رسمها ووصف مشاعرها كالمعتاد ،حتى يشعر القارىء أنها تنبض بالحياة وكأنها افراد من عائلته.

تناول العبقرى فيها حياة المصريين بالتفصيل فى العهد الناصرى ،وإرتفاعه بتأميم قناة السويس ،وسقوطه بهزيمة يونيو٦٧. وبينهما يصف جنازة الزعيم الوفدى مصطفى النحاس فيكتب يقول :"..ولكن الجنازة كانت انفجارا بركانيا غير مسبوق..وتساءل :كيف حصلت هذه الإسطورة ؟!. أى طوفان من جموع بلا نهاية ؟ أى هتافات تتطاير بشواظ القلوب ؟ أى دموع تترقرق فى الأعين ؟ أى حزن يغشى الشيوخ والشباب ؟ من أين جاء هؤلاء الشبان ؟ كيف فرضت هذه الزعامة نفسها على القلوب ساعة الوداع بعد أن توارت عن السمع والبصر وغطتها أيدى الرقباء برداء النسيان.أما زال للوفد مريدون بهذا العدد ؟ هل أنضم إليهم كل محب للحرية ومحروم منها ؟! إضطربت الجموع فى أسى حميم عميق شامل وكأنما تنعى الدنيا والأمل الوحيد."

وكتب فى الرواية عن عبور أكتوبريقول :" إرتفع صوت راسخ النبرات فى الراديو يزف إلى الشعب نبأ عبور قواته المسلحة للقناة .أهى الحرب من جديد ؟ ..تضاربت الاخبار بادىء الأمر ثم تأكد النبأ المذهل. تجلى النصر فى هالة سحرية كمعجزة باهرة تحلق فوق الخيال والتاريخ.إندثرت شخصية صفراء مهزولة وحلت محلها شخصية تضطرم بالعافية والثقة، تلاشت روح فاسدة مكفنة فى الهزيمة وخلقت روح جديدة تختال بالحبور والإلهام ، تبخر يأس الهزيمة وذل القهر وإنكسار القلب وهزجت الأنفس بسكرة التناغم مع الذات والحياة والكون . إنتشل الرجل(السادات) مصر من الفناء ،وأنتشل العرب ". ولأول مرة يصرح نجيب محفوظ بأن الماركسيين قد أزعجهم نصر اكتوبر على يد السادات،عدوهم الذى إعتبروه ممثلا للرجعية والرأسمالية ! فيكتب فى الرواية عن مشاعر سهام (ماركسية)قائلا "..سهام منيت بالهزيمة وحدها. قتل عزيز صفوت (ماركسى) من جديد وأنتصر العدو ووئد الامل وأبتسم المستقبل للرجعية المصرية التى تحرر سيناء.."!!.

أمام العرش

كنت ومازلت حتى اللحظة أؤمن بأن على الدولة أن تدرس رواية " أمام العرش " لطلبة المرحلة الثانوية ،وصارحت الأستاذ بهذا فى ندوة قصر النيل .وهى رواية تلخص تاريخ حكام مصر بداية من حكم الملك مينا ، وتنتهى بفترة حكم الرئيس انور السادات . كتبها نجيب محفوظ متصورا حوارا جميلا وبسيطا ومباشرا يدور بين الحكام يظهر فيه سلبيات وايجابيات كل حاكم ومن قراءتها ،سيتعلم الطلبة المصريون، فى مقتبل حياتهم، الموضوعية والأمانة فى تناول مواضيع التاريخ والحياة ذاتها، هذه الموضوعية والأمانة التى يفتقدونها ،حتى من أبائهم وأمهاتهم !.ومن أقدر وأكمل من نجيب محفوظ لكى يتعلموا منه الموضوعية والأمانة ؟.والطريف أن سعد زغلول (ونجيب محفوظ طبعا !)،فى الرواية ،لم ينس لعبد الناصر محاولته تشويهه فقال له :" لقد حاولت أن تمحو إسمى من الوجود كما محوت إسم مصر، وقلت عنى أننى إعتليت الموجة الثورية عام ١٩١٩،فدعنى أحدثك عن معنى الزعامة ،الزعامة هبة ربانية وغريزة شعبية ، لا تلحق بإنسان مصادفة ولا كضربة حظ أعمى ،والزعيم المصرى هو الذى يبايعه المصريون على إختلاف أديانهم ...ثم يستمر قائلا :" بيد إنى رغم ذلك لم أضمر لك الرفض ، وأعتبرت تجنيك على نزوة شباب يمكن التسامح معها نظير ما قدمت من خدمات جليلة .."ثم يستمر قائلا :" وبالرغم أن ثورتك بدأت كانقلاب عسكرى إلا أن الشعب باركها ومنحها تأييده ،وكان بوسعك أن تجعل من الشعب قاعدتها وأن تقيم حكما ديمقراطيا رشيدا ،ولكن إندفاعك المضلل فى الطريق الإستبدادى هو المسئول عن جميع ما حل بحكمك من سلبيات ونكبات.".

الشحاذ

ذهلت وأنا أتلو للعبقرى فى الجلسة الخاصة بهلتون رمسيس خبر علمى، لا أتذكره حاليا، كنت قد قرأته فى إحدى المجلات ،وإذا به يرد علي ببساطة قائلا " إن قوانين نيوتن صحيحة فيما يخص حياتنا على الكرة الأرضية ،أما فيما لو خرجنا منها الى الفضاء الفسيح ومايخص الكواكب والنجوم والسرعات التى تدور بها، فإن نظريات أينشتين للنسبية هى التى تصح وتسرى عليها. وقد بهرت بمعرفة العبقرى بحقائق العلم هكذا !.وكنت أعلم من خلال رواياته بأنه دائما وأبدا يبشر بأن مستقبل البشرية يعتمد على العلم..(على "عرفه " وكراسته فى أولاد حارتنا)، ولكن لم أكن أعرف أنه يدرك نظريات علمية بهذا التفصيل. والحقيقة أنها كانت سذاجة منى أو قلة معرفة. فعندما زادت معرفتى بالفلسفة ،أدركت أن الفلاسفة والعلماء كانوا واحدا فى بدايات العلم والفلسفة .ففيثاغورث وأرسطو وديكارت وبرترند راسل مثلا ،كانوا علماء وفلاسفة فى الوقت ذاته. ولذلك ليس غريبا ابدا أن نجيب محفوظ الذى تخرج من قسم الفلسفة بإمتياز،وكاد أن يكون استاذا لها فى الكلية لو كان المسئولون قد وافقوا على إرساله لبعثة نيل الدكتوراه فى الخارج ،ليس غريبا إذن أن يكون مدركا لنظريات علمية كبرى. وفى رواية "الشحاذ" بالذات يظهر فيها هوس نجيب محفوظ بالعلم والعلماء. والحقيقة أن بطل الرواية "عمر الحمزاوى " فيه الكثير من نجيب محفوظ !. فقد كان عمر شديد الإيمان بالإشتراكية ولكنه إنشغل عنها بالعمل أولا، ثم بدأ يبحث عن حل وإجابة للقضايا المصيرية الكبرى التى كانت وما زالت تشغل الفلاسفة على مر العصور،عن أصل الكون ،وسر الحياة ومغزاها ،وماهى الحقيقة المطلقة.الخ . ثم أمن بالعلم إلى درجة التطرف وإعتقد إعتقادا جازما بأن العلم قد قضى على الفن والشعر وحتى مهنته ،مهنة المحاماة ،لم يعد يحترمها ،وتمنى لو كان ذو مهنة علمية !!.كتب العبقرى على لسان عمر الحمزاوى يقول :" مات القانون قبل الفن ،عهد الفن قد مضى وأنقضى ،وفن عصرنا هو التسلية والتهريج ،هذا هو الفن الممكن فى زمن العلم ،

ويجب أن نتخلى للعلم عن جميع الميادين عدا السيرك.ثم يقول "وما نظن أنه الفن الحقيقى ليس إلا الضوء القادم من نجم مات منذ ملايين السنين " ثم يقول " قضى العلم على الفلسفة والفن ". والحقيقة أن نجيب محفوظ قد بالغ فى ذلك مبالغة شديدة ربما لأن النظام الناصرى وقتها كان شديد الوطأة على حرية الصحافة وحرية الفن فى مصر، وكانت الدول الشيوعية وقتها أيضا فى عز قوتها فى جميع انحاء العالم (كتب نجيب محفوظ هذه الرواية عام ١٩٦٥) ،مما أفقده الأمل فى أن تصمد الفنون ومهنة المحاماة لهذه الأجواء القاتلة للحريات وللمهن الحرة . وكتب نجيب محفوظ يقول : " وقد بدأت مشكلة عمر الحمزاوى أو مأساته،كما يعترف لصديقه ،بأنه كان مجتمعا فى مكتبه بأحد المتنازعين على أرض ،فقال للعميل " تصور أن أكسبك القضية اليوم وتمتلك الارض ثم تستولى عليها الحكومة غدا " (كما ذكرت كتب العبقرى هذه الرواية فى ذروة وقت إستيلاء النظام الإشتراكى الناصرى على الأموال والممتلكات والأراضى والمصانع). فهز العميل رأسه فى إستهانة وقال : المهم أن نكسب القضية ،ألسنا نعيش حياتنا ونحن نعلم أن الله سيأخذها ؟." ويقول عمر لصديقه: فسلمت بوجاهة منطقه ولكن ذهل رأسى بدوار مفاجىء ،ومن هنا جاء تأثرى بكلام الرجل الذى تردده الملايين كل ساعة دون أن يحدث أى أثر لأى إنسان."

وبدأت رحلة عمر الحمزاوى فى البحث عن الحقيقة المطلقة ..سر الحياة وسر الموت وسر الكون الذى يتمدد بلانهاية .وفى موضع أخر بقول لصديقه " أما أنا فأخطأت الطريق ،إستبدلت بالفن الزائل عملا ينافسه فى البلى ، فالمحاماة كالفن من أعمال العصور البائدة ،وفاتنى مثلك أن أتعلم العلم ، فكيف السبيل إلى نشوة الخلق المفقودة ؟! الحياة قصيرة وأنا لا أنسى الدوار الذى أصابنى عندما قال لى الرجل " ألسنا نعيش حياتنا ، ونحن نعلم أن الله سيأخذها ؟" فيقول له صديقه " هل تزعجك فكرة الموت ؟" فيرد عمر الحمزاوى قائلا " كلا ولكنها تحتم على أن أذوق كنه الحياة " .وفى موضع أخر يقول عمر الحمزاوى لنفسه " فياترى

ماذا أريد ،أجل ماذا أريد، الفقه لا يهم ،والحكم لصالح موكلى لا يهم ،وإضافة مئات جديدة لحسابى لا يهم ، ونعمة البيت السعيد لا تهم،وقراءة عناوين الصحف لا يهم ،فما رأيك فى رحلة فى الفضاء ،فى ركوب الضوء.شكرا لسرعته الثابتة ،الشىء الوحيد الثابت فى هذا الكون الذى لا يعرف الثبات ،المتغير بلا توقف ،المتحرك فى جنون .". تظهر هنا معلومات نجيب محفوظ العلمية الصحيحة والحديثة عن سرعة الضوء الثابتة فى أى مكان وزمان ومن أى مصدر.

وتبدأ حياة عمر الحمزاوى فى الإنهيار،حيث يترك وراءه كل شىء ،العمل والأسرة والأصدقاء من أجل البحث عن الحقيقة المطلقة ،وينذره صديقه قائلا :عمرك سيضيع هدرا، ولن تبلغ أى حقيقة الإ بالعقل والعلم والعمل ". ويعود عمرالحمزاوى أو نجيب محفوظ ليبالغ قائلا: "..وقد تبوأ العلم العرش فوجد الفنان نفسه ضمن الحاشية المنبوذة الجاهلة ، وكم ود أن يقتحم الحقائق الكبرى ولكن أعياه العجز والجهل ، وحز فى نفسه فقدان عرشه فانقلب غاضبا أو عدوا للرواية أو لا معقولا، ولما إستحوذ العلماء على الإعجاب بمعادلاتهم الغير مفهومة نزع الفنانون المنهارون إلى سرقة الإعجاب بإستحداث أثار شاذة مبهمة غريبة ،وأنت إن لم تستطع أن تستلفت أنظار الناس بالتفكير العميق الطويل فقد تستطيعه بأن تجرى فى ميدان الأوبرا عاريا ".

كان هذا هو تفكيرنجيب محفوظ فى هذه الحقبة الزمنية ،والحقيقة أن العبقرى قد جانبه الصواب تماما فى هذه النقطة .وقد تذكرت أن نجيب محفوظ قد ذكر للصحف أكثر من مرة فى تصريحاته عن الفترة التى توقف فيها عن الكتابة بأن السبب هو قيام ثورة يوليو والقوانين الاشتراكية التى طبقتها، وكان هو من أشد المؤمنين بالإشتراكية ،ومن هنا إعتقد أنه لا داعى للكتابة مادامت أن أهدافه التى كان يسعى اليها قد تحققت !. والظاهر أنه كان يعتقد أن الغرض من كتابة الروايات والفن عموما هو الترويج لمبادىء الإشتراكية أو التقدم البشرى !! فلما فوجىء بأن التقدم العلمى المذهل سيكون له اليد العليا فى فرض المبادىء الإشتراكية وفى

تقدم البشرية ،فقد إيمانه بالفن الذى يقدمه هو وغيره. نسى العبقرى أن الفن متعة هائلة لا غنى عنها للبشر بصرف النظر عن أى علم وأى مبدأ !.وأن الإنسان الذى يعيش بالعلم فقط هو أقرب للروبوت، أى إنسان ألى بلا مشاعر أو أحاسيس. إنها غلطة كبرى للعبقرى ،ولكن الكمال لله وحده .ولحسن حظنا وحظ العالم أن العبقرى لم يتوقف كثيرا عند هذا التفكير ،وإنما تخطاه كما صرح هو بنفسه ،فاستأنف الكتابة ومتعنا بعبقريته لسنوات طويلة بعد هذا التصريح .والحق يقال أن إهتمام العبقرى بالفلسفة والعلم جعله يتخطى تماما التعصب الحزبى والعقائدى ،كما تخطى عمر الحمزاوى عقدة الذنب تجاه صديقه القديم الثورى عثمان خليل ، فالفلسفة والعلم أساسهما الحيادية الكاملة والموضوعية المطلقة فوق أى عقيدة وأى حزب .

قلب الليل وعدد الهلال

فى فبراير سنة ١٩٧٠ أصدرت مجلة الهلال ،عددا خاصا بنجيب محفوظ فقط ، حيث بات واضحا وقتها أنه قد أصبح روائى مصر والعرب الأول بلا منافسة . إجتمع عشرة من نقاد مصر الكبار على صفحات العدد ليسأل كل واحد منهم نجيب محفوظ سؤالا واحدا ليرد عليه . وكانت أسماؤهم بترتيب الأسئلة : أنيس منصور، رجاء النقاش ، د.رشاد رشدى ، رشدى صالح ، د. فاطمة موسى ، فؤاد دوارة ، د. لطيفة الزيات ، د.لويس عوض ، معين بسيسو ، د. مصطفى سويف . ثم السؤال الأخير للصحفى ضياء الدين بيبرس .هذا بالإضافة إلى مقالات نقدية عميقة بقلم أكبر نقاد مصر فى الأدب والسياسة والفن التشكيلى والموسيقى والغناء والسينما !.

سأله الاستاذ الناقد الكبير رجاء النقاش :

عزيزى الاستاذ نجيب محفوظ : ..كنت قبل ثورة يوليو ٥٢ وفديا ..أما بعد الثورة فمن الواضح أنك أصبحت تميل إلى الفكر الماركسى...فالماركسيون فى رواياتك هم الأبطال والشهداء وحاملوا الزهور الحمراء وهم الذين يضيئون الحياة بنور الأمل فى الظلمات ..وأحيانا يبدو نقدك للماركسيين هو نقد العشم ....أى أن مسارك السياسى كان من الوفدية إلى الماركسية ...إننى رغم ما أحس به من ميلك إلى الماركسية فأنا ألمح فى كتاباتك ترددا فى إعلان إيمانك بهذه العقيدة السياسية ..فلماذا التردد ؟..

فكان رد العبقرى التالى :

عزيزى الاستاذ رجاء النقاش : لقد شخصتنى فأجدت التشخيص ،فلو خيرت بين الرأسمالية والماركسية لما ترددت فى الإختيار لحظة واحدة ..ولكن هل يعنى ذلك أننى ماركسى ؟!.

وبعد أن عرف نجيب محفوظ ماهو الماركسى ،نفى عن نفسه إيمانه بها وقال :

الإيمان الوحيد الحاضر فى قلبى هو إيمانى بالعلم والمنهج العلمى . ثم قال :أعترف لك بأننى اؤمن بتحرير الانسان من : ١-الطبقية وما يتبعها من إمتيازات كالميراث وغيره. ٢- الإستغلال بكافة أنواعه. ٣- أن يتحدد موقع الفرد بمؤهلاته الطبيعية والمكتسبة. ٤- أن يكون أجره على قدر حاجته. ٥- أن يتمتع الفرد بحرية الفكر والعقيدة فى حماية قانون يخضع له الحاكم والمحكوم . ٦- تحقيق الديمقراطية بأشمل معانيها . ٧- التقليل من سلطة الحكومة المركزية بحيث تقتصر على الأمن والدفاع . ويقول نجيب محفوظ مستطردا، : "هذه صورة المجتمع الماركسى فى نظرى ، الذى هدفه حرية الفرد وسعادته ،والإعتماد فى كل شىء على العلم ،وربما التوجه فى النهاية لمعرفة الحقيقة العليا أو المشاركة فى خلقها." .

واجهت العبقرى برده هذا ،وقارنته بما ورد فى روايته " قلب الليل " على لسان جعفر الراوى الذى أعتقد أيضا أن فيه الكثير من شخصية نجيب محفوظ !. فقد كتب نجيب محفوظ على لسان جعفر الراوى يقول " كتبت مشروعا يقوم على أساسه حزب جديد على أسس ثلاثة ،أساس فلسفى ،مذهب اجتماعى ،أسلوب فى الحكم ،أما الاساس الفلسفى فمتروك لإجتهاد عضو الحزب ،له أن يعتنق المادية أو الروحية أو حتى الصوفية ، والأساس الاجتماعى شيوعى يقوم على الملكية العامة وإلغاء الملكية الخاصة والتوريث والمساواة الكاملة وإلغاء أى نوع للإستغلال وأن يكون مثله الأعلى فى التعامل :" من كل على قدر قدرته ولكل على قدر حاجته "،أما أسلوب الحكم فديمقراطى يقوم على تعدد الأحزاب وفصل السلطات وضمان كافة الحريات،عدا حرية الملكية، والقيم الإنسانية..".

عندما قلت للعبقرى مبتسما أن رده على سؤال الأستاذ رجاء ،متطابق تماما مع مشروع حزب جعفر الراوى فى رواية قلب الليل التى صدرت عام ١٩٧٥ ،ضحك قائلا ومعترفا أن معظم ابطال رواياته وروايات غيره

من الكتاب لابد وأن يجد القارىء في بعض أفكارهم وتصرفاتهم تطابقا مع شخصية وأفكار الكاتب ،وهذا طبيعى .

حكاية بلا بداية ولا نهاية

أثنيت لنجيب محفوظ على تطرقه للصراع الواضح والغير مطلوب بين التدين والعلم فى قصته "حكاية بلا بداية ولا نهاية " فى المجموعة التى تحمل نفس الإسم . فيقول أحد أبطالها الشيخ محمود بحزن :" ياللذكريات ...عرفنا ذات يوم أسماء جذابة كأرشميدس ونيوتن ،وحقائق غريبة كالجزىء والحركة ،ولم أتصور وقتذاك أنها ستطاردنا بعنف كالزمن ."وفى موضع اخر يدور حوار شيق بين طالب العلم والشيخ ، فيقول طالب العلم للشيخ :

فأعلم ياسيدى أننا طلاب علم ،نحب الحقيقة أكثر من أى شىء فى الوجود ،يؤسفنا أننا أزعجناك .

فيرد الشيخ :

نحن لا يزعجنا شىء.حتى الموت نفسه لا يزعجنا.ونحن طلاب الحقيقة منذ الأزل وإلى الأبد.

فيرد طالب العلم :

لعله إختلاف فى وجهات النظر.

فيقول الشيخ :

لم يطالبكم أحد بالدخول فى طريقتنا .

فيرد طالب العلم :

الأراء المتناقضة ياسيدى لا يمكن أن تعيش جنبا إلى جنب فى سلام .

فتساءل الشيخ بحرارة :

ألا تعلمون أنه لولا الأكرم ،لولا الأكرمية ،لما كان لحارتكم ذكر ولا لإهلها شأن أو أمل .

فيرد طالب العلم بثبات :

الدنيا تتغير بلا توقف ولا رحمة يامولانا .

يرد الشيخ :

ولكن الحقائق باقية خالدة .

يرد طالب العلم :

التغير هو الشيء الوحيد الخالد يامولانا !.

الشيخ : التغير ؟!.

طالب العلم :

التغير فى كل يوم ،فى كل ساعة ،فى كل لحظة.

الشيخ : أراك تتعلق بظاهر كاذب خداع .

طالب العلم : معذرة ياسيدى فالظاهر الكاذب هو الجمود .

وفى موضع أخر يقول طالب العلم للشيخ :

من أجل تحقيق البطولات قد نستعين بالعقاقير كما نستعين بها على مقاومة الأمراض!.

إبتسم الشيخ على رغمه ولكنه قال بإمتعاض :

حبوب للتضحية..حبوب للشجاعة..حبوب للأمانة..ماشاء الله !

فيرد طالب العلم منفعلا :

لا تسخر منا ياسيدى ،إن جميع ما حولنا يثير الحزن الشديد. لقد ضقنا بكل شىء ونريد لكل شىء أن يتغير ،وقد ورثنا هذا العالم عن أباء وأجداد ظنت بهم الحكمة يوما ما فحق لنا أن نتنكر لهم ولتراثهم .

فيتمتم الشيخ ممتعضا :

أسفى على الأباء والأجداد

فيرد طالب العلم :

نحن أجدر بالرثاء منهم !."

وقد كتب العبقرى هذه المجموعة عام ١٩٧١ أى أثناء فترة الإضطراب والهزيمة ،هزيمة يونيو ٦٧. المهم أنه فى النهاية يحدث التصالح بين الدين والعلم لكى تعيش الحارة فى سلام .

وفى قصة " حارة العشاق " فى نفس المجموعة تظهر براعة العبقرى فى كتابة حوار بين زوجين، وكيف ينقلب هذا الحوار،فى لحظات وبسلاسة مقنعة،وبإسلوب السهل الممتنع ، من حوار عشق وهيام ، إلى كراهية وغل تصل بالزوجين لحد الطلاق الفورى !!. وتتكرر صورة هذا الحوار ثلاث مرات بين الزوج الشكاك وزوجنه ، بطريقة محفوظية تثير ضحك القارىء وتأمله فى ذات الوقت . وقد لاحظت أن العبقرى يسعد الى أقصى حد عندما يلاحظ القارىء مدى التناقض والسخرية التى يقصدها فى بعض كتاباته.والظاهر أنه لم يقابل أمثال هذا القارىء كثيرا ، مما زاد ،لحسن حظى ،من تقديره لشخصى !.

حكايات حارتنا

وفى رواية "حكايات حارتنا " هناك ملاحظة فى غاية الأهمية بالنسبة لنجيب محفوظ . الرواية كتبها عام ١٩٧٥ ،وهى عبارة عن ٧٨ حكاية يرويها بطل واحد هو الراوى لشخصيات وأحداث مرت فى حياته منذ الطفولة وحتى الكبر. ويذكر الراوى بدأ من الحكاية رقم ١٢ وحتى الحكاية ١٩ أحداث ثورة ١٩١٩ المليئة،كما يتذكرها ، بالسعادة والفخر والكبرياء لمصر والمصريين ولعائلته بالتفصيل . ثم بعد هذا تتوالى الحكايات والأحداث إلى نهاية الرواية بالحكاية الأخيرة رقم ٧٨ دون أن يأتى ذكر لثورة يوليو ١٩٥٢وزعمائها عبد الناصر والسادات ، بخير أو شر بأى صفحة أو سطر أو كلمة !!. أما عن الفتوات والقتل والعنف فحدث ولا حرج !. ولا ينسى العبقرى أن يذكرنا بقسوة حارتنا على النساء فى عدة حكايات فيقول على لسان الراوى " ألا يتيسر للجمال أن يهنأ بالبقاء فى الحارة ؟!" بعد أن حول أهلها حياة فتاة جميلة إلى جحيم لها ولعائلتها !.وفى حكاية اخرى يقول "..والنساء مجبرات على البقاء فى البيت ،إلا لضرورة ، منعا للقيل والقال، تحبسهن التقاليد ،يجمعهن الحرمان ،يعذبهن الفراغ ،يتسلين بالنقار ". "أسرة لا تعرف الموت كما لا تعرف الحياة ". ويقول فى حكاية اخرى " وتعلمنى الخبرة مع الأيام أن حارتنا تقدس طائفتين :الفتوات والبلهاء ". أما حكاية رقم ٥٣ فتستحق أن أذكر جزءا كبيرا منها لجمالها وخفة دم كاتبها نجيب محفوظ ،وهى نوع من الكوميديا السوداء برع العبقرى فى التعبير عنه . وقد قرأتها كاملة على الاستاذ فى ندوة قصر النيل وأنا أضحك وهو فى غاية السعادة !.

" الحكاية رقم "٥٣ " :يكتب نجيب محفوظ :" من فتوات حارتنا حمودة الحلوانى ،ويحكى أنه الوحيد بينهم الذى عمر حتى بلغ التسعين من عمره ، كما أنه الوحيد الذى إعتزل الفتونة بحكم العجز والكبر. وقد تاب وحج ولزم المسجد فى أخر أيامه . ومما يؤثر من سيرته أنه جلس مع الإمام ذات مساء يتسامران عقب درس العصر ،فقال للإمام : كثيرون

يسيئون الظن بالفتوات ولكن أولاد الحلال بينهم كثيرون !. فأبتسم الإمام وقال متهكما : إنك على رأس أولاد الحلال .

فقال الفتوة حمودة بإيمان : حصتى من الخير لا يستهان بها .

رد الإمام : عظيم ، أعطنى مثلا يامعلم حمودة .

رد الفتوة حمودة : أتذكر رجل الفل الذى إشتهر بمغازلة الزوجات المصونات ؟.أنا الذى دبرت مصرعه !.

رد الإمام : ولكنها جريمة يامعلم .

قال: أبدا ، وأنا الذى قتلت سمعة الدنش الذى قتل إبن زوجته .

رد الإمام : ولكن ذلك لم يثبت وقد برأته المحكمة .

رد الفتوة : طظ فى المحكمة ،كان قلبى دليلى وهو أصدق الحاكمين !.ومن حسناتى أننى قتلت فهيمة الألاتية القوادة المعروفة

رد الإمام : قيل وقتها أنك قتلتها لأسباب لا علاقة لها بحرفتها !

رد الفتوة: لا تصدق كثيرا مما يقال !.

ضحك الإمام وقال : زدنى علما بحسناتك !.

رد : وقتلت أيضا يمنى الخيشى .

سأل الإمام: وماذا كان ذنبه ؟

رد: العجرفة ،كان يسير فى الحارة كأنه خالقها .

قال الامام : تعنى أن نفسه سولت له أن يقلدك ؟.

رد الفتوة حمودة : إنك عنيد ولا تريد أن تعترف لى بفضل .

رد الإمام : لا تغضب وزدنى علما بحسناتك !.

فضحك الفتوة حمودة ثم قال : حوادث القتل الباقية والتى فعلتها لا تعد من الحسنات وقد تاب الله على والحمد لله !!.

حوار ساخر وكوميديا سوداء كتبت بعبقرية محفوظ الهائلة.

رأيت فيما يرى النائم

ولم يترك نجيب محفوظ موضوعا أو حالة أو قضية محلية أو عالمية لم يتناولها فى رواياته أو قصصه القصيرة . ولنأخذ مثلا رائعته " رأيت فيما يرى النائم " وهى مجموعة قصص قصيرة غاية فى الغموض وغاية فى الروعة،ولنتأمل قصة قصيرة فيها تحت عنوان " قسمتى ونصيبى " . وهى عن حياة توأمين ولدا ملتصقين ،جسد واحد من أسفل ،ومن أعلى إثنين برأسين ،فسمتهما والدتهما بإسمى" قسمتى" "ونصيبى".ويشرح العبقرى بإقتدار مذهل ماذا يدور فى عقل كل منهما ،وكيف تستمر الحياة بينهما. لم يحدث على حد علمى أن تناول كاتب روائى فى العالم كله ما يدور فى عقل وقلب توأمين ملتصقى الجسد برأسين وشخصيتين منفصلتين تماما ، هكذا قلت للأستاذ ،الذى رد على بكلمته المتسائلة المعتادة : كده ؟!. بل أن العالم والعلم لم يحدث أن اقتحما هذه المشكلة التعسة إلا حديثا وفى مرحلة تلت وفاة العبقرى بسنوات !.وبدأنا من سنوات معدودة فقط نسمع عن عمليات جراحية متقدمة جدا لفصل التوأمين الملتصقين ،وبدأنا نعرف معلومات عن مدى العذاب والتعاسة والرضاء فى الوقت ذاته التى تنتاب هذين التوأمين قبل الفصل بينهما ،والذى أحيانا ينجح وأحيانا أخرى يفشل وتنتهى العملية بوفاتهما معا!. وعندما نعرف أن نجيب محفوظ كتب هذه القصة القصيرة وسط المجموعة عام ١٩٨٢ ،ندرك ساعتها مدى عبقريته ،وأنه من أجدر من حصل على جائزة نوبل على مر عصورها . وأما بقية القصص القصيرة فى المجموعة ،فمنها سبعة عشرة حلما تحت عنوان " رأيت فيما يرى النائم " ،وكلها أحلام فى غاية الغموض والروعة والعمق ،ويأخذك فيها العبقرى ومعه ،بلغته الغنية، وأسلوبه الساحر، وجمله التى تحمل اكثر من معنى، إلى سر الكون، وسحره وعبق التاريخ، والحياة التى تنضح كما يصفها بالوحشية والجمال !.ولنأخذ مثلا الحلم رقم ٢ الذى يشرح بفن وجمال أخاذ ، كيف بدأ الكون وكيف بدأت الحياة وقدر الإنسان فى الكفاح المستمر فيها ،والذى لا مفر منه ،وأنه لا بد له ،لكى يتحمل وحشيتها ،أن يمتع نفسه بأى وسيلة

كانت. فيكتب نجيب محفوظ ،(وأنا هنا إختصرت الحلم بما لا يخل يالمعنى ولكنه طبعا يخل بالجمال والمتعة) :" رأيت فيما يرى النائم حبة رمل ملقاة بين جذور أشجار ..جذبت إنتباهى وأستحوزت عليه ببريقها ،وبما أوحته إلى بأنها ترانى كما أراها .....ومضت تنتفخ رويدا حتى ألت إلى كرة...ووثبت وكأنما قذفتها قوة فى الفضاء ...وتمادت فى الإنتفاخ ...وركبنى الإرتياع فعدوت بأقصى سرعة مبتعدا عن مركزها المتفجر، عدوت منها ولكنى عدوت فى مجالها وحضنها وقبضتها ، فلا منفذ للهرب ولا صبر على التوقف أو الإستسلام .....وأستوى فى شعورى البعد والقرب إزاء تلك الكينونة المتمادية فى التعملق بلا نهاية... وتبين لى أننى لست الوحيد فى المأزق ،وأن ملايين يلهثون من العدو، وأن السحب تركض أيضا والرياح وأضواء النجوم. وأرتفع صوت قائلا: رفهوا عن أنفسكم بالغناء . فتساءل صوت أخر : وهل يطيب الغناء والمطرب يتخبط فى القبضة ؟ فأصر الصوت الأول قائلا: رفهوا عن أنفسكم بالغناء !. وتحركت الحناجر تغنى كل على ليلاه .وتضاربت الأصوات فأنقلبت عربدة تنضح بالوحشية والجمال ". نجيب محفوظ يدرك أن أحدث وأدق نظرية لبداية الكون حتى هذه اللحظة هى نظرية "الإنفجار الكبير" Big Bang أن الكون بدأ مضغوطا إلى نقطة شبه صفرية ثم حدث الإنفجار الهائل فإنفجرت وتمددت هذه الكتلة المضغوطة إلى هذا الكون الفسيح بمجراته ونجومه وكواكبه. ومازال يتمدد حتى هذه اللحظة وإلى ما شاء الله !.ونحن البشر على هذه الكرة الارضية لا نملك إلا الكفاح المتواصل والتقدم المستمرلنشق طريقنا وسط الأهوال والمخاطر ،ولنمتع أنفسنا بالفن وبكل ما نستطيع أن نفعله لنخفف وطأة الوحشية والمعاناة فى حياتنا. ولا أشك فى أن هذه المجموعة من الأحلام كانت هى الدافع للعبقرى فى أن يتذكر هذا اللون من الكتابة ، كتابة الأحلام ، بعد حوالى عشرين عاما من صدور هذه المجموعة ! وبعد أن ضعفت قدرته على الإمساك بالقلم بعد نجاته من محاولة الاغتيال ،فبدأ يكتب" أحلام فترة النقاهة .

والحقيقة أن المجموعة القصصية " رأيت فيما يرى النائم " وصل فيها العبقرى إلى قمة تمكنه من الأسلوب واللغة والفن ،بما لا يقارن مثلا بمجموعته القصصية الأولى " دنيا الله " التى تبدو وكأن كاتب اخر، أقل مستوى بكثير، هو الذى كتبها !!. وقد واتتنى الجرأة أن أصرح برأيى هذا للاستاذ نجيب ،الذى تقبل رأيى بسلام وهدوء ورد قائلا بتساؤل :كده ؟. وهو رد إعتدته منه عندما يكون غير معترض. والعجيب أنها، أى مجموعة "رأيت فيما يرى النائم" ،أفضل بكثير من مجموعة " الفجر الكاذب " التى أصدرها بعدها عام ١٩٨٨. ولكنى لم أصارحه بهذا طبعا !.

تحت المظلة

كتب نجيب محفوظ مجموعة " تحت المظلة " بعد هزيمة يونيو ٦٧ مباشرة، لذلك كانت كلها تسودها الرمزية والغموض الجميل ،معبرة ،وبالذات القصة الأولى التى سميت بإسمها المجموعة، عن اللامعقول الذى حدث فى حياة المصريين، وعدم التصديق والرعب الذى سادهم من جراء الهزيمة المفاجئة والمدوية . وقد أخبرت العبقرى بمدى جمال وعمق المغزى الذى أنهى به المجموعة. فالقصة الاخيرة على هيئة يوميات،وهى الوحيدة التى لها أحداث واقعية واضحة ، بعنوان " ثلاث أيام فى اليمن "، وهى يوميات فى غاية الرقة والبساطة يتبادل كتابتها أديب ومقاتل مصرى ذهبا إلى اليمن ،أحدهما للزيارة والأخر للحرب، وتنتهى بإستشهاد المقاتل .

وقلت للعبقرى أن إنهاء المجموعة بحرب اليمن له دلالة واضحة على ما يقوله ويؤمن به معظم أبناء الشعب المصرى ،وهو أن حرب اليمن كانت بداية هزيمة يونيو ٦٧ !.وهى ضربة معلم من العبقرى ،وقد وافقنى الأستاذ مصطفى أبو النصر ،وهو ينظر للاستاذ الذى قال كلمة واحدة :تمام .

خمارة القط الاسود

وفى مجموعة " خمارة القط الاسود " التى كتبها هى أيضا بعد هزيمة يونيو ٦٧،تكلم نجيب محفوظ بقسوة عن عالم الفتوات والبلطجية الذين عاثوا فسادا فى الحارة أو الوطن لا فرق !.وفى قصة " الصدى " من إحدى قصص المجموعة ،كتب بلسان أحد البلطجية يخاطب أمه ،أو حارته ،أو وطنه لا فرق :"..إنك لأمنا حقا ،فأسلوبك هو أسلوبنا وقسوتك هى قسوتنا ،وفى بعض أوقات الإرهاق والملل كنت أتساءل عما شكلنا بهذه الصورة الوحشية التى لا تعرفها الكلاب ولا الحمير ولا البقر ولا الجاموس.." وقبلها يقول "..،والساقية تدور ولا تحمل من باطن الأرض إلا العلقم ، لم يجىء الأبناء خيرا منا ..".

وفى قصة "المتهم " من نفس المجموعة يقول البطل بعد أن أتهم ظلما بجريمة لم يرتكبها ،وشهد عليه ظلما أيضا فلاحين ،ويحجزه ظابط بوليس لا يهتم ،يقول عن هذا الكابوس الذى وجد نفسه فيه ،(وهو المعادل الموضوعى لكابوس ٥ يونيو) :" ولكننى لم أسهم فى صنعه، أو لعلنى أسهمت وأنا لا أدرى. وها أنا أفكر لأول مرة فى حياتى. وسوف أفكر طويلا وراء الجدران. وقد تم التعارف اليوم بينى وبين أشياء لم أعرفها قبلا .المصادفة، القدر،الحظ ،والنية والعمل ،الفلاح والضابط والأفندى ...ما يذكر ومالا يذكر. كل شىء يجب أن يعاد التفكير فيه. كل شىء كشىء وككل . يجب أن نبدأ من الألف لنفهم كل شىء ولنسيطرعلى كل شىء وحتى لا يوجد شىء لا يذكر. وليس الزلزال بمسئول ولكن الجهل هو المسئول ، وعليك ألا تذعن بعد اليوم لدكتاتورية المجموعة الشمسية ولا للغة النجوم الغامضة ..".

لقد تسببت كارثة يونيو ٦٧ فى جرح هائل فى عقل وقلب نجيب محفوظ ،مثل أى مواطن مصرى عربى سوى ، ولم يندمل الجرح إلا بعد ٦ اكتوبر ٧٣ مثله أيضا مثل أى مواطن مصرى عربى سوى. ونلاحظ

هنا ،كما ذكرت للعبقرى ،وكان سعيدا بملاحظتى هذه ،أنه فى كل تفكير له فى مشاكل الوطن، لا ينسى أبدا أننا مرتبطون بالكون الهائل الغامض الساحر بنجومه وكواكبه وشمسه التى تعطى الحياة لكرتنا الارضية .

ولا ينسى العبقرى أن من ضمن مأسينا غياب الحب أو قهره ،ففى قصة" البارمان" يردد بطل القصة المصرى أمام البارمان اليونانى بيت الشعر :" كتمت الهوى حتى أضر بك الكتم ولامك أقوام ولومهم ظلم ".

ويسأله البارمان اليونانى : هل هذا شعر؟

فيرد :نعم .

يعلق اليونانى : جميل حقا ، ولكن أأنت شاعر أم عاشق ؟

فيرد : عاشق .

فيسأله اليونانى : جميل ،ولكن لماذا التكتم ولماذا الظلم ؟

فيرد : هكذا الحب فى بلادنا .

فيعلق البارمان اليونانى قائلا : الحب أن تتكلم ،وأن تحب وأن تمرح مع من تحب.

فيرد بطلنا المصرى قائلا : هذا عند اليونان .

فيقول البارمان : عند اليونان والرومان..وكل الناس .".

وقد حكى لى الأستاذ مصطفى ابو النصر أن نجيب محفوظ قد أخبره أنه أثناء سفره هو ويوسف السباعى ليوغوسلافيا ، جاءت إقامتهم فى فندق فخم يطل على حديقة هائلة من الأشجار والورود .وفى الليل نزل الأستاذ مع يوسف السباعى للتنزه ليلا فى هذه الحديقة ،وإذا بالبوليس اليوغسلافى يمنعهم من دخول الحديقة المظلمة !. فإعتقدا فى البداية ،أن

البوليس يرغب فى حمايتهم من أى انسان قد يباغتهم فى الظلام ، وإذا بالمفاجأة المذهلة ،وهى أن البوليس يحمى العشاق الذين يريدون الإنفراد ببعضهم ،من المتطفلين كمحفوظ والسباعى !!.ولا شك أن هذه الحادثة الطريفة قد وضحت للعبقرى الفارق الهائل بين حياتنا الإجتماعية ومدى بعدها الشاسع عن الحرية التى يتمتع بها كل الناس، شرق وغرب،كما ذكر البارمان اليونانى !.

شهر العسل والشيطان يعظ

ويستمر العبقرى فى كتاباته الغامضة واللا معقولة فى مجموعة " شهر العسل " لتكون رمزا لحالة الإضطراب والغموض التى سادت فى مصر قبل عبور اكتوبر ٧٣.

ولم يترك العبقرى شاردة ولا واردة فى حياة الانسان اليومية إلا وحللها وعلق عليها سواء بتعليقاته الفلسفية أو العلمية أو الفكاهية ،حتى لو كانت تتناول جسده !. ففى مجموعته " الشيطان يعظ " وفى قصة " الحب والقناع " يحاور البطل زوجته المؤمنة دينيا فيقول لها : إننى أتفق تماما معك ،فما الإنسان إلا كائن ذوإفرازات كريهة ودوافع فظيعة مرعبة !.

فترد : ماذا قلت ؟ عنيت بالقذارة تخلخل الإيمان ،ولكنك تتحدث عن إفرازات ودوافع كأنك عدو البشر أنفسهم !

فيقول :أعتقد أنى لم أتجاوز الحق.

فترد: لا..لا..معذرة إن قلت أنها نظرة غير عميقة ،فما تشير إليه لا يمنع الإنسان من عبادة الله وغزو الفضاء.

فتساءل فى نفسه : ألم يكن من الممكن أن يحدث ذلك بلا إفرازات كريهة ودوافع وحشية وسلوك دنىء ؟!.

ثم فى صفحة اخرى يقول عن ذاته :" كانت حياتى لعنة ،ولكنها لم تخل من عبرة، فقد علمتنى أن أتجنب الإستبداد بالغير،وإحترام الأخرين فكرا وعقيدة..علمتنى ألا أعد نفسى مقياس الخير والشر فى الوجود ." . وفى مرة أو مرتين إستعنت أنا بهذه العبارات الأخيرة الجميلة وأنا اتجادل مع العبقرى ،فضحك من أعماقه وغفر لى مجادلته !. وفى موقع أخر من القصة يقول له صديقه :" من من الناس حولنا يحظى بشخصية واحدة ؟

نحن فى مسرح كبير ، الجميع ممثلون ،يقولون كلاما جذابا فوق الخشبة ويتهامسون بكلام أخر وراء الكواليس ،هكذا الجميع من القاعدة حتى القمة ،فليس فى حياتك شذوذ، إحذر أى تصرف جنونى ، دع ذلك للمجانين من زبائن النيابة والسجون ،عليك بالسلوك الجدير بإنسان عبثى ،ملايين يمثلون بلا فلسفة ولكن بوحى من غريزة البقاء ،ويواصلون الحياة فى إرتياح وإستيشار وسرور!".

وفى مسرحية " الشيطان يعظ " والتى سميت المجموعة القصصية بإسمها ، يخرج الشرطى مخاطبا الجمهور ممسكا برجل معصوب العينين:ويشرح " إدعى هذا الرجل أنه توجد نجوم لا ترى بالعين فحكم عليه بفقء عينيه . ثم يدخل الكواليس ويأتى بشاب أخر للجمهور قائلا :"هذا الشاب طالب بمساواة الرجال بالنساء فقضى عليه بالإخصاء .ثم يدخل الكواليس ليعود بنعش محمول ويخاطب الجمهور :" هذه جثة مجرم ،إحتج جهرا على تسخير جلالة الملكة للجنى ".ثم يرجع قائلا :" وفى الغد البقية " وعندما يسأل البطل الجنى: أهلكت المدينة كلها ؟ يرد عليه : نعم . فيسأل مرة ثانية :وما ذنب هذا الشعب التعس ؟ فيرد عليه : قررت إهلاك الظالمين بظلمهم والأخرين بنفاقهم وجبنهم .

الحرافيش وجلال عبد ربه

ولنتأمل معا شخصية من أبرزشخصيات رواية الحرافيش،إن لم تكن أبرز شخصيات رواياته كلها !!.جلال عبد ربه، هذه الشخصية الأسطورية التى تمثل أحلام الانسان على مر العصور فى القوة والخلود ومواجهة المرض والموت الحتمى فى النهاية، فتفقد إيمانها أولا ثم صوابها ثانيا،ويأتيها الأجل المحتوم فى النهاية .فجلال عبد ربه إختلطت عقده النفسية فى الطفولة(حيث شاهد بنفسه مقتل أمه بوحشية،ثم فجع بوفاة حبيبته التى إختطفها المرض ثم الموت قبل أن يتزوجها)،بقوته الجسدية الهائلة التى إكتسبها فى المراهقة حتى إستوى رجلا ،بإرادته الفولاذية وشجاعته المذهلة، بحلمه المستحيل فى مقاومة المرض وتحدى الموت ذاته !.تأمل عبقرية نجيب محفوظ وهو يشرح كيف تكونت عقدة جلال عبد ربه عندما شاهد مقتل أمه فكتب يقول :"..منظر تهشيم رأس أمه الجميلة إنغرز فى أعماقه ،كابوس دائم يعذب يقظنه ويكدر أحلامه.كيف تأتى لهذه القسوة أن توجد؟. كيف أمكن أن يلقى جمال نبيل تلك النهاية البشعه ؟ لماذا وقع ذلك؟ لماذا صمتت أمه ؟ لماذا اختفت؟ وماذا جنى حتى يحرم من جمالها وحنانها؟ لم لا ترجع الأيام إلى الوراء كما تتقدم إلى الأمام؟ لم نخسر ما نحب ونعانى ما نكره؟ لماذا تذعن الأشياء لأوامر صارمة؟...هى أمه ومبدعته ومهده وحبه، إنها روحه ودمه...إن العظام المحطمة الغارقة فى بركة الدم لاتنسى إلى الأبد ".

ثم يصف العبقرى كيف بدأ جلال عبد ربه يفقد صوابه وعقله بعد أن إختطف المرض والموت حبيبته" قمر" فبغض الموت بغضا شديدا وطمع فى الخلود فقال :".....ومضى الخريف يولى ويقبل الشتاء بقسوته القاهرة وراح الهواء البارد يسفع الجدران ويلسع العظام.وتطلع جلال إلى سحابة مظلمة فهام بالمستحيل ..كلهم يقدسون الموت ويعبدونه فيشجعونه حتى صار حقيقة خالدة.." "..إننا نعيش ونموت بإرادتنا.ما أقبح الضحايا ! دعاة

الهزيمة..الهاتفون بأن الموت نهاية كل حى.وبأنه الحق.إنه من صنع ضعفهم وأوهامهم.نحن خالدون ولا نموت إلا بالضعف والخيانة ..".

ويصف العبقرى خليط الشجاعة والإرادة والقوة المذهلة التى تجسدت فى جلال عبد ربه فى حوار موجز متصاعد وعبقرى بين جلال وأبيه فكتب يقول:

".. وتجسدت أفكاره المحمومة فى صورة نسر محلق ذى صرير يدك الابنية.

وسأله ابوه ذات صباح وهو يتثاءب:

لم تأخرت عن تسليم الإتاوة لسمكة العلاج (سمكة العلاج هو فتوة الحى)؟.

فأجابه ببساطة وثقة :

لا يفعل ذلك إلا الضعفاء الجبناء .

حملق الاب فى وجهه برعب وسأله :

تتحدى الفتوة ؟!

فقال ببرود :

أنا الفتوة ياأبى.".

تأمل عبقرية الرد الموجز الذى أراد به نجيب محفوظ أن يصف مدى جبروت القوة والشجاعة والثقة والإرادة التى تجلت فى جلال عبد ربه ، رد على أبيه بثلاث كلمات فقط تعنى كل هذا: " أنا الفتوة ياأبى ". ثم يصف العبقرى حياة جلال عبد ربه،بعد أن دانت له الدنيا فيكتب :" دان له الأصدقاء والأعداء. ليس ثمة قوة تتحداه ولا مشكلة تشغل باله.يتمتع طيلة

الوقت بالسيادة والجاه والمال، إكتنفه الفراغ وتسلل إليه التثاؤب،تركز تفكيره فى ذاته.تجسدت له حياته فى صورة بارزة واضحة المعالم والالوان حتى النهاية الحادة العابثة.بدءا من رأس أمه المهشم، ومعاناة الحارة المهينة،وموت قمر الساخر،وقوته المهيمنة بلا حدود..ويتسائل ما جدوى الحزن؟ مافائدة السرور؟ ما مغزى القوة ؟ ما معنى الموت؟ لماذا يوجد المستحيل ؟". ويمعن جلال فى غيه،وفقدان إيمانه بخالقه، وطلبه المستحيل،".

ويسأله أبوه ذات صباح :

الناس يتساءلون متى يتحقق العدل ؟

فيرد جلال بإمتعاض:

ما أهمية ذلك ؟

فقال ابوه بدهشة :

إنه كل شىء يابنى .

فقال جلال بإزدراء :

أنهم يموتون كل يوم،وهم مع ذلك راضون !

فيرد أبوه :

الموت علينا حق، أما الفقر والذل فبيدك محقهما .."

ويستمر الحوار فيقول له أبوه وقد أدرك عدم ايمانه :

أعوذ بالله من الكفر

فيرد جلال بوحشية :

أعوذ بالله من إللاشىء !".

وتستمر شخصية جلال تتجه إلى مصيرها الحتمى بقلم العبقرى فيكتب "..ما يدفعه إلى الجاه والمال والتملك قوة عمياء مجهولة،جوهرها القلق والخوف ،كأنما يتحصن ضد الموت،أو يوثق علاقته بالأرض حذرا من غدره. لقد غرق فى خضم الدنيا ولكنه لم يغفل قط عن خداعها،لم تخدره إبتسامتها،لم يطربه عذب حديثها ،كان حاد الشعور بلعبتها المرسومة ،وغايتها المقصودة .لم يأنس للخمر ولا المخدر ولا الهوى ولا التكية،وكان إذا خلا لنفسه تأوه قائلا : ما أشد عذابك ايها القلب !"....." وعندما سأله أخوه راضى :

لم لا تتزوج ياأخى ؟

رد قائلا :

لم الزواج ياراضى ؟

فرد راضى :

إنه المتعة والأبوة والخلد

فضحك جلال عاليا وقال

ما أكثر الأكاذيب ياأخى!

فتساءل راضى:

لمن تجمع هذه الأموال ؟

ياله من سؤال! هاهو ذا الموت يطارده دائما.. هاهو رأس أمه ووجه قمر يتجسدان من جديد. لن تنفعه القلعة ولا النبوت. سيذوى بهاء هذا الجمال المتالق.ستتقوض أعمدة هذه القوة الشامخة.سيرث المال قوم

أخرون وهم يغمزون ويسخرون وستعقب الإنتصارات الباهرة هزيمة ابدية ".

يالعبقرية نجيب محفوظ الخالصة ! وصف وأسلوب وتعبير عبقرى للإنسان الذى يبغى الخلود فيفقد إيمانه ويحتقر البشر ويندفع للمجهول وينتهى نهاية وحشية . تقول له حبيبته الجديدة : السعداء حقا من ينعمون بشيخوخة هادئة فيرد عليها بتحد :السعداء حقا من لا يعرفون الشيخوخة !.وفى حوار اخر يقول لها :أصارحك بأننى احتقر الناس .فترد عليه قائلة : ولكنهم مساكين ! فيقول : لذلك احتقرهم ! ويكمل وهو متقزز :لا تشغلهم إلا لقمة العيش.. ويكمل قائلا : لم لا يسلمون للجوع كما يسلمون للموت ؟!.وعندما يذهب لمقابلة شيخ من الشيوخ المخاوبين للجان والذي إعتقد أنه يمكنه أن يمنحه وصفة للخلود، دار بينهما الحوار التالى: " يسأله الشيخ :" ماذا تريد؟ يرد جلال : أريد الخلود. يسأله الشيخ : لماذا؟ يرد جلال: هذا شأنى .يقول الشيخ : ولكن المؤمن لا يتحدى إرادة الله . يرد جلال :أريد ذلك وأنا مؤمن .يقول الشيخ : إن ما تطلبه خطير. رد جلال: فليكن." وقد طلب منه الشيخ عدة طلبات ومنها أن يعتكف عاما كاملا دون أن يرى أحد سوى خادمه!.وبعده سيتحقق له الخلود !

وهنا أيضا تظهر عبقرية نجيب محفوظ فى وصفه لتاثير الزمن والعزلة على الإنسان ، فيكتب قائلا: " ومرت الأيام وهو مستغرق فى عزلته. يقتلع كل يوم من قلبه جذور العالم الخارجى،الفتونة والمال والمرأة المحبة الجميله. يستسلم للصمت والوعى والصبر.يسليه الامل والفوز الذى لم يطمح إليه إنسان من قبل. عاشر الزمن وجها لوجه بلا شريك. بلا ملهاة ولا مخدر. واجهه فى جموده وتوقفه وثقله.إنه شىء عنيد ثابت كثيف وهو الذى يتحرك فى ثناياه كما يتحرك النائم فى كابوس.إنه جدار غليظ مرهق متجهم.غير محتمل إذا إنفرد بمعزل عن الناس والعمل. كأننا لا نعمل ولا نصادق ولا نحب ولا نلهو إلا فرارا من الزمن . الشكوى من قصره ومروره أرحم من الشكوى من توقفه."

ثم يصف العبقرى شعور الإنسان عندما يتوهم بأنه قد ظفر بالخلود فيقول :"..عندما يدركه الخلود سيجرب ألاف الأعمال بلا خوف وبلا كسل. سيخوض المعارك بلا تدبر.سيسخر من الحكمة كما يسخر من الحماقة.سيتقلد ذات يوم عمادة الأسرة البشرية.....إنه مؤمن بما يفعل.لن يتراجع.لن يخشى الخلود.لن يعرف الموت.سيظل الكون خاضعا لتقلبات الفصول الأربعة،أما هو فربيع دائم . سيكون طليعة كون جديد.أول مستكشف للحياة بلا موت.أول رافض للراحة الأبدية. إنما يخشى الحياة الضعفاء.أما معاشرة الزمن وجها لوجه فعذاب لا يعرفه الخيال."....وفى أخر أيام العام الذى أنعزل فيه عن العالم أحس بأنه "..إنتصر على الزمن بعد صموده أمامه وجها لوجه بلا رفيق.لا خوف منه بعد اليوم.فليهدد غيره بجريانه المنحوس.لن يبتلى بالتجاعيد ولا بالشيب ولا بالوهن.لن تخونه الروح.لن يحمله نعش.لن يضمه قبر.لن يتحلل هذا الجسد الصلب.لن يتحول إلى تراب.لن يذوق حسرة الوداع." ثم "تجول عاريا فى الغرفة وهو يقول بطمأنينة: مباركة هذه الحياة الأبدية ".

وفى عبقرية مذهلة لنجيب محفوظ يصف علاقة الخلود بالفضاء اللا نهائى والمجرات والكون الممتد إلى مالا نهاية فيكتب عن جلال عبد ربه،بعد أن توهم أنه أصبح خالدا فيقول : " فى جوف الليل تسلل إلى المئذنة.رقى سلمها درجة درجة حتى إنتهى إلى شرفتها العليا. تحدى جو الشتاء القارس فى تسلطه الشامل على الوجود. تطاول رأسه إلى مهرجان النجوم الساهرة المنتشرة فوقه كمظلة. ألاف الأعين تومض فوقه، وكل شىء تحته غارق فى الظلام . لعله لم يصعد ولكن قامته طالت كما ينبغى لها. عليه أن يرتفع،أن يرتفع دائما، فلا سبيل إلى النقاء إلا بالإرتفاع. وفوق القمة تسمع لغة الكواكب.وهمسات الفضاء، وأمانى القوة والخلود ،بعيدا عن أنات الشكوى والخور وروائح العفن.الأن تشدو ألحان التكية بإغنيات الخلود، وتعرض الحقيقة العشرات من وجوهها الخفية، وينكشف الغيب عن شتى المصائر. من هذه الشرفة يستطيع أن يتابع الأجيال فى

تعاقبها. وأن يؤدى لكل جيل دورا، وأن ينضم بصفة نهائية إلى أسرة الأجرام الثانوية ".

أما أثر هذا الخلود المزعوم على من حوله فقد شعرت حبيبته بأنه قد " خرج من عزلته مخلوقا أخر، مخلوقا يبهر بالقوة والجمال،ويرعب بالتقلب والجنون والحنكة والإستهانة ".وأما أبوه فقد " داخله قلق مرعب من ناحيته ،وخيل إليه أن علاقة الأبوة تنتهك، وأن إبنه أصبح غريبا لا يمت له بصلة،بل أصبح غريبا بين الناس ..إنه قوى وجميل وعقيم وغامض ".

وأنتهت حياة جلال عبد ربه الطامع فى الخلود بنهاية عنيفة مزرية ،حيث قتلته حبيبته بالسم . وكان وصف مشهد مقتله، والمشاعر التى إنتابته أثناء احتضاره ،وهو غير مصدق أنه يموت بعد أن أعتقد إعتقادا جازما بخلوده ،هو مشهد كتبه محفوظ بروعة وعبقرية .

حضرة المحترم

قلت للعبقرى فى ندوتنا الخاصة ،وأنا أعلق على رواية " حضرة المحترم ": يخيل إلى يانجيب بك ،أن بعضا من شخصيات رواياتك تختمر فى ذهنك ، وتخرج إلى النور،نتيجة إختيارك لصفة معينة من صفات البشر ،تبرزها وتذهب بها فى خيالك إلى أقصى درجة ممكن تصورها ،فتتشكل الرواية على ما سيحدث لو أدمن الإنسان هذه الصفة ،ثم تضعها على الورق !.فمثلا بطل " حضرة المحترم " موظف مثل حضرتك ،وكلنا نعرف من تاريخك أنك كنت مثالا للموظف المصرى الملتزم تماما بعمله ومع رؤسائه، إلى أن تركت الوظيفة لتتفرغ للأدب . فتصورت لو أن إنسانا أدمن الوظيفة وعبدها وعبد تصوراته عنها ورهن مستقبله بالكامل لها ،فماذا ستكون حياته عندها ؟،فخرجت هذه الراوية للنور!.فرد العبقرى: " جايز جدا ، ولكن بطريقة غير واعية وبدون تعمد ". وقد كان رأيى ومازال أن المسألة بها جزء كبير من التعمد والتخطيط ،ولكنى لم أجرؤ على التصريح بهذا للعبقرى !.

ويصف العبقرى مدى هوس بطل الرواية بالوظيفة فى رده على حبيبته عندما تسأله : ألست تغالى فى تقديرك للوظيفة ؟ فيرد قائلا " الوظيفة حجر فى بناء الدولة ،والدولة نفحة من روح الله مجسدة على الارض.". ويتطابق هذا الوصف المتطرف للدولة مع وصف الفليسوف الالمانى الأشهر " هيجل " وبنفس تعبيره تقريبا. وهذا لا يخفى طبعا عن فكر العبقرى الذى كان متفوقا فى قسم الفلسفة . وهذا التقديس للدولة فى العقلية الالمانية فى ثلاثينات القرن الماضى هو ما أدى إلى ظهور الديكتاتور هتلر ،وهو ما أدى إلى حكم الإستبداد فى الشعوب التى تقدس الدولة ووظائفها.

وفى وصف موسع تنجلى فيه خبرة العبقرى بالوظيفة الحكومية ،والخلفية التاريخية والاجتماعية والفلسفية لها فى عقل الانسان المصرى،

يكتب العبقرى فى الرواية "...إن الموظف مضمون غامض لم يفهم على وجهه الصحيح بعد. الوظيفة فى تاريخ مصر مؤسسة مقدسة كالمعبد ، والموظف المصرى أقدم موظف فى تاريخ الحضارة . إن يكن المثل الأعلى فى البلدان الاخرى محاربا أوسياسيا أو تاجرا أو رجل صناعة أو بحارا ،فهو فى مصر الموظف . وأن أول تعاليم أخلاقية حفظها التاريخ كانت وصايا من أب موظف متقاعد إلى إبن موظف ناشىء . وفرعون نفسه لم يكن إلا موظفا معينا من قبل الألهة فى السماء ليحكم الوادى من خلال طقوس دينية وتعاليم إدارية ومالية وتنظيمية . ووادينا وادى فلاحين طيبين يحنون الهامات نحو ارض طيبة ولكن رؤسهم ترتفع لدى إنتظامهم فى سلك الوظائف ، حينئذ يتطلعون إلى فوق ، إلى سلم الدرجات المتصاعد حتى أعتاب الألهة فى السماء . الوظيفة خدمة للناس وحق للكفاءة وواجب للضمير الحى وكبرياء للذات البشرية وعبادة الله خالق الكفاءة والضمير والكبرياء ."

والحقيقة أنه أحيانا ما ينسى العبقرى أنه يكتب رواية ،وتدفعه قوة معلوماته التاريخية والفلسفية إلى المباشرة ، وهو مايخل، أحيانا، وفى أجزاء منها، بالجو الفنى لها !. وطبعا لم أجرؤ على مصارحة الاستاذ برأيى هذا . ومن الجدير بالذكر أنه ،كمعظم شخصيات وأبطال روايات العبقرى ، دائما وأبدا ما يتدخل البطل الدائم والمهيمن فى رواياته، وهو الزمن ، ليفسد أو يغير من خطط البطل البشرى للرواية ،ويحطمها !.وفى هذه الرواية المؤثرة ،لم ينس البطل الموظف ،فى كل مراحل تقدمه فى الوظيفة ،أنه فى صراع مستمر مع الزمن وأنه عدوه اللدود. فعندما ينصحه زميله فى المكتب قائلا :" على كاتب المحفوظات أن يخلع جاكتته وهو يعمل ، أو أن يحيك لكوعه كمامة من القماش تقيه شر الغبار والإكلبسات . يرد البطل الموظف فى سره قائلا :" كل ذلك يسير، أما العسير حقا فهو كيف نتعامل مع الزمن .". وفى موضع أخر وبعد ترقيه يقول لنفسه أيضا :" ما قيمة هذه المزايا حيال سرعة العمر أو مرض مباغت ؟!." وعندما رفضته زميلته الشابة بلباقة كعريس متقدم فى السن

قال لنفسه :" هاهو الزمن يلهبه بسياطه ،على حين أنه لم يعد يقوى على العدو."!. وفى موضع ثالث يقول لنفسه :" هون من أحزانك ،لم تعد تتحمل كالزمان الأول، أجل يوجد تغير جديد ،خفيف كالنسيم ولكنه ماكر كالثعلب. إنه السن ،وأنه الزمن ..بفضله نحقق كل شىء ،وبسببه نخسر كل شىء،ولا يبقى إلا وجه ربك ذى الجلال .".

وتتناثر هنا وهناك وفى أكثر من موضع من الرواية كعادة العبقرى دائما فى كل رواياته ،كلمات وعبارات علمية وفلسفية غاية فى العمق والشمول والجمال ، تأمل خواطر بطل الرواية الموظف الذى تمت ترقيته من المحفوظات إلى إدارة الميزانية : " ..ورفع عينيه إلى السماء فرأى النجوم الساهرة. مستقرة فيما يبدو ولكن لا شىء جامد فى الكون. وقال إن الله خلق النجوم الجميلة ليحفزنا إلى النظر إلى أعلى . وأن المأساة أنها ستطل يوما من عليائها فلا تجد لنا أثرا. ولا يتحقق معنى لوجودنا إلا بالعرق والدم .". وفى موضع أخر،يكتب :" فى لحظة من لحظات الحياة يستوى من أخذها مأخذ الجد ، ومن لها بها لهو العبث والهزل !.". ثم تأتى الضربة قبل القاضية لهذا الموظف الذى يحارب الزمن حربا ميؤسا منها ،عندما يصاب بأزمة قلبية ،بعد أن إعتقد أنه حقق السعادة أخيرا بزواجه من زميلة شابة حسناء أحبته !.

وعندما يعتقد قارىء الرواية أنه لم يعد هناك مزيد من الضربات والتعاسة لهذا الموظف المناضل ،وإذا بعبقرى الدراما نجيب محفوظ يجعل بطله يغادر الفراش ليجرب قدرته على الوقوف بعد الأزمة القلبية ،وعندما يخرج إلى الصالة يستمع بالصدفة إلى حوار تجريه زوجته الشابة مع عمتها بصوت خافت ،وإذا به يكتشف ،مع القارىء ،أن زوجته الشابة الجميلة ما تزوجته إلا طمعا فى مالديه ،وأنها تندب حظها التعس معه !!. وكان العبقرى سعيدا لأقصى درجة عندما أخبرته بمدى روعة هذه المفاجأة وهذه النهاية ،وأنه أستاذ ومعلم فى الدراما .لهذا نبغ أيضا فى كتابة سيناريوهات الأفلام السينمائية .

ماأظنش ياكفراوى إنى هاحضر الفترة دى !

سألت نجيب محفوظ ،ما إذا كان يأمل أن رواياته الرائعة ستخلد إلى الأبد ؟ فرد قائلا ،لا.. سوف تعيش على الأرجح لمدة حوالى مائتى عاما. وقد عدت بعدها إلى العدد الخاص من مجلة الهلال الذى صدر فى فبراير ١٩٧٠والذى خصصته المجلة بالكامل عن نجيب محفوظ ،وقد سأله الصحفى ضياء الدين بيبرس نفس السؤال ولكن بتوسع .

سأله ضياء :

"...ماذا سيبقى من نجيب محفوظ للتاريخ ؟!. أعرف جيدا أنك تسخر من فكرة الخلود فى الفن .لمست هذا من سهر إسبوع كامل من تسعين حديثا وحوارا لك فى عشرات الصحف والمجلات المصرية والعربية لأختار منها رحيق فكرك وخلاصة حياتك ..ولكنك كمن يحرص على الموت فتوهب له الحياة .وقد فرضت نفسك على الخلود أو فرض الخلود نفسه عليك رضيت أم ابيت . والذى أطمح إليه هو أن أظفر منك بتقييم ذاتى لمراحل تطورك ، وأيها ، فى رأيك سيظل فى دائرة الضوء .وأيها سيختار فى تواضع أن يتوارى فى دائرة النسيان ؟.".

وقد أجابه نجيب محفوظ بالتالى :

" عزيزى الاستاذ ضياء ..نحن فى زمن العلم والتطور السريع ،ما كانت تقطعه الإنسانية فى دهر ستقطعه فى يوم .كل ساعة سيخلق ذوق جديد وتذوق جديد .وبفضل التعليم العام ستظهر مواهب لا حصر لها ،يعطى كل عطاءه ويذهب مشكورا .لقد أمكن حتى اليوم أن يطلع المثقف على التراث أو أكثره ولكن ماذا يصنع غدا إذا نظر وراءه فوجد الألاف بل الملايين من الفنانين والأعمال الفنية ؟.لن يبقى له إلا أن يستوعب عصره وربما العصر المؤثر فيه مباشرة . وما الحاجة إلى الرجوع إلى وراء فى عصر يكتشف كل ساعة عن جديد ؟!. لن يبقى منا شىء وما

ينبغى له . لن يبقى من فننا شىء ولكن قد تبقى مصر لمن يحب مصر ولمن يحب أن يراجع بعض صفحاتها القديمة . ربما لهذا السبب وحده تبقى ، أو تقترب من البقاء ، الثلاثية أو زقاق المدق ، لا كأعمال فنية ولكن كوجه من وجوه مصر.".

وقد تحدثت مع نجيب محفوظ بعدها ،وكنت قد قرأت ، أن العلماء فى طريقهم لزرع microchip خلية إلكترونية دقيقة للغاية تحمل ملايين الكلمات والمعلومات فى رأس الإنسان ليستعين بها وقت الحاجة !.فيمكن مثلا وضع محتوى مكتبة كاملة بألاف الكتب فيها فى خلية دقيقة جدا فى رأس الإنسان ،وبالتالى لن تفقد الإنسانية أى جزء ولو بسيط من تاريخها أو ذاكرتها مهما طال الزمن !. حقيقى الكلام ده ؟ هكذا سألنى الأستاذ مبتسما ،أجبته مؤكد يانجيب بك لأننى قرأت وشاهدت هذه المعلومات فى الصحف ومحطات التلفزيون الأجنبية على مرات متكررة.

تحدثت مع العبقرى على أن العلم أصبح متقدما فى العالم المتحضر إلى درجة أنهم يحاولون حاليا التوصل إلى الجينات المسببة للشيخوخة لتحييدها ومعالجتها بحيث يمكن للإنسان فى المستقبل ،بإذن الله سبحانه وتعالى، أن يمتد عمره لألاف السنوات ،حيث سيعمر الكواكب والنجوم التى سخرها الله سبحانه وتعالى لبنى البشر. وأنه خلال عمر الانسان الذى سيمتد إلى ماشاء الله ،سيظل يواجه مشاكل الشباب الدائم الممتد ،التى ستكون من نوع أخر لا ندرك كنهه حاليا!. " لقد خلقنا الإنسان فى كبد" صدق الله العظيم ." مأظننش ياكفراوى إنى هاحضر الفترة دى" ، هكذا قال لى العبقرى مبتسما فرددت عليه :قاوم يانجيب بك، قاوم وأصمد وهاتحضرها إن شاء الله .فضحك ضحكته الجميلة. وطبعا كان قضاء الله فوق كل أمنية وكل إرادة .

كل هذا قليل من كثير من المناقشات والتعليقات والحوارات التى دارت حول رواياته والتى كنت ورواد الندوة نستمتع بها مع العبقرى الجميل المهذب المتواضع الشامخ على مدى سنوات وسنوات.فعدد رواياته

وقصصه القصيره وصل إلى ما يقرب من ستة وخمسين كتابا ،كنا،نحن مريدوه ومعجبوه وتلامذته، نتناقش حولها ونربط أحداثها ومعانيها رباطا طبيعيا لا زيف فيه بأحوال الوطن الذى نعشقه مع وبفضل نجيب محفوظ على مدار أكثر من عشرين عاما . والحقيقة أن نجيب محفوظ يمتاز بإنتاجه الضخم والمتنوع ،وهو من القلائل جدا من الروائيين العالميين الذين لديهم مثل هذا الكم من الروايات والقصص القصيرة وأستطاعوا ،فى ذات الوقت ،أن يحافظوا فيها على عبقرية الكيف. وأن يمتلك روائى ناصية اللغة والفلسفة وعلم النفس والسياسة والفكاهة معا فهذا نادر جدا بين الكتاب العالميين، وهو فى رأيى ما أعطى حوارات وعبارات نجيب محفوظ التى جرت على ألسنة أبطال رواياته هذا العمق وهذه الروعة.

نهاية التاريخ وصدام الحضارات !

فى نهايات القرن العشرين ظهر كتابان إثنان كانا ومازالا من أهم الكتب التى ظهرت فى العالم منذ صدورهما وحتى هذه اللحظة !.أولهما كتاب "نهاية التاريخ وخاتم البشر" للمفكر الأمريكى فرنسيس فوكوياما الذى صدر عام ١٩٩٣ ،والذى أوضح بذكاء وبعد سقوط الاتحاد السوفيتى وإنهيار النظم الشيوعية فى أوروبا، أن الليبرالية الديمقراطية الرأسمالية قد إنتصرت إنتصارا نهائيا على الأنظمة الديكتاتورية والأنظمة اليسارية لنهاية التاريخ الإنسانى . ومازال حتى هذه اللحظة تحاول بعض الدول مقاومة ما جاء بهذا الكتاب المهم، فبعضها مازال يتبنى القطاع العام فى قيادة إقتصادها والبعض الأخر يتبنى النظام الشمولى فى الحكم، ومازال ما كتبه فوكوياما هو موضوع الساعة عند كل شعوب العالم ،سواء التى تحررت سياسيا وإقتصاديا أو التى فى طريقها الى ذلك . ثم بعدها ظهر كتاب للمفكر، الأمريكى أيضا ، صمويل هنتجتون بعنوان " صدام الحضارات وإعادة صنع النظام العالمى " عام ١٩٩٦ ،الذى تنبأ فيه بأن الصراع القادم سيكون بين الحضارات وليس كما كان بين الأنظمة السياسية الأقتصادية. وها نحن الأن وإلى ماشاء الله فى هذه المرحلة اللعينة من صراع للحضارات المختلفة وصراع داخل الحضارة الواحدة أيضا !. وكان هاذان الكتابان هما محورلمناقشات كثيرة فى ندوات نجيب محفوظ ، وحاولت بقدر المستطاع أن أنقل للعبقرى صورة دقيقة من محتوى الكتابين . أما الأستاذ على سالم فقد كان مهووسا بكتاب" الأمير" لمكيافيللى !.والكتاب عبارة عن نصائح شديدة العمق والذكاء من المؤلف لأمير إيطالى عن كيفية حكم رعيته فى القرن الخامس عشر. وكان الأستاذ على رحمه الله يحاول إقناعنا وإقناع الاستاذ نجيب بأن الكتاب لا يتعارض مع النظام الديمقراطى ،وإنما هو يتعلق بذكاء الحاكم عموما سواء كان ديمقراطيا أم ديكتاتوريا. وهذا صحيح إلى حد ما. وكنت أداعب الأستاذ على سالم قائلا له وللعبقرى أن كل الحكام المستبدين

كهتلر وموسولينى كانوا يضعون كتاب" الأمير" بجانبهم قبل النوم ،وهى حقيقة.

تاريخ ألمانيا الهتلرية

كان كتاب " تاريخ المانيا الهتلرية " بأجزائه الأربعة،الذى كتبه المؤرخ الامريكى "ويليام شيرر" وصدر عام ١٩٦٢عن نشأة النازية فى المانيا ،وصعود هتلر إلى سدة الحكم ثم قيام الحرب العالمية الثانية فى عام ١٩٣٩ إلى إنتهائها فى ١٩٤٥ ،كان ومازال من أهم الكتب والمراجع التى كتبت عن هذه الحرب الهائلة التى راح ضحيتها الملايين من شعوب أوروبا وأمريكا وروسيا .وكان نجيب محفوظ قد قرأه بالطبع، وعندما ذكرت له فى ندوة المعادى ،أن ونستن تشرشل، قبل أن يصبح وزيرا للبحرية ثم بعدها رئيسا لوزراء بريطانيا ،كان الصوت الوحيد فى البرلمان الذى أدرك خطورة النازيه على بلاده والعالم ،فى فترة ما قبل الحرب، وصرخ فى زملائه ،بعد أن غضت بلاده مع فرنسا النظر عن إحتلال هتلر للنمسا ثم لتشيكوسلوفاكيا فى البداية ،قائلا " لقد كتب على بريطانيا وفرنسا أن تختارا بين الخزى أو الحرب ،فإختارتا الخزى وستفرض عليهما الحرب !". وهى عبارات رائعة وتنبؤ صحيح من تشرشل وقتها بما سيحدث !.

وقد أكمل العبقرى على ما قلته، بأن ذكر أن هتلر ظل يعتقد إلى ما قبل النهاية بقليل ، أن الغرب الرأسمالى بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية لن يسمح بإنهيار ألمانيا أمام الشيوعية ،وأنه سيتدخل لإنقاذها من الهزيمة أمام روسيا ،ولكن أمله خاب لأن تشرشل ظل على كراهيته لهتلر حتى النهاية،ولم يهتم بإحتلال روسيا لأجزاء من المانيا وأوروبا !.

وقد إعتقد نجيب محفوظ أن هتلر عندما زار فرنسا بعد سقوطها تحت أقدام جيشه فى بدايات الحرب العالمية الثانية،ودخل نفس عربة القطار التى شهدت من قبل توقيع الألمان لوثيقة إستسلامهم فى الحرب العالمية الأولى ، رقص من الفرحة !.والحقيقة أننى لم أجد فيما قرأته وفيما شاهدته من أفلام وثائقية عديدة والتى صورت هتلر وهو يدخل العربة ،لم

أجد أى دليل على أن هتلر قد رقص !.ولكنى لم أجادل العبقرى فى إعتقاده هذا .

عدد مجلة الهلال الرائع

واخيرا لابد أن أوجه نظر المصريين الشبان والشابات إلى العدد الخاص الأول الذى أصدرته مجلة الهلال فبراير ١٩٧٠ عن نجيب محفوظ لأن فيه كل ما يمكن معرفته تقريبا عن شخصية وفن وحياة العبقرى نجيب محفوظ ،وأناشد أى مسؤل حالى عن الثقافة المصرية أن يقوم بعمل ما يلزم لطبع هذا العدد الخاص ونشره وتوزيعه بأرخص سعر ممكن على أبناء الشعب المصرى .

ولنقرأ معا فقرات من المقدمة التى كتبها بإقتدار رئيس تحرير مجلة الهلال وقتها الاستاذ رجاء النقاش تحت عنوان " لماذا نجيب محفوظ ؟" .يشرح فيها لماذا تخص مجلة الهلال نجيب محفوظ بعدد خاص ؟".فكتب يقول

"....هو كاتب صاحب موهبة خصبة أصيلة.ولا شك أن رواياته وقصصه المختلفة قد قدمت لحظات غنية من المتعة الفنية لعشرات الألاف من المواطنين العرب..ونجيب محفوظ من هذه الزاوية كاتب قومى كبير..إنه مثل ديكنز بالنسبة للإنجليز ، وتولستوى بالنسبة للروس ، وبلزاك بالنسبة للفرنسيين ..إنه يمثل هذا الكاتب القومى بالنسبة لنا نحن العرب...على أن كل هذه العناصر فى شخصية نجيب محفوظ لم تكن تكفى وحدها لكى تجعل منه هذا الفنان القومى الكبير الذى تعتز به الأمة العربية وترتبط وجدانيا وفكريا بأدبه..فهناك عنصر أخر شديد الاهمية والخطورة والحساسية ، وهو أن نجيب محفوظ منذ أول سطر كتبه حتى أخر سطر يضع عينيه دائما على مصر.إنه يستمع بإستمرار إلى نبض مصر فى تاريخها وواقعها ،ولا يضع حاجزا بين أدبه وبين هذا التاريخ أو الواقع على الاطلاق.كل ما كتبه نجيب محفوظ له صلة بمصر وبالتاريخ والإنسان والمستقبل فى مصر . وأدبه،من هنا، هو لون من الأدب السياسى الرفيع ،وهذه نقطة قوة أساسية تربط بينه وبين تاريخنا القومى

برباط لا ينقطع ،وترفع من قامة نجيب محفوظ حتى تجعله من بناة الوجدان العربى المصرى الأصيل ...وهو فوق ذلك كله نموذج رفيع للأخلاق الصافية النقية الأصيلة فى عصر من عصور القلق والإضطراب والبحث عن قيم جديده ..عصر لا يستطيع أن يحافظ فيه على نقائه وصفائه وعزة خلقه إلا من كان فى أصالة نجيب محفوظ وفى قامته المديده : كأنه تمثال حى للكرامة والضمير القومى والكبرياء والتواضع ".
أحسنت ياأستاذ رجاء

كان الأستاذ نجيب محفوظ رمزا للحياة الإنسانية فى أجمل وأشرق وأنبل أحوالها. كان الإنسان فى معيته يشعر بهذا ،ويتمنى لو أن الحياة تعامله مثلما يعامله نجيب محفوظ ، تحترمه مثلما يحترمه نجيب محفوظ ، تحنو عليه مثلما يحنو عليه نجيب محفوظ ، تحاول أن تفهمه مثلما يحاول نجيب محفوظ !، تستقبله وتودعه بإبتسامة وضحكة مشرقة كما نجيب محفوظ .

رحمك الله ياعبقرى وصبرنا على فراقك، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

مهندس محمد الكفراوى

القاهرة أكتوبر سنة ٢٠١٩ ميلادية

جريدة الشعب ٢٢ نوفمبر ١٩٩٤

بل الجبلاوي حاكم مستبد

" هذا التعليق وصلنا فور نشر الجزء الأول من دراسة د.صلاح سلطان في العدد الماضي ، ونحن ننشره إيماناً بحرية الكلمة وفتحاً لباب الحوار كما اعتدنا دائماً ".

كتب الأستاذ صلاح سلطان في مقال نشرته جريدة "الشعب" التي نعتز بها جميعاً بتاريخ ١٥ من نوفمبر ٩٤ يتهم الكاتب الكبير نجيب محفوظ بأنه عندما رسم شخصية الجبلاوي في رواية "أولاد حارتنا" إنما كان يقصد بها الله سبحانه وتعالي والعياذ بالله !!.. ونظراً للظلم الذي وقع علي أديبنا الكبير نتيجة تفسيرات متعنتة للرواية وهو ظلم تجاوز كم رأينا حدود المعقول ، ووصل إلي حد الاعتداء علي حياته . وحيث أنني صديق للأستاذ نجيب محفوظ وأعرف عن يقين قوة إسلامه وصلابة إيمانه وقد قرأت روايته الفذة واتفقت مع المرحوم جلال كشك ومعه ملايين من المسلمين علي تفسير مختلف تماماً عن تفسير الأستاذ صلاح .. لكل هذا أرجو نشر ردي علي المقال المذكور احتراماً لموضوعية جريدة "الشعب" التي عودتنا عليها دائماً وحفاظاً علي أبسط حقوق نجيب محفوظ وحقوق المرحوم جلال كشك الذي لا يملك الآن رداً وهو فر رحاب الله علي ما هوجم به في هذا المقال . وأبدأ بالتالي :

أولاً : كل من درس تاريخ البشرية بدءاً من عهد الفراعنة وانتهاء بعهود الفاشية والنازية والشيوعية وحتي يومنا هذا يدرك تماماً أن مسألة تأليه الحكام كانت تتم بصورة آلية وكأنها والعياذ بالله غريزة في الإنسان . وإذا قرأ الأستاذ صلاح تاريخ حياة ستالين وما كتبه خروشوف عنه ، وتاريخ حياة ماوتسي تونج وما كتبه عنه طبيبه الخاص لأدرك علي الفور مدي ما كان يتمتع به هؤلاء الزعماء من سلطات هائلة تتحكم في أرواح

الملايين من مواطنيهم ، فكلمة واحدة يقتلون أو يلقي بهم في جحيم المعتقلات ، وبكلمة أخري تكتب لهم النجاة . وإذا قرأ كيف عاش تيتو ديكتاتور يوغسلافيا السابق في جزيرته الخاصة التي كانت تحتوي علي كل ما لذ وطاب من نعيم الحياة وفيها حديقة حيوانات خاصة وكأنها جنة علي الأرض . وإذا شاهد ما فعله شعب كوريا الشمالية عند وفاة زعيمه الأوحد وكيف آمنوا واقتنعوا بأن الرياح زمجرت والأنهار ثارت والشمس احتجبت حزناً علي وفاة الأستاذ كيم ايل سونج !!. لو قرأ وشاهد وسمع الأستاذ صلاح سلطان لأدرك ان كل العبارات التي استعان بها من الرواية إنما المقصود بها وترمز للحاكم الديكتاتور في كل العصور الذي يؤله نفسه ويؤلهه شعبه ولا صلة لها بالله سبحانه وتعالي من قريب أو بعيد .

ثانياً : وسوف أذكر بعض العبارات التي ذكرها الأستاذ صلاح والتي وردت بالرواية وأعلق عليها لكي يحكم بيننا ومعنا قارئ جريدة "الشعب" :

١- ص٦ (امتلك هذه الأرض بقوة ساعده وكان رجلاً لا يجود الزمان بمثله وفتوة تهاب الوحوش ذكره). واضح تماماً من العبارة أن الجبلاوي رجل استولي علي الأراضي بالقوة وبالفتونة كأي حاكم أو مغتصب وليس فيها ما يدل علي أنه إله بأي حال من الأحوال .
٢- ص٩٠ (من المسئول عما نحن فيه إلا ذلك الرجل الفظ الغليظ اللعين) بالله عليكم هل هذه العبارات أو الصفات مقصود بها الله ؟ هل هذا فهم معقول للكلمات ؟!
٣- ص٧٠ (صاحب هذا البيت جبار بلا جدال قابع وراء الأسوار بلا قلب متمتع بنعيم لا يخطر علي بال) كل من يقرأ في السياسة وتاريخها يعلم أن الغرب وصحافته كانوا يطلقون علي ستالين – ديكتاتور الاتحاد السوفيتي السابق – عبارة "الجبار القابع خلف أسوار الكرملين" وماوتسي تونج كان جباراً بلا قلب وقتل كل زملائه تقريباً إبان الثورة الثقافية الصينية وتمتع كما ذكر طبيبه الخاص بنعيم لا يخطر علي بال . فكيف يمكن لأحد أن يتجاهل كل هذه المعلومات ليتهم نجيب محفوظ بأنه يقصد الله ؟!!

٤- ص٥٥ (لماذا غضبك كالنار تحرق بلا رحمة لماذا كان كبرياؤك أحب إليك من لحمك ودمك والعفو واللين والتسامح ما شأنها في بيتك الكبير أيها الجبار) إن أي طفل مسلم يعرف أن عبارة " الله غفور رحيم " مع غيرها من صفات العفة والتسامح تملأجنبات وآيات القرآن الكريم فهل كان يمكن لمن هو في ثقافة نجيب محفوظ أن تفوت عليه هذه الملحوظة ؟!! قطعاً لا . إذن عندما يسأل نجيب محفوظ في مرارة عن "العفو واللين والتسامح ما شأنها في بيتك ..إلخ " إنما يوجه سؤاله إلي الديكتاتور .

٥- ص٧١ (إنك تجد أهون مما فعله أدهم سبباً كافياً للبطش بالناس) وص٣٧ (إن أبانا يغفر كل شئ إلا أ يهينه أحد) و (أن الجبلاوي يعلم كل شئ وأن المقيم في البيت الكبير يعلم كل صغيرة وكبيرة) وص٢٣٤ (كلمة منه تغير حارتنا من حال إلي حال) وص ٢١ (أبوك لا يراجع له أمر) .. كل هذه العبارات والجمل التي حاول الأستاذ صلاح أن يفسرها علي هواه لا رد لي عليها إلا بأن أقول له مرة أخري اقرأ سياسة . اقرأ تاريخ ستالين وماوتسي تونج وشاوشيسكو وكيم أيل سونج وسوف تكتشف علي الفور أن كل جملة مما ذكرتها تنطبق تماماً علي أفعالهم وأفعال غيرهم من الديكتاتوريين علي مر العصور وانه دائماً ما تحاول أجهزة حكمهم وبطانتهم ومخابراتهم ان تقنع شعوبهم بانهم – أي الحكام – علي علم بدبة النملة وكل صغيرة وكبيرة في أوطانهم .

ثالثاً : فسر الأستاذ صلاح موت الجبلاوي أيام عرفة بأنه تأكيد من مؤلف الرواية أن الله – الذي هو الجبلاوي في نظر الأستاذ صلاح – سوف يتم الاستغناء عنه في زمن التكنولوجيا والتقدم العلمي أي أن عرفة يمثل التكنولوجيا والتقدم العلمي !.. فإذا طبقنا تفسير الأستاذ صلاح علي أحداث الرواية كلها – والمنطق يقتضي هذا – وكأن موت الجبلاوي يعني الاستغناء عن الله فلابد ان موت عرفة في الرواية يعني الاستغناء عن التكنولوجيا والتقدم !! .. فهل هذا ما يقصده نجيب محفوظ ؟! إن الإله والعلم والتكنولوجيا سيتم الاستغناء عنهم ؟!!. منطق وتفسير لا يصمد . وإنما يقصد نجيب محفوظ فعلاً بالرواية كلها أن يوضح ان تطور الحضارة والإنسانية سيقضي في النهاية علي الديكتاتورية والاستبداد . والعبارات التي انتهت بها

الرواية تؤكد ذلك وتقول ".... لكن الناس تحملوا البغي في جلد ولاذوا بالصبر واستمسكوا بالأمل وكانوا كلما أضر بهم العسف قالوا لابد للظلم من آخر ولليل من نهار لنري في حارتنا مصرع الطغيان ومشرق النور والعجائب ". أليس هذا ما نشاهده فعلاً بعد سقوط سور برلين وانهيار النظم الشمولية في معظم أنحاء العالم ؟!. في هذا التنبؤ وبهذا التحليل تكمن قوة وعظمة أولاد حارتنا .

وأخيراً تحية من الأعماق لأديبنا الكبير نجيب محفوظ المسلم المتمسك بعقيدته والمدافع عنها في كل ندواته العامة وجلساته الخاصة والله علي ما أقول شهيد . وتحية إجلال للكاتب الإسلامي الكبير جلال كشك رحمة الله عليه وأؤكد مقولته الصادقة والحقيقية " ان المسلم الذي يتعرف علي الله تعالي من ملامح شخصية الجبلاوي هو الذي يستحق الاستتابة ويجب أن يعيد تثقيف نفسه وهو مسلم ظن بالله الظنون" صدقت يا أستاذ جلال . وعلي الإنسان لكي يفهم فن نجيب محفوظ أن يكون قارئاً للدين والسياسة والأدب ..إلخ وليس للدين فقط.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

مهندس محمد الكفراوى

(جريدة الشعب ٦ ديسمبر ١٩٩٤)

باعتراف نجيب محفوظ :

أولاد حارتنا تصور الكفاح ضد الاستبداد

كتب الاستاذ ممدوح الشيخ فى جريدة الشعب بتاريخ ٢٩ من نوفمبر عنواناً وهو " باعتراف محفوظ .. ورأى طرابيشى ونوبل أولاد حارتنا تصور موت الإلة"!!وتحت هذا العنوان ذكر الاستاذ ممدوح نص كلمات محفوظ لجريدة القبس الكويتية والتى يشرح فيها الدافع لكتابة الرواية ومضمونها وإذا بنا نفاجأ _نحن القراء_أن كلمات نجيب محفوظ لا يوجد بها أى أعتراف من أى نوع بأن روايته تمثل موت الاله !! واسترسلنا فى قراءة رأى الاستاذ جورج طرابيشى عن الرواية وتأكيد نجيب محفوظ على رأيه وإذا بمفاجأة أخرى تنتظرنا.. ولا كلمة واحدة عن موت الاله !!. فمن أين أتى الاستاذ ممدوح بعنوان كهذا ؟!.يتبقى تعليق ستورى آلن_سكرتير لجنة نوبل _لقد ذكر نجيب محفوظ هدفة من كتابة الرواية ومضمونها للجريدة الكويتية قبل حصوله على الجائزة بثلاث عشر عاماً تقريباً فهل صدر خلال هذة الاعوام أى إشارة أو تصريح من نجيب محفوظ يفهم منه أنه غير رأيه ؟! وهل صدر منه بعد حصوله على الجائزة ما يفهم منه أنه وافق على تعليق سكرتير لجنة نوبل ؟!. لا...لم يحدث ولما كان أى انسان_ نجيب محفوظ أو غيره_مسئولاً فقط عن تصريحاته وأعماله وحيث أن العمل الفنى كلما زاد أتقانه وجماله كلما كثرت تفسيراته وتأويلاته وهوفى هذا يختلف تماماً عن كتب التاريخ وكتب الدين ،إذن لا شأن لى أو لأحد على الاطلاق بما ذكره "ستورى آلن" طالما قال صاحب العمل نفسه كلمته ، إذن نعود الى كلمات صاحب العمل نفسها التى صرح بها للجريدة الكويتية وكلها تؤيد وجهة النظر التى ذكرتها فى جريدة " الشعب " ٢٢ من نوفمبر والتى تتفق مع رأى المرحوم جلال كشك

ومعنا ملايين من المسلمين، فماذا قلت وماذا قال الاديب الكبير نجيب محفوظ؟.

قلت الآتى : " أن نجيب محفوظ يقصد بالرواية كلها أن تطور الحضارة الإنسانية سيقضى فى النهاية على الديكتاتورية والاستبداد وأن الجبلاوى رمز للحاكم المستبد فى كل العصور وأنه لو كان المقصود به الإله فلا بد أن نعتبر موت عرفه هو موت العلم والتكنولوجيا وهذا تفسير ومنطق لا يصمد "وقال الاستاذ نجيب محفوظ للجريدة"بدأت أشعر أن الثورة التى أعطتنى الراحة والهدوء بدأت تنحرف وتظهر عيوبها...بدأت تناقضات كثيرة تقهر النفس، وبدأت أشعر بأن هناك عيوب وأخطاء كثيرة تهز نفسى وخاصة من خلال عمليات الارهاب والتعذيب والسجن.من هنا بدأت كتابة روايتى الكبيرة أولاد حارتنا التى تصور الصراع بين الانبياء والفتوات كنت أسأل رجال الثورة هل تريدون السير فى طريق الانبياء أم الفتوات؟.

عزيزى قارئ جريدة " الشعب"هل هناك أوضح من هذه الكلمات على لسان كاتب الرواية نفسه منذ تسعه عشر عاماً ؟ أن ارهاب الثورة وتعذيبها وسجونها هو الذى أوحى إليه بكتابة الرواية!. وهل هناك شك الآن فى ذهنك انها رواية تصور كفاح البشر ضد الظلم والاستبداد؟ يتبقى تفسير اختيار نجيب محفوظ لرموز فنية تصور صراع الانبياء مع الفتوات وكفاحهم ضد الاستبداد والظلم.

ان كلمة فن تختلف فى معناها عن كلمة تاريخ او كلمة علم أو دين او فلسفة إلخ ... وبالتالى أى عمل فنى فى كتاب سواء رواية ام مسرحية أم قصة قصير أم نقد أم شعراً يختلف تماماً عن كتاب فى الدين او كتاب فى التاريخ . ففى كتب التاريخ اذا تناول مؤرخ وقائع واحداثاً فى فترة تاريخية ما بدقة شديدة وبتفاصيل موثقة أصبح عمله متقناً وتكون نتيجة هذا وصول المعلومات الصحيحة عن هذه الفترة الى ذهن القارئ.

وفى كتب الدين إذا تناول مفكر أو كاتب اسلامى أومسيحى وقائع ماحدث متلاً فى عهد الرسول_ عليه الصلاة والسلام _أو المسيح عليه السلام بدقة وبالتفاصيل وشرح العبرة والمغذى من نزول الوحى والرسالة شرحاً مباشراً، عد المفكر بحق متعمقاً فى شئون دينه وتكون نتيجة هذا التعمق أن تصل الفائدة المرجوة للقارئ ويزداد إيمانه ثباتاً وقوة أما فى الفن وكتب الفن فالعكس هو الصحيح. ففى الرواية أو المسرحية قد يختلق الفنان الوقائع كلها أو يغيرها لكى يصل بقارئه الى ذات النتيجة التى يخرج بها من قراءته لكتاب دين أو تاريخ بل ان الادب الحديث كثيراً مايمزج هذه الوقائع والاحداث التى اختلقها بالخيال وكلما امتزج الواقع المختلق بالخيال المختلق وأصبح من المستحيل او الصعوبة التفرقة بينهما كلما زادت المتعة والاثارة فى العمل الفنى وإذا كان امتزاج الواقع بالخيال عميقاً وجذاباً وآسراً ويثير فى القارئ احاسيس وانفعالات وافكار تهدف الى تأكيد قيم الحق والخير والجمال فإنه يوصلنا الى ذات النتائج التى نحصل عليها من قراءاتنا فى المجالات والنشاطات الانسانية الأخرى وعلى رأسها كتب الدين.وفى دول الحضارة الحديثة يدركون تماماً هذه البديهية والتى نلخصها مرة أخرى فى التالى" أن العبرة فى الفن بما يحدثه فى النفس البشرية من أفكار وأحاسيس وانفعالات نبيلة وليس بما يعرضه من وقائع هى مختلقة اصلاً من ذات الفنان وممتزجة بخياله لخدمة هذة الانفعالات والاحاسيس.وأن محاسبة الفنان سواء دينياً أو أخلاقياً أم سياسياً أم فنياً تتم على هذا الاساس وحده مادمنا معترفين اصلاً بالفن كنشاط إنسانى.

لذلك نجد مثلاً أن اهم أسس الرقابة على الافلام السينمائيه فى الولايات المتحدة الامريكية ليس منصباً بالدرجه الاولى على تفاصيل ووقائع وأحداث الفيلم التى كثيراً ماتكون مليئة بالعنف والقتل والدماء، ولكن الاهتمام يركز على ان يحس المشاهد بالتعاطف والحب لقوى الخير والحق داخل الفيلم ،وليس محتماً أن تنتصر قوى الخير بل فد

تنتصر عليها قوى الشر فى كثير من الافلام، ولكن لابد أن يخرج المشاهد من دار العرض فى النهاية متألماً من هزيمة الخير ومتعاطفاً معه، ولاعناً قوى الشر مهما أنتصرت.

هذا هو مفهوم الاخلاق فى الفن الحديث وهذه هى وسائله وأدواته التى تختلف تماماً عن وسائل وأدوات الدين والتاريخ وإن اتفقوا فى الاهداف والنتائج ، والاديب الكبير نجيب محفوظ فنان أراد أن يصور فى عمل فنى روائى تطور تاريخ البشرية وكفاحها المتواصل من أجل الحرية والديمقراطية ضد الاستبداد والظلم .

ذلك الاستبداد والظلم الذى عاصر بعضه نجيب محفوظ ولمسه فى واقع أعمال الثورة بعد ١٩٥٢ ويعلم الاستاذ نجيب محفوظ كفنان مؤمن بالله أن هذا التطور والكفاح قد تحقق فى الواقع وتاريخياً على يد رسل اصطفاهم الله سبحانه، لكى ينشروا نور الحق والهدايه للبشر جميعاً ، وحيث أن هذا الواقع وهذا التاريخ قد تمت كتابته آلاف المرات بأقلام المؤرخين ومفكرى الاسلام والمسيحية لهذا أراد نجيب محفوظ ان يصل بمتذوق وقارئ الادب الى نفس النتيجة والاستفادة التى يصل إليها بعد اطلاعه وتذوقه لكتب الدين والتاريخ وأن يشعره عن طريق الفن بنفس مشاعر الرضا والفخر والامتنان بهذا الكفاح الضارى ضد الاستبداد، واختار نجيب محفوظ باقتدارمذهل ابطالاً خياليين روائيين لا يمتون فى واقع الرواية (المختلق أصلاً) بأى صله بالرسل أو بالوحى من قريب او بعيد وإنما هم فقط رموز فنيه اومعادل موضوعى لما عاناه وحققه هؤلاء الرسل المصطفون فى الحياة الحقيقية والتاريخ الحقيقى ضد الاستبداد والظلم. _وطوال قراءتك _ عزيزى القارئ_ للرواية الفذة لا يفارقك ابداً الشعور الذى أراده نجيب محفوظ لنا .. شعور التعاطف والحب والاحترام لهذه الرموز الفنية الخيالية..وشعور الكراهية العميقة للفتوات المستبدين الذين قاتلوهم وحاربوهم، وعندما تفرغ من الرواية يزداد إيمانك بأن الحياة الانسانية التى خلقها الله سبحانه وتعالى كان لا يمكن احتمالها فى

الواقع الحقيقى بدون الرسل المصطفين وان نزول الوحى عليهم ليس عبثاً وإنما لنشر نور الحق والهداية و للقضاء على الاستبداد والظلم والفساد، ، وأن على البشر من بعدهم أن يستمروا فى قتال الشر والاستبداد والديكتاتورية فى كل مكان..." كلما أضر بهم العسف قالوا لابد للظلم من آخر والليل من نهار ولنرى فى حارتنا مصرع الطغيان ومشرق النور والعجائب".

فهل هناك أجمل وأرق وأقوى من هذه المشاعر التى تفجرها الروايه لتثبيت الايمان ومحاربة الظلم والطغيان...ثم بعد هذا يقولون لنا: إن هدف الرواية هو موت الإله؟!!.

عزيزى قارئ جريده الشعب لابد أن نوسع مداركنا بالقراءة فى الدين والتاريخ والسياسة والفن والعلم حتى نفهم كتابات نجيب مجفوظ وقبلها وبعدها، حتى تكتمل مقومات شخصياتنا كبشر متحضر مؤمن بالله ورسله ، فلا نتعرض للنبذ أو الازدراء أو الاحساس بالدونية تجاة دول الحضارة الحديثة وفنونها.نجيب محفوظ شرفنا فعلاً كمسلمين وعرب ومصريين فليحفظه الله لنا من الإرهاب والإرهابيين. اللهم آمين.

مهندس محمد الكفراوى

الوفد الثلاثاء ٢٦ رجب ١٤١٣هـ - ١٩ يناير ١٩٩٣ م

لا يا أستاذ نجيب

عهدنا في الأستاذ نجيب محفوظ دائماً الموضوعية في تناول الأحداث السياسية التي تحدث بمصرنا الحبيبة .. ولهذا أصبنا نحن تلاميذه بالدهشة من حديثه الذي أدلي لمجلة آخر ساعة بعددها الصادر ٣٠ ديسمبر ١٩٩٢ فقد صرح الأستاذ بأنه " لا يري أي تناقض بين أهداف حزب الوفد وأهداف الحزب الوطني الحاكم ؟ وأن الوفد لم يعد لديه ما يطالب به اليوم سوي الديمقراطية ، ويمضي الأستاذ قائلاً .. " إذا نحن فتشنا في حقيبة الوفد بحثاً عن أهداف أو مبادئ أو أشياء أخري ذات قيمة بخلاف موضوع الديمقراطية هذا فلا أعتقد أننا سنجد شيئاً "؟!!! وأود ان أقول للأستاذ وللقارئ أن الديمقراطية تعني التالي :-

مجلس شعب حقيقي يملك سلطة الموافقة وعدمها علي الميزانية العامة للحكومة .

مجلس شعب حقيقي يملك سلطة إسقاط إذا ما فشلت أو تعارضت مصالح وزرائها مع مصالح الشعب .

وجود أكثر من مرشح لرئاسة الجمهورية ويختار الشعب كله بإرادته الحرة وبدون تزييف المرشح الذي يتقدم بأفضل برامج اقتصادية واجتماعية وأفضل تاريخ وسمعة وأفضل عقلية .

اقتصاد حر يدرك نجومه من رجال الأعمال أن الديمقراطية الحقيقية وتداول السلطة ستمنع أي تحالف شرير بينهم وبين رجال سلطة مؤبدين في مناصبهم ضد مصالح الشعب

حرية تكوين الأحزاب بدون أي قيود من لجان مشكوك في دوافعها .

حرية إصدار الصحف واختيار مجالس إدارتها اختياراً حراً بواسطة الصحفيين أنفسهم .

تليفزيون وإذاعة حرة تماماً بمجلس أمناء يمثل جميع الاتجاهات والأحزاب .

حرية الرأي والعقيدة والفكر والثقافة والفن .

هذا ما يطالب به الوفد تحت كلمة الديمقراطية وهي كما تري عزيزي القارئ كلمة واحدة فعلاً ولكنها تعني الكثير وهي أسلوب حياة لكل دول العالم المتحضر وهي الطريق الوحيد والهدف الوحيد لأي دولة متخلفة لكي تلحق بركب الحضارة .. فإذا اتهم نجيب محفوظ الوفد بأنه لا يجد غير هذه الكلمة في حقيبته فهو شرف للوفد وتهمة لا ينفيها . أما عن أن الحزب الوطني الحاكم ورئيسه يشارك الوفد هذه الأهداف والمبادئ التي ذكرناها فاترك الحكم علي هذا لضمير القارئ وضمير نجيب محفوظ نفسه الذي ذكر هذه النكتة بجرأة يحسد عليها .

المهندس محمد الكفراوى

حكاياتي مع العبقري

نجيب محفوظ

أسرار تكشف لأول مرة :

- الموقف الذي إتفق الجميع فيه على أن محفوظ فقد عقله !
- محفوظ يتسبب في رفت صديق له من وظيفته .
- من هو الأديب المشهور الذي علق نجيب علي أسلوبه قائلاً : بلا قرف ؟
- سر اختفاء الصحفي الكبير رضا هلال .
- عندما خشي نجيب محفوظ من الحراسة المخصصة له .
- محفوظ عندما يُمثل وعندما يُغني .
- سر قسوة العبقري علي المُلحن بليغ حمدي .
- لماذا امتعض نجيب محفوظ عند الثناء عليه ؟!
- من هو الإعلامي الشهير الذى قال عنه محفوظ هو فاكر نفسه إيه ؟
- متى بدأ نجيب محفوظ يخشي من الموت فعلاً ؟
- كيف يتصرف العبقري عندما يعجز عن التعبير ؟

ISBN 978-977-786-206-6

9 789777 862066

دار غراب للنشر والتوزيع